هروب

في عين الشمس

محمد ربيع

الكتاب : هروب في عين الشمس (رواية)

المؤلف : محمد ربيع

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠٠٩

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/١٩٥٥٧

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 6284 - 98 - 2

الناشر

شمس للنشر و التوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٥/٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٠٢)- ٦٤/٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٠٢)

www.shams-group.net



رواية

هروب

في عين الشمس

محمد ربيع

مقدمة

لا يهرب الناس من الحياة حين تكون قاسية، بل حين تكون معتمة، حين تفقد الحياة عينيها وتغدو عمياء، وتضل طريقها في صحاري البؤس واليأس، وتغمرها نفايات زمن لا يعرف للمستقبل اسمًا ولا رسمًا ولا هوية. وهذا يجعل الناس يتراكضون هاربين من اللاشيء إلى اللاشيء، لا يعرفون إلى أين المفر، ولا ما يعد به المصير، ولا ما يريدون من المستقبل. ولذا، غالبًا ما تعجز الكلمات عن التعبير حين يطلب منها أن تعكس صورة لواقع بائس، يعيش بين وهم ماضوي جميل، وواقع لا يعرف غير المرارة، ومستقبل مجهول وخال من الخيال.

هروب في عين الشمس، هي قصة أناس هربوا من الظلم إلى الظلم، من اليأس إلى اليأس، ومن الإحباط إلى أمل مزيف..إنها قصة إبحار في عين الشمس دون احتراق، عبور لصحراء بلا حدود يقود القافلة فيها سراب مخادع، تجديف في عرض بحر هائج دون بوصلة، والوصول في نهاية المطاف إلى مكان خارج الزمان.

هروب في عين الشمس هي الرواية الثانية التي اكتبها. بعد روايتي الأولى، "رحلة مع القلق"، والتي روت تفاصيل حكاية خاصة، عشتها بكل مشاعري، عشتها في الحقيقة بلا خوف، وعشتها في الحلم مرتعشًا من الخوف، وعشتها مرة ثالثة حين كتبتها على الورق مع ذكريات الألم وآلام مخاض ولادة جديدة، واكتشفت من خلال كتابتها أن

حكاية الكتابة أصعب من حكاية الحكاية. إذ أن الكتابة هي إعادة واعية لتمثيل الرواية، والعيش كل لحظة من لحظاتها بين مشاعر الحزن والفرح، اليأس والأمل، الخوف والترقب، البؤس والسعادة، واكتشاف مرارة وحلاوة الحقيقة التي عجزت عن رسمها وقائع الحقيقة ذاتها.

هروب في عين الشمس قصة خطها القدر، ومثلها أبطال خلقتهم الصدفة، ودفعتهم الحاجة ليعيشوا حياة ضياع مثيرة بلا مغزى. سمعت بعض تفاصيلها من بطلها، وتخيلت ما تبقى منها بشغف طفل يُصغي لحكايات ألف ليلة وليلة تقصها عليه جدته، ويتوجس أن تأتي أمه بعد ذلك لتقص عليه حكاية الغولة. وحين بدأت في كتابة القصة وجدت نفسي، ومن حيث لا أدري، أعيش تجربة أبطالها، وأعاشرهم عن قرب رغم بعد الزمان وغربة المكان.. عشنا معًا في البراري الموحشة، وفي خيام تهزها الرياح بلا رحمة، وفي جوف ليل لا يعرف للفجر موعدًا، في غياهب سجون يحرسها جهل قاتل، وبين ثنايا أحلام يقظة تقدم وعودًا وردية يلفها الوهم.. أصغي لأصواتهم المحبوسة وأتنصت على دقات قلوبهم ترتعد وقد جرفها الحب والخوف وأرسم على ورق بلا مداد صورة لحقيقة لم تفهمها الحقيقة.

د. محمد عبد العزيز ربيع

عمان- الأردن: ديسمبر ٢٠٠٨

دردشة في مقهى الفردوس

- صباح الخير، قال عدنان لرفاقه وبسمة سارحة تغمر وجهه وتجعل عينيه أصغر من المعتاد.

- الساعة تجاوزت الحادية عشرة.. لم تأخرت؟ قال طارق.. لقد قلقنا عليك.. يبدو أن هناك شيئًا جديدًا.. أليس كذلك يا أبو الشباب؟

- أترك عدنان يا أخي في حاله، قال نضال.. طبعًا هناك شيء جديد.. ألا تراه في غاية السعادة، كأنه وجد كنزًا في الليلة الماضية.. على الأغلب وقع في حب جديد وقضى الليل يحلم به.. أو قام بمغامرة من خلف ظهرنا.

- دعك من هذا التهويل والسخرية يا نضال.. في الواقع ليس هناك من جديد سوى أنني قبلت النتيجة، ولا أريد أن أفكر فيها بعد اليوم، ولن أفعل شيئًا سوى الانتظار والتفكير بهدوء في الخطوة التالية.

- لكن ألا تعتقد أننا قصرنا في حساباتنا وكان علينا أن نتوقع منافسة شديدة، وأن نستعد بشكل أفضل؟

- هذا ما يقوله معظم الناس يا طارق كلما تعثرت خطواتهم.. يلوموا أنفسهم أو يلوموا الأخر.. إن ما فعلناه في حينه كان أفضل الممكن في ضوء ما كان لدينا من معلومات وإمكانيات.. لقد كنا على قناعة بما

فعلنا، وهذا يكفي.. لذلك لم نقصر في شيء، وإن علينا الآن أن نقبل بالنتيجة على ما هي عليه، ونحاول تجاوز المحنة التي نمر بها اليوم.

- أنا أتفق مع عدنان.. إن ما حدث أصبح اليوم جزءًا من الماضي الذي لا نملك حياله شيئًا.. المهم هو أين سنذهب، وكيف سنجد طريقنا، وكيف نستعد للخطوة التالية حتى لا تتكرر التجربة الماضية، ونجد أنفسنا نراوح من جديد في نفس المكان؟

- نعم.. هذا سؤال وجيه يا نضال، لكن هل هناك شخص حي أو ميت يعرف تضاريس طريق الحياة الذي يسير عليه؟ أو يستطيع أن يتحكم في مفاجآت المستقبل الذي ينتظره ولا يملك القدرة على صنعه؟

- إذن ما العمل يا عدنان؟

- القبول بالنتيجة أولاً، نسيان ما حدث ثانيًا، عدم لوم أنفسنا أو لوم أي إنسان آخر أو القدر ثالثًا، ومن ثم التفكير بهدوء في الخطوة التالية..

- دعونا نفكر إذن..

- اسمع.. اسمع، قال نضال.. هل سمعتم ما قاله الراديو.. هل سمعت يا طارق؟

- لا.. لم اسمع شيئًا.. كنت مشغولاً.. كنت أفكر فيما قاله عدنان.. هل هناك من جديد؟

- نعم.. المذيع يقول بأن البعثة التعليمية السعودية وصلت إلى عمان البارحة، وأنها جاءت للتعاقد مع مدرسين أردنيين من خريجي الثانوية للعمل في المدارس السعودية.

- ألم أقل لكم أن علينا الانتظار والتفكير بهدوء.. قد تكون هذه هي فرصتنا.. ومن يدري قد تكون فرصة أفضل مما كنا نتمنى في الأمس القريب.

- صباح الخير يا شباب..

- صباح الخير يا حلمي.. أراك اليوم مبسوط.. تكاد أن تطير من الفرح.. هل ترقيت وأصبحت مديرًا لشركة المقاهي التعيسة؟ أم اشتريت مقهى الفردوس من أبو سامح؟

- لا.. لا.. على الأغلب تزوج مرة ثانية.

- لا يا سيدي.. أنا لا زلت في مكاني.. جرسون، أعمل شاي وقهوة وأخدم زبائن مُفلسين مثلكم. لكن البارحة وصلتني دعوة من شركة كويتية كبيرة، دبرها لي ابن عمي سعيد، للعمل هناك.

- كنت اعتقد أنك مبسوط في عملك في نابلس.. هل أنا مخطئ؟

- لا يا نضال، أنت غير مخطئ.. أنا حقا مبسوط في عملي وفي حياتي أيضًا.

- إذن لماذا تريد الذهاب إلى الكويت، هل جننت وفقدت عقلك؟ هل اشتقت لأصولك الصحراوية وتريد أن تعود للعواصف الرملية، أم وقعت فجأة في غرام الأجواء الرطبة الخانقة؟

- لا يا سيدي.. أنا لست مجنونًا، لكن كل الناس تحاول الهرب من الأردن، والشاطر هو الذي يهرب أولاً.. والآن جاء دوري للهروب.. وأنا مبسوط على فرصة الهروب.

- لكن من أي شيء تريد أن تهرب إذا كنت سعيد في عملك وحياتك؟ هل تريد الهروب من خيالك؟ تأكد أنه لن يفارقك أبدًا، ولن تستطيع التهرب منه مهما فعلت.

- في الواقع لا أعرف لماذا أريد أن أهرب.. فكرت في الموضوع كثيرًا، لكنني لم أتوصل إلى نتيجة.. كل ما أعرفه هو أنني أريد أن أهرب كغيري وبس. والآن أخبروني ماذا تريدون أن تشربوا اليوم.. الشيء المعتاد.. قهوة سكر قليل لعدنان وطارق، وشاي لنضال؟

- لا يا حلمي.. من صباح اليوم تغيرت أشياء كثيرة.. أنا أريد قهوة وسط.. وتكون مغلية.

- وأنت يا طارق.. أكيد مثل عدنان؟ ونضال شاي بالمرمية طبعًا.. أليس كذلك؟

- لا يا أبو الشباب.. أريد شاي بالنعناع.

- يعني لا تريد أن تكون فلاح بعد اليوم.. تريد أن تتمدن؟

- أنا فلاح وابن فلاح، وإن لم أعمل في فلاحة الأرض أبدًا.. لكن العيش في بيارة والعمل فيها هو الماضي يا حلمي، والماضي هو الهوية التي لا يستطيع إنسان أن يتهرب منها، والمستقبل هو الخيال الذي نحلم به، وكما تعرف يا أخي، لا الماضي ولا المستقبل يخضع لإرادتنا.. فقط الحاضر هو الشيء الوحيد الذي نستطيع أن نتحكم فيه أحيانًا.. إنه كل الحياة التي يعيشها الإنسان.. أنا وأنت وعدنان وطارق وكل الناس الآخرين.. واليوم قررنا يا سيدي أن نعيش حياتنا وأن نُدْخِل عليها نكهة جديدة.. كل إنسان بحاجة لتغيير بين الحين والآخر.

- حاضر.. خمسة دقائق وتكون القهوة والشاي على الطاولة.

- على مهلك يا حلمي.. نريد شيئًا آخر.. نريد أن نحتفل جميعًا بالتغيير.. نريد شيئًا خاصًا.. كنافة سخنة تُحضِرها مع الشاي والقهوة في نفس الوقت.. سمعت؟ وإياك أن تنسى نفسك؟ كنافتك اليوم على حسابنا.

- شكرًا.. شكرًا سأرسل عنترة فورًا لإحضار الكنافة.. لكن الآن فترة الانتظار أصبحت عشرة دقائق بدل خمسة.

- ما دام أمامنا عشرة دقائق انتظار حتى تحضر الكنافة والشاي، دعوني أقص عليكم حكاية بسيطة قرأتها قبل أسابيع في مجلة أجنبية وجدتها في قاعة مطار القدس، حين ذهبنا هناك لتوديع ابن خالتي سامي الذي هاجر إلى أمريكا.. لقد كدت أن أنسى القصة رغم طرافتها، لكن كلام عدنان والخبر الذي سمعناه من الراديو وقرار حلمي بالهروب من الأردن ذكرني بها.

تقول القصة أن شابًا في مقتبل العمر ربح سيارة جميلة في اليانصيب، كان يتمنى الحصول عليها طوال حياته، لكنه كان يدرك أنه ليس باستطاعته دفع ثمنها. وحين سمع أقرباءه وأصدقاءه بالخبر ذهبوا لتهنئته قائلين له بفرح: إنك رجل محظوظ حقا لتربح مثل هذه السيارة الفخمة. لكن الشاب رد عليهم قائلا بهدوء: ربما..

بعد مرور عدة أسابيع، وبينما كان الشاب يقوم بقيادة سيارته الجديدة بالقرب من تقاطع طرق هام، دخل عليه فجأة سائق سيارة شحن

كبيـرة، اكتشـفوا فيمـا بعـد أنــه كـان سـكرانًا، حطـم السـيارة الجديـدة وأصاب الشاب بكسور متعددة، مما استدعى نقلـه إلـى المستشفى في الحـال. حـين علـم أقربـاءه وأصـدقاءه بمـا حـدث، ذهبـوا لزيارتـه فـي المستشفى مواسين حيث قـالوا لـه بحـزن: مـن الواضـح أن الحظ خانـك هذه المرة. رد الشاب عليهم قائلا بهدوء: ربما..

وبينمـا كـان الشـاب يرقـد فـي المستشـفى، وقعت فيضـانـات وعـواصـف وأمطار غزيرة دمرت العديد من البيوت في المنطقة التـي كـان يسكنها، وجرفت العديد من البيوت ومن بينها بيته، وأغرقتها فـي البحـر. وحـين سـمع أقربــاءه وأصـدقاءه بــالخبر السـيئ، ذهبـوا إليــه فـي المستشـفى قــائلين بارتيــاح: إن الحــظ كــان حليفـك هـذه المـرة، إذ أتــى بـك إلـى المستشـفي لتنجـو مـن الغرق ومـوت محقـق.. رد الشـاب علـيهم قـائلا بهدوء: ربما..

بعد أيام خرج الشاب من المستشفى معافى، وفي اليوم التالي ذهب إلـى حيث كان يقف بيته الصغير كي يتفقد المكان ويرى آثار العاصفة. لكنـه وجد خيمة كبيرة منصوبة في الموقع الـذي كـان يقف عليـه بيتـه، وفـي داخلها رجل غريب، يلتف حوله كل الأحيـاء مـن أهل الحـي الـذي غرق فـي البحـر.. كـانوا يستفسـرون مـن ممثـل شـركة التـأمين عـن خططهـم لتعويض السكان عما فقدوه من ممتلكات. وحين جـاء دور الشـاب، قـال لـه ممثـل الشـركة بعـد أن اطلـع علـى بوليصـة تـأمين بيتــه: آسـف يـا سيدي.. إن بوليصتك لا تغطـي الفيضـانـات، ولـذا لـيس باسـتطاعتنا أن نعوضـك عـن شـيء ممـا فقدتـه. وقـف الشـاب علـى رأس الجبـل المطـل

على البحر الذي ابتلع بيته الصغير.. شعر بأنه كان يقف أمام شباك غرفته التي ترقد تحت الماء، ينظر إلى الخارج، ويرى الأسماك الملونة تحيط به من كل مكان، تمامًا كما كانت العصافير تحيط بشرفة بيته في الصباح فوق الجبل.. شعر بالراحة والهدوء.

في الطريق إلى بيت والديه حيث كان يقيم مؤقتًا، فكر الشاب في الأمر.. وفي الصباح قرر الاتصال بمحاميه والاستئناس برأيه. اتصل بمكتب المحامي، لكنه سمع على الطرف الآخر صوتًا نسائيًا جميلاً لامرأة كان يبدو عليها أنها في مقتبل العمر. قالت له الفتاة إن محاميه في إجازة، وأنها تعتني بعملائه حتى يعود.. بعد تبادل التحيات والاستفسار عن سبب الاتصال، طلبت المحامية الشابة منه أن يُحضر بوليصة التأمين ويأتي إلى مكتبها، وحددت له موعدًا في تمام الحادية عشرة صباحًا في اليوم التالي.

حين نظر الشاب إلى المحامية الشابة عرفها على الفور، إلا أنه لم يجرؤ على سؤالها خوفًا من الإحراج ومن احتمال أن يكون مخطئًا، لكن على ما يبدو كانت الفتاة قد تعرفت عليه أيضًا. لهذا بدأت تسأله عما حدث وعما فعل قبل ذلك، وأين كان حين وقع الحدث.. كان واضحًا أنها كانت مهتمة به أكثر من اهتمامها بالقضية. فجأة، نظرت إلى ساعتها قائلة:

- حان وقت الغداء.. حظك جيد.. أنا غير مرتبطة على الغداء اليوم، وأرجو أن يكون حظي جيد أيضًا، وتقبل دعوتي لتناول طعام الغداء معًا.. هيا بنا، سنكمل مناقشة القضية أثناء الغداء.

جلسا على طاولة صغيرة في زاوية منعزلة في مطعم فرنسي هادئ.. مرت لحظات دون أن يتكلم أحدهما.. نظر إليها نظرة طويلة.. حاولت أن تهرب بعينيها منه.. لمح عندها شيئًا على عنقها كان مطبوعًا في خياله.. تأكد أنها نفس الفتاة التي عرفها منذ زمن وانقطعت أخبارها منذ أن افترقا بسبب رحيل أهله من الحي الذي سكناه معًا. قال وهو ينظر في عينيها الجميلتين:

- إنني أعتقد أنني أعرفك. هل تتذكرينني؟

- نعم.. أتذكرك جيدًا.. ألم نلتقي حين كنا في الصف الأول ثانوي؟ ألم نمثل معًا في رواية روميو وجوليت؟

- نعم. هذا صحيح.. إن ذاكرتك قوية.. لكنك تغيرت كثيرًا.. إنك الآن شابة جميلة وجذابة وهادئة.. امرأة فاتنة.

- شكرًا على هذا الإطراء.. حين عرفتني كنت فتاة صغيرة تحاول أن تنضج بسرعة وتصل إلى مرحلة الأنوثة قبل الأوان.. كنت أريد أن يغازلني الشباب، ويشتهيني الرجال.. وأنت تغيرت كثيرًا أيضًا.. لقد كنت صبيًا شقيًا جدًا، لا تهتم بمظهرك، ولا بملابسك.. والآن أراك وقد أصبحت شابًا وسيمًا وأنيقًا وهادئًا أيضًا.

- أنا سعيد بهذه الصدفة العجيبة.. ثم مد يده وأمسك بيدها قائلاً، يبدو أننا وصلنا اليوم إلى حيث كنا نشتهي قبل سنوات.. لقد وصلنا في الوقت المناسب، لم نتأخر عن الموعد..

وقبل أن ينتهي الأسبوع، أعلنا أنهما قررا الارتباط رسميًا. وبينما كانا يجلسان إلى جانب بعضها البعض يحيط بهم المدعوون في حفل الخطوبة، اقترب منه بعض الأصدقاء هامسين بفرح: إنك حقًا محظوظ كي تجد فتاة بهذا الجمال وهذه الأناقة وهذا المستوى من التعليم.

نظر نحو السماء المفتوحة أمامه، رأى النجوم تتلألأ كأنها تغازل بعضها بعضا في انتظار عناق لم يعدها به أحد، ثم قال بهدوء وبسمة ساحرة تعلو وجهه: ربما..

في انتظار الفجر

كان عدنان شابًا وسيمًا، يتمتع بشخصية قوية وذكاء حاد، ولد في عام ١٩٤١ في إحدى قرى فلسطين القريبة من مدينة جنين، وعاش سنوات طفولته وصباه في مخيم بلاطة الذي يقع على مشارف مدينة نابلس، وهو المخيم الذي يأوي آلاف اللاجئين الفلسطينيين المعدمين. كانت عائلة عدنان قد انتقلت إلى المخيم بعد نكبة ١٩٤٨، حين كان طفلاً، وذلك إثر قيام الاستعمار الصهيوني باحتلال ما يزيد على ثلاثة أرباع فلسطين، وتشريد سكانها من مدنهم وقراهم. وهناك في مخيم بلاطة، عاشت العائلة وغيرها من مشردين في أوضاع معيشية سيئة، خيم عليها الفقر والبؤس والعزلة عن العالم. كانت عائلة "أبو عدنان" تتكون من أربعة أفراد في عام ١٩٤٨، لكنها وصلت إلى سبعة في عام ١٩٥٥، ثلاثة بنات وولدين، إضافة إلى الأم والأب، عاشوا جميعًا في غرفتين صغيرتين بناها أبو عدنان بنفسه من الطين والقش.

أما "أبو عدنان" فقد كان مدرسًا لمادة الرياضيات في إحدى مدارس نابلس الابتدائية، وذلك على الرغم من أنه لم يُكمل دراسته الثانوية. إلا أن ندرة المتعلمين في حينه فتحت المجال أمام أبو عدنان والكثيرين من أمثاله من أنصاف المتعلمين وأرباع المثقفين ليصبحوا مدرسين في مدارس بائسة، تقوم بتدريس تلامذة أكثر بؤسًا، باستخدام كتب

واتبـاع منـاهج دراسـية غلـب عليهـا التخلـف، وغابـت عنهـا طـرق التدريس ووسائل التعليم الحديثـة. لكـن المدرسين فـي تلـك الأيـام كـانوا يتمتعون عمومًا بأخلاق عالية، وحسٍ عميق بالمسؤولية، ممـا جعلهـم موضع احترام وتقدير التلاميذ والمجتمع علـى السـواء، وجعل التلاميذ عمومًا يتشربون أخلاقيات أساتذتهم ويتبنـون مـواقفهم الوطنيـة. كـان مدرسو ذلك الوقت يستحقون لقب مُربين عن جدارة، إذ كانـت التربيـة السليمة بالنسبة لهـم أسـاس العمليـة التعليميـة، وأهم ضمانات تنشئة جيـل مؤهـل لتحمـل مسـؤوليات الأسـرة، والتحلـي بـأخلاق حميـدة، والالتزام بتحرير الوطن.

تعلم عدنان من تجربـة أبيـه وتجربـة غيـره مـن مدرسـين ومثقفين أن العلـم هـو أهـم مـا يمكـن أن يحصـل عليـه الإنسـان مـن ثـروة وسـلاح لخوض معترك الحياة وضمان حد أدنـى من فرص النجـاح. لقد علمتـه تجربتــه الحياتيــة علــى قصــرها أن المــال يفنــى، وأن الأمــلاك تُبــاع وتُشـترى، ويمكـن أن تصـادر مـن قبـل العـدو أو الدولـة، وأن العلاقـات الشخصـية تتغيـر بتغيـر الظـروف والمصـالح، وأن الصـداقات تتبـدل، وأحيانا تتلاشى مع الأيـام. لكـن العلـم الـذي يعشـش فـي الـرأس، والقيم التي تسكن في القلب تبقى أهم الأسلحة، وأفضل مصادر الـدخل القـادرة على مقاومة كل محاولات البيع والشراء والمصادرة.
كان العِلم بالنسبة للفلسطينيين عامـة، واللاجئـين منـهم خاصـة، مصـدر الأمـل حـين يقسـو القـدر، وقـارب النجـاة حـين تـتلاطم أعاصـير اليـأس، وشعلة النور حين تُظلم الحياة وتـدخل نفـق الفقـر والإحبـاط. لـذلك اتجـه

عدنان منذ الصغر، وبتشجيع من والديه، إلى التفكير في مواصلة التعلم بعد إنهاء المرحلة الثانوية، وذلك على أمل دخول معترك الحياة مسلحًا بسلاح العلم القوي. ومما ساعد عدنان على السير في ذلك الاتجاه، اهتمام والده بالعلم وانخراطه في العملية التعليمية والتربوية، وقيامه بالسهر على تعليم أولاده وبناته ومتابعة دروسهم يومًا بيوم.

تربى عدنان على حب قراءة الكتب والجرائد والمجلات التي كان والده يشتريها أحيانًا ويستعيرها من أصدقائه أحيانًا أخرى، مما جعله متابعًا جيدًا للأحداث والتطورات السياسية في الوطن العربي بشكل عام. ولقد ساعدته اهتمامًاته تلك كي يغدو أكثر وعيًا من غالبية زملائه في المدرسة، وشجعته على الانخراط في نشاطات سياسية وحزبية كانت في حينه محظورة وخطرة. كانت الدراسة بالنسبة لعدنان الوسيلة التي تضمن له تجاوز حواجز الفقر، وتؤهله لتحقيق النجاح في الحياة، وكان العمل السياسي على تواضعه، هو التجسيد العملي للالتزام بقضية الوطن والإنسان.. تحرير الوطن من الاحتلال الإسرائيلي، وتحرير الإنسان من ظلم الدولة والحاجة، وتحرير الفرد من الكبت الذي كانت تفرضه عليه تقاليد المجتمع، وتُحبذه القيم الثقافية والدينية السائدة. ولقد استوجب ذلك الموقف قيام عدنان بتوزيع وقته بين طلب العلم في المدرسة، وتعلم أساليب العمل السياسي في الشارع، والاختفاء عن الأنظار بضع ساعات كل أسبوع في نشاطات تنظيمية، وندوات تثقيف فكرية وحزبية.

تعرف عدنان أثنـاء سنوات الدراسـة علـى عشرات الشباب مـن أبنـاء جيلـه مـن سـكان مخـيم بلاطـة، ومـن سـكان القـرى المحيطـة بمدينـة نـابلس، وممـن عاشـوا فـي تلـك القـرى مـن لاجئـين. وحـين تخـرج مـن المدرسة الثانوية في نابلس عام ١٩٦١ كان لديه العديد من الأصدقاء من اللاجئين وأبناء القرى المجاورة، إلا أنه لم يكن لديـه صديق واحد من أبناء العائلات النابلسية القديمـة، ممـا تـرك لديـه شـعورًا بـالمرارة.. كان أبناء العائلات النابلسية في حينـه يترفعون عن مخالطـة اللاجئـين، كـأن الفقر والتشرد والظلم وبـاء قاتـل يُحتم الابتعـاد عنـه، ويسـتوجب تجنب المصابين به.

دفعـت تلـك التجربـة عـدنان علـى صـغر سـنه وتواضـع ثقافتـه، إلـى الانتقال بفكره من التركيز على تحرير الوطن فقط، إلى الاهتمـام بقضـية تحريـر المـواطن أيضًـا. وكمـا اكتشـف عـدنان فيمـا بعـد، كـان مـن غيـر الممكن تحرير الوطن من الأعداء والمحتلين دون تحريـر المـواطن مـن مذلـة الفقر وجرائم الكبت وجهالـة السلطة. وهـذا كـان يسـتوجب بـدوره تأسيس مبدأ العدالـة مـن المجتمـع، وبنـاء نظـم سياسية تعتـرف بحـق كافـة أفـراد المجتمـع فـي المشـاركة فـي الحكـم، وتخلـيص النـاس مـن عنجهيـة المـال والثـروة، والقضـاء علـى التقاليـد العقيمـة والقـيم المهترئـة، ومن بينها القيم والمواقف التـي تنتهك حقوق الفرد والمرأة والشعب والوطن، وذلك لصالح الجماعة والرجل والدولـة والحاكم.

حـين انتهـت السـنة الدراسـية وبـدأت لعبـة انتظـار نتـائج امتحـان التوجيهيـة، كـان عـدنان يلتقـي بأصـدقائه كـل صـباح فـي إحـدى مقـاهي

نـابلس. وكـان الحـديث يتركـز دومًـا علـى ابتكـار أسـاليب جديـدة لنشـر ثقافة العودة وتحرير الوطن المحتل، والدعوة لمقاومـة الظلـم السياسـي والكبت الاجتماعي في وطنه. من نـاحية أخـرى، كـان الـزملاء يحلمـون، كـل علـى حـدة، وعلـى طريقتـه الخاصـة، بفرصـة ذهبيـة توصـلـه إلـى مستقبل أفضل، وتقوده إلى تغريبة جديدة بعيدًا عن كآبـة الفقـر وسـجن التقليـد وظلـم الدولـة وحيـاة المخيمـات، وقريبًـا مـن حريـة الفكـر وثـروة العلم وعلم الثروة.. كان الرفاق يحلمون بفضـاء جديـد تتـوفر فـي ظلالـه حرية العيش والكلمة، وينمو الخيال علـى شـطآنه دون إزعـاج، ويتوالـد الإبداع ويزدهر في ربوعه بنشوة المنتصر.

كان الأمل في الحصول على منحة دراسية يـداعب خيـال عدنان ورفاقـه ليل نـهار، كان عدنان يحلم بدراسـة التـاريخ فـي الجامعـة الأمريكيـة فـي بيـروت، وإجـادة اللغـة الانجليزيــة، والتعـرف علـى ثقافـة الغـرب كـي يخاطـب الأمـريكيين بلغـتهم، يشـرح لهـم قضـية وطنـه وأمتـه العادلـة، ويحكي لـهم حكاية شـعبه الـذي شُـرِّد مـن أرضـه تحت وابـل الرصـاص، ونتيجة لعمليات القتل والإرهاب التـي مارسـتها العصـابات اليهوديـة فـي فلسطين دون رحمة أو ضمير، واستفردت بهم بعيدًا عن عيـون وسـائل الإعلام ومسـامع الـرأي العـام. وبينمـا كـان طـارق يحلـم فـي السـفر إلـى بغداد ودراسة الفنون الجميلة، والعيش في عاصمة الرشـيد واسـترجاع أمجاد العرب في عهود الازدهار والحرية، كان نضـال يتمنـى أن يحالفـه الحـظ ويحملـه إلـى القـاهرة، قلـب العروبـة النـابض، وشـعلة الصـحوة القوميـة العربيـة، ومنـارة الثقافـة والعلـم، ومـأوى الثـوار المشـردين مـن

بلادهم، وذلك لدراسة الطب والعودة إلى الوطن لمساعدة المرضى والعناية بالأصحاء.

وعلى الرغم من أن الحلم كان ولا يزال مسموح به في كل الثقافات وعبر كل الأزمنة، إلا أن عقم التقاليد العربية السائدة، وظلامية الأفكار الخرافية المهيمنة على الشارع العربي، وخوف الدولة من تفتح الأزهار في عيون الأطفال والوعي في قلوب الشباب، عملت على محاصرة الحلم وقتله في رحم أمه. كان البوليس الأردني في تلك الأيام يحترف ملاحقة الشباب، ويهوى إذلالهم وإهانتهم بسبب وبلا سبب، ويتمتع بحرية اعتقالهم والاعتداء عليهم جسديًا متى شاء.. كان هو القانون بكل ما كان يجسده قانون اللاقانون من ظلم وكبت وجهالة. كانت القوانين الأردنية في تلك الأيام لا تسمح للشباب بالتجمع تحت شجرة، أو على سفح جبل، أو في مقهى، أو حتى في بيت بعيدًا عن عيون المخابرات التي لم تكن ترى في عيون الشباب المتطلع للحرية غير المؤامرة. كان البوليس يخاف على النظام من شباب يعاني الفقر، ولا يملك مالاً ولا سلاحًا ولا وسائل اتصال ولا سلطة غير كلمة مكبوتة في الصدر تكاد أن تختنق وتخنقه.. كان الهم الأكبر لشباب تلك الأيام يتمحور حول كيفية الحصول على وظيفة بسيطة تقيه الحاجة وتخلصه من شبح الفقر، بينما كان نشاطه السياسي الأخطر يتمحور حول نشر ثقافة العودة. وبسبب نشاطه في هذا المجال، تعرض عدنان للاعتقال أكثر من مرة، مما جعل الهروب من الأردن، حيث يتجذر البؤس ويتنامى الخوف ويقف شبح الاعتقال على باب بيته كمارد مرعب،

هدفه الأول وأمله الأكبر.. الأمل في الخلاص من نفق حياة معتم بلا نور أو أفق، إلى أفق حياة واسع بلا ظلام أو نفق.

جاءت نتيجة التوجيهية بعد عذابات الانتظار مخيبة لآمال عدنان ورفاقه، كانت علامات عدنان ممتازة في كل المواد تقريبًا، إلا أنها لم تكن كافية للحصول على إحدى المنح القليلة المخصصة لأبناء المخيمات من قبل وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين. كما أنها لم تكن كافية للحصول على إحدى المنح المخصصة من قبل الحكومة الأردنية للواء نابلس. كان نظام المنح الحكومي في حينه يساوي بين كافة ألوية المملكة الأردنية، وذلك على الرغم من أن لواء نابلس كان يتجاوز من حيث أعداد السكان والخريجين أعداد سكان وخريجي كل ألوية الضفة الشرقية فيما عدا عمان. إلا أن الأمل في الحصول على منحة دراسية من إحدى الحكومات العربية أو الأجنبية بقي يداعب خيال عدنان ورفاقه.

كانت الأوضاع الاقتصادية في الأردن في الستينات سيئة، وميزانية الحكومة تعتمد اعتمادًا شبه كلي على المساعدات الخارجية، والوظائف المتاحة قليلة جدًا، وتكاد أن تقتصر على الجيش وأجهزة الحكومة المتخلفة، وتحتاج في الغالب لواسطة قوية. وهذا جعل سوق العمل في دول الخليج العربية يستحوذ على اهتمام الأردنيين عامة، بغض النظر عن مؤهلاتهم العلمية، ومستوياتهم الثقافية، وفئاتهم العمرية.. كانت دول الخليج العربية أفضل الأماكن الواعدة، وذلك بسبب ارتفاع عائدات النفط فيها، وتنامي اقتصادياتها باضطراد،

وتزايد حاجتها للأيدي العاملة عامة، خاصة المدربة منها، والكفاءات البشرية المؤهلة تأهيلاً علميًا عاليًا كالأطباء والمهندسين وأساتذة الجامعات وغيرهم.

بعد حوالي الأسبوعين من إعلان نتائج التوجيهية، وقبل أن يتسلل اليأس إلى قلب عدنان وقلوب رفاقه ويسيطر الإحباط علي نفوسهم، سمع الأصدقاء خبرًا واعدًا من راديو المقهى الذي تعودوا على الجلوس فيه والالتقاء حول قهوته ذات النكهة اليمنية المنعشة.. إذ بينما كانوا يتبادلون الحديث كالمعتاد سمعوا النبأ الذي حمل إليهم بعض الأمل في الخروج من الظلمة إلى النور.. نبأ وصول البعثة التعليمية السعودية إلى عمان بهدف التعاقد مع مدرسين أردنيين للعمل في المدارس السعودية. استبشر عدنان ورفاقه خيرًا بذلك الخبر الذي لم يتوقعوه ولم يكن جزءًا من أحلامهم في أي يوم من الأيام. وقبل أن يحتدم النقاش حول التفاصيل والتبعات، ترك عدنان المقهى مسرعًا.. عاد إلى بيته وعائلته في مخيم بلاطة، حيث نقل إليهم ما سمع من أخبار، لم يكن يعرف كيف يتعامل معها.

ابتسم الأب ابتسامة الرضا، فكم كان يحلم بأن يرى ابنه الأكبر وقد أصبح أستاذًا مثله، وأن يسمع عن مساهمته في تربية أجيال عربية بحاجة لعلمه وأخلاقه ومواقفه الملتزمة. أما الأم فقد شعرت بالحزن لأن الغربة توشك أن تختطف أكبر أبنائها منها، كما أحس الإخوة الصغار بأنهم على وشك فقدان الأخ الأكبر، والمثل الأعلى، والمرجع الذي كانوا يرجعون إليه كلما احتاجوا لمشورة، أو لفك نزاع فيما

بينهم، أو لمساعدة في إتمام واجباتهم المدرسية. لكن العائلة رأت في العمل في السعودية، وفي مهنة التدريس بالذات، فرصة كبيرة لعدنان وللأسرة بكاملها، قد تفتح الباب لسفر أعضاء آخرين من الأسرة فيما بعد إلى السعودية والعمل فيها، وتساعد العائلة بالتالي على الخروج من سجن مخيم بلاطة وبؤس الحياة فيه.

لم يستطع عدنان النوم في تلك الليلة لأن فكرة السفر إلى السعودية والعمل في التدريس كانت تتنافى مع كل ما حلم به وتمنى تحقيقه في حياته. كان الالتحاق بالجامعة الأمريكية في بيروت ودراسة التاريخ والانضمام بعد التخرج لحزب تتوافق مبادئه مع ما كان يؤمن به من أفكار وتخيلات، هو الأمل الذي طالما داعب قلبه، والحلم الذي طالما واعد ليله. لكن عدنان سرعان ما أدرك أن الدراسة الجامعية في تلك المرحلة من حياته كانت خيالاً أقرب إلى المُحال، وأن التدريس في إحدى الدول العربية الخليجية هو الواقع الأقرب إلى الحقيقة، وأن الاعتراف بالواقع والقبول بالحقيقة ربما كانا أقصر الطرق للوصول إلى الخيال وتحقيق الحلم على المدى البعيد.

كان على كل من رغب في مقابلة البعثة السعودية أن يذهب إلى عمان ومعه الوثائق الرسمية المطلوبة. ومع شروق الشمس في صباح اليوم التالي، كان عدنان وطارق ونضال في طريقهم إلى محطة الركاب، وفي يد كل منهم شهادة الدراسة الثانوية ملفوفة بعناية.. كانت تلك الورقة على بساطتها هي كل ما كان لدى عدنان ورفاقه من انجازات، وأثمن ما حصلوا عليه من ثروات في حياتهم، وبصيص الأمل في

نهاية النفق الذي كانوا ينتظرون الخروج منه بفارغ الصبر. كانت شهادة التوجيهية بمثابة شمعة تترنح في مهب رياح غاضبة، تصر على الحياة رغم العواصف، وتتمسك بهوايتها في مواصلة الإشعاع وتحدي عتمة الليل وجهالة الظلام بعناد.. كانت تلك الشهادة هي الطائر الغريب العجيب الذي حلق أخيرًا فوق سفينة الضياع في عرض البحر، معلنًا قرب الوصول إلى شاطئ آخر تفوح منه رائحة الأمل والأمان.

في الطريق إلى عَمان

ما إن ركب الرفاق السيارة التي حملتهم إلى عمان حتى بدأت الأفكار والأحلام والتخيلات الغريبة تتوارد كرذاذ خريف دافئ، يحاول جاهدًا إنعاش ورود صيف ذابلة قست عليها شمس الظهيرة. كانت صور السعودية والحياة فيها تتراءى لهم على شكل خيوط نور تقلق سبات ليل طال، وتعلن قدوم صباح حزين، يحاول أن يشق طريقه بصعوبة وسط عاصفة رملية عاتية. كانت الصور المتلاحقة والخيالات المضطربة تجيء وتذهب على شكل ومضات من نور تقتحم الظلام، رذاذ بحر يغزو صحراء يكسوها الغبار، دخان آبار نفط تلاحق غيوم صيف عاقرة، لهثات قطعان إبل تطاردها سيارات بدو في رحلة صيد عابثة، أزيز طائرات خاصة تقلع عبر الفضاء الواسع إلى أماكن مجهولة، شموخ قصور نحو السماء تعيش في ظلالها بيوت شعر لا تكاد أن ترى.. لم يكن بإمكان الأصدقاء السكوت على ما كان يتراءى لهم من صور وخيالات، وما كان يدور في رؤوسهم من أفكار وأحلام وأوهام كثيرة تبدو كأمواج بحر متلاطمة.

- لن أمكث في السعودية طويلاً، قال عدنان، سأعود بعد نهاية السنة الدراسية إلى نابلس ومعي ما يكفي من المال للسفر إلى أمريكا.. سألتحق هناك بجامعة جورج تاون في واشنطن، سأدرس التاريخ

والعلـوم السياسـية، وأعـود بعـدها إلــى الأردن.. إن شــعوبنا بحاجــة لتوعيــة ولقيــادة مثقفــة ومخلصــة، تتصـف بالأمانــة والحكمــة وحــب الوطن.

- هذا كلام جميل يا عدنان، قـال نضـال، لكننـي أعتقد أنـك تُخرِف.. إنـك تحـاول أن تفكـر فـي زمـن غيـر زمنـك.. لـن تحصـل علـى مـا يكفـي مـن المال للدراسة في أمريكـا حتـى لـو مكثـت فـي السـعودية عشـر سـنوات، ولـيس سـنة واحـدة.. إن تكـاليف الحيـاة فـي السـعودية مرتفعـة كثيـرًا والرواتب متواضعة.. إننـا ننتقل من الأردن إلى السعودية ليس مـن أجـل المــال الــوفير أو الفــرص العظيمــة، ولكــن كــي نهــرب مــن الجــوع والاضطهاد والكبت، ولا شيء غير ذلـك.. ألا تتـذكر كلمـات حلمـي؟ إننـا نـهرب من الخوف الأكبر إلـى الخـوف الأصـغر، مـن البـؤس الأعمـى إلـى البؤس الأطرش، من مخيم كبير إلى مخيم صـغير، ربمـا كـان أسـوأ ممـا نحـن فيـه الآن. السـعودية يـا أخـي لا تـزال تعـاني مـن التخلـف، معظـم البيوت فيها بلا ماء، وبلا كهرباء، وبلا مرافق صحية، لكن الفـرق بـين الأردن والسعودية يكمن في أن السعوديين سيدفعون لنـا مقابـل البـؤس والحرمــان شــيئًا أفضــل مــن الإهمــال والاضــطهاد، وأقــل قســوة مــن السجون، وأخف وطأة من دهاليز وعذابات المخابرات التي تتـربص بنـا لـيلاً نـهـارًا، تلاحقنـا مـن أزقـة المخيمـات إلـى حـارات نـابلس العتيقـة، مهددة بزجنا في معتقلات مظلمة لا تعرف الرحمة.

- شكرًا يا نضال.. إنني اتفق مـع معظـم مـا قلتـه.. إن علينـا أيضًـا أن لا ننسـى أن مـن يحالفـه الحـظ منـا ويـذهب إلـى السـعودية سـيعيش علـى

أغلب الظن في قرية نائية تقع على أطراف الصحراء.. في مكان مهجور لا يتصل بالعالم بصلة، وبين أناس لا يعرفون على الأغلب لون الخضار أو طعم الفواكه أو قراءة الجرائد التي تعودنا عليها.. الحلم في هذه الأيام مع الأسف، ليس إلا وهمًا، والوهم ليس إلا غولاً عابثًا يغتال كل ما يحلم به الإنسان من جماليات، ويجر كل من يسير في ركبه من الواهمين إلى صحارى التيه والضياع، يعيش هناك فراغًا قاتلاً، بلا أحاسيس مرهفة، وبلا مشاعر عميقة. وحين يتحول الإنسان إلى كائن بلا مشاعر أو أحاسيس يغدو مجرد أداة تعمل بلا وعي أو إرادة، تشقى بلا سبب أو هدف، وتموت في نهاية المطاف دون أن تحقق شيئًا.. تموت بلا معنى، وتدفن دون تكريم.

- أرجو أن تكونا مخطئين.. إن السعودية التي أسمع عنها تبدو وقد أصبحت بلدًا غنيًا، وإن كانت غير متقدمة من النواحي العمرانية والعلمية والطرق ووسائل المواصلات، لكنها بالتأكيد لن تكون أسوأ من الأردن كثيرًا، وهذا يجعلها بحاجة إلينا.. بحاجة لعلمنا وما نستطيع أن نقدمه في مجال التربية والتعليم.. ولذا اعتقد أنهم سيوفرون لنا سكنًا جيدًا يليق بنا كأساتذة.. إننا سنقوم بتربية وتعليم أبنائهم.. إنني متأكد من أننا سنعيش في أماكن تتوفر فيها، على أسوأ الفروض، الراحة والحرية والهواء النقي.. إن عليكم أن تتذكروا ما قاله حافظ إبراهيم في المعلم حين أنشد:

قُم للمعلم وفِه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

إن سكان الجزيرة العربية عامة، والسعوديين منهم خاصة، هم أهل الشعر، وأكثر الناس تقديرًا للشعراء وما يصدر عنهم من أقوال وحكم مأثورة. لذا لا اعتقد أن السعوديين سيبخلون علينا بسكن ملائم، وظروف عمل مريحة، تخفف عنا عناء الغربة واغتراب الروح، وتساعدنا على القيام بمسؤولياتنا في تربية أبنائهم على الوجه الأكمل.

- بكل تأكيد.. سيكون لك مطلق الحرية هناك.. إنك ستعيش في صحراء قاحلة ليس بوسعك أن تضايق أحدًا فيها، وليس بوسع أحد أن يضايقك.. ستكون حرًا لتلعب مع الأغنام، وتركض مع الجمال، وتسبح في الرمال وبحور العرق والفراغ القاتل، تصحو على حرارة شمس حارقة، وتُمسي على أصوات حيوانات ضالة تعاني الجوع، تنام على وقع العواصف الرملية وغبارها الخانق، وتحلم أحلامًا مزعجة لا أول لها ولا آخر، توصلك في نهاية المطاف إلى رحاب الجنة محمولاً على أجنحة لهيب الجحيم..

- لكن الشيء المؤسف، يا طارق، أنه لا يوجد لنا خيار آخر.. إن طبيعة المكان لا تهمني كثيرًا بقدر ما تهمني طبيعة الإنسان والنظام، فإذا توفرت لنا الحرية وعاملونا بما نستحق من تقدير واحترام، فسوف أكون سعيدًا وراضيًا عن حياتي، ومخلصًا في عملي، وحريصًا على القيام بواجباتي على أكمل وجه. أما فيما يتعلق بالوقت، فسوف أشغل نفسي وأملأ فراغ يومي بقراءة الكتب.. سأكون عدنان الذي أعرفه وأحبه، وليس أي شخص آخر، يتلون خوفًا من السلطة، يتنازل عن مبادئه من أجل المال أو الجاه كما هي الحال في نابلس. وحين

يكون لي حرية قراءة ما أريد، وكتابة ما أريد، وقول ما أريد، حتى وإن لم يسمعني أحد، سأكون سعيدًا، وأعيش حياتي مرتاح البال.

- إن من شبه المؤكد أننا سنتمتع بقدر كبير من الحرية إذا حالفنا الحظ ووصلنا إلى السعودية كما نحلم الآن.. لكنها حرية أتوقع أن تكون مفرغة من أي معنى.. سيكون بإمكان أي منا أن يقول كل ما يريد، وأن يصرخ بأعلى صوته.. يغني، يضحك، يبكي، يرقص، لكن لن يسمعه أحد.. سيخاطب نفسه وسيسمع صراخه يدوي في أذنيه حتى يشعر بالإرهاق، ويضطر للهروب من ذاته إلى فراش مهترئ.. يأوي إليه حزينًا بعد أن يكون قد سئم سماع ذلك الصوت الرتيب.. سيخبو الصوت رويدًا رويدًا حتى يخجل من نفسه، ويموت مكتئبًا في صدر صاحبه دون إراقة دمعة واحدة.

- هذه صورة قاتمة يا نضال.. إنني أرجو أن تكون مخطئًا، إلا أنني بالرغم من ذلك سأشعر بالراحة ما دمت حرًا وبإمكاني أن أصرخ بأعلى صوتي دون خوف من عقاب. وحين أكون حرًا سأكون أيضًا راضيًا عن نفسي، وهذا بيت القصيد.. السعادة يا أخي هي أن يعيش الإنسان حياته كما يشاء.. يقول ما يريد أن يقوله دون خوف، ويفعل ما يريد أن يفعله دون خجل، ويغفو ويُصبح مع أحلامه وذكرياته دون ندم.

- هذا كلام رائع ومهم، يا عدنان، لكن هناك فرق كبير بين أن يقول الإنسان ما يريد أن يقوله دون رهبة، وأن يفعل ما يريد أن يفعله دون خجل.. أن يقول الإنسان ما يريد قوله هو شيء هام، لكن القول لا

يعني القائل بقدر ما يعني من يسمع الكلام من الغير من النـاس.. إن أمانة الكلمة تعكس موقفًا أخلاقيًا ينبع من إحساس صادق بالمسؤولية تجاه الغير، ويُجسد حالة من التمتع بحرية الرأي وممارستها علنًا دون خوف. لكن أن يفعل الإنسان ما يريد أن يفعل فيعنيه أكثر بكثير مما يعني الغير من الناس.. إنه المقياس الأهم للسعادة والأمانة مع الذات، أو بالأحرى هو الطريق الذي يوصل الإنسان في نهاية المطاف إلى الرضا عن النفس.. لذا، عليك يا صديقي أن تركز على ما تريد أن تفعله أولاً، ومن ثم يمكنك أن تُفكر فيما تريد أن تقوله ثانيًا.

- إنني متفق مع طارق تمامًا.. إن من لا يحب نفسه ولا يعمل على إسعادها لن يكون باستطاعته أن يحب الآخرين، ولا أن يصدقهم القول. لكن كي يحس الإنسان بالسعادة والحرية، لابد من وجود أناس آخرين يتجاوبون مع ما يقول ويفعل.. وهذا هو الشيء الذي لا أعتقد أنه سيتوفر لنا في السعودية. أما الندم، يا أخي عدنان، فهو أكثر ما ينغص حياة الإنسان.. إنه السم الذي يتسلل إلى القلب والروح ليفسد كل ملذات الحياة، حتى الأحلام الوردية منها، ويحولها إلى خطايا.. إن على الإنسان أن يقول ما يؤمن به وما يمليه عليه ضميره، وأن يفعل ما يقتنع به وتطلبه نفسه، دون اعتبار لردود فعل الآخرين، ودون التفكير في احتمالات الندم في المستقبل، وذلك على شرط أن يكون ما يقوله وما يفعله لا ينتقص شيئًا من حقوق الغير من الناس، ولا يجرح شعورهم عن قصد، ولا يعتدي على كرامتهم أو معتقداتهم بأي شكل من الأشكال.

- هيا بنا.. لقد وصلنا إلى محطة العبدلي.. نحن الآن في غرب عمان، وعلينا أن نسير على الأقدام حتى وسط المدينة، حيث تتمركز سيارات الأجرة التي تنقل الركاب من وسط العاصمة إلى الجبال المحيطة بها من كل جانب.. سنفترق هناك.. سيذهب نضال إلى مخيم المحطة حيث يسكن عمه، كما قال، ويذهب طارق إلى جبل المريخ حيث يعيش صديقه ناجي. أما أنا فسأذهب إلى مخيم الوحدات حيث تعيش خالتي أم جهاد.

- نعم.. سنفترق بعد قليل، ولكن إلى حين.. سنلتقي ثانية غدًا أمام مقر البعثة السعودية.. لقد كنت، ومنذ أن ركبنا السيارة في نابلس، أفكر في حالنا، أبناء فلسطين، وكيف أن حياة الشتات التي يعيشها شعبنا اليوم أوجدت بيتًا أو أكثر لكل فلسطيني في العديد من المدن القريبة والقرى والمخيمات البعيدة، حتى في بلاد المهجر.. بيت قريب أو صديق، أو بيت رفيق درب في رحلة التشرد، أو بيت زميل في غياهب السجون والمعتقلات العربية التي تتباهى بأسوارها العالية وقلاعها المحصنة.

تقع محطة سيارات الأجرة في وسط المدينة بالقرب من المدرج الروماني، أحد أبرز كنوز الأردن وروائعها الأثرية، والذي كان في حينه أقرب إلى حظيرة حيوانات مهملة منه إلى كنز آثار وشاهد تاريخ على عظمة الإمبراطورية الرومانية. كان المدرج مكانًا مهجورًا تمامًا، لا تسكنه سوى القطط والفئران والكلاب الضالة، تغمره النفايات والأوساخ، ويأوي إليه من قسا الدهر عليهم من المشردين والقادمين

إلى العاصمة دون عنوان يذهبون إليه، ودون مال يسد حاجتهم، ودون رفيق أو صديق يؤويهم في الليل. كانت القطط والفئران تقدم لزوار المدرج مسرحية مرعبة تتكرر كل مساء، تلعب القطط فيها دور البطل، بينما تلعب الفئران دور الضحية.. تقوم القطط من خلال أحداث المسرحية بملاحقة الفئران واصطياد الصغير والعجوز والمريض منها، والتمثيل به على مشهد من جمهور فقير، يرتجف من البرد، يتلوى من الجوع، ويرتعد من الخوف.

وصل عدنان إلى بيت خالته في مخيم الوحدات في حوالي الرابعة بعد الظهر. وخلال الرحلة التي لم تستغرق أكثر من ربع ساعة من وسط العاصمة إلى المخيم، غرق عدنان في بحر من الأفكار والتخيلات، وانتابه شعور غريب، اختلطت فيه الفرحة مع التخوف، السعادة مع القلق، والترقب مع التردد.. كان عدنان يتساءل: هل يا ترى ستفرح سلوى حين تراه، هل لا تزال كما رآها قبل سنتين قطة وديعة يشع النور من عينيها، وتغمر البسمة وجهها الجميل.. وهل لا زال قلبها على حاله من البراءة.. طفلاً صغيرًا يعرض كل ما فيه من مشاعر خوف وحب، طمأنينة وسكينة، دون تفكير أو حذر.. هل غيرتها أجواء المدينة الكبيرة وخطفت عذرية العشق من روحها المتمردة دومًا على تقاليد العائلة.. هل هزم البعد والفراق الحب في قلبها والشوق في عينيها، أم لا يزال قلبها البريء كما عرفته يعيش على ذكريات شقاوات الطفولة، ويتذكر مشاوير البحث عن الزعتر والخبيزة على سفوح جبال نابلس.

يقع بيت الخالة أم جهاد في زقاق ضيق، على ضفة خندق مفتوح يُستخدم مجرى للبول، شقته وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين ليحمي سكان المخيم من الأمراض. كان الخندق بمثابة قافلة تحمل كل أنواع الجراثيم للأطفال، والروائح الكريهة لكل بيت من البيوت، وتقوم بإفساد كل الأطعمة والأمسيات.. وكثيرًا ما كان الخندق يضيق بما فيه من نفايات، فيفيض ويغمر الطرقات والأزقة، وتتسلل مياهه العفنة أحيانًا إلى البيوت المحاذية لضفافه. لقد حرم الخندق سكان المخيم من التمتع برائحة الورود، وتذوق طعم الفاكهة الطازجة، والتعرف على أنواع العطور وروائح الأزهار وعبقها، وجعلهم لا يتوقفون عن ذكر الماضي، ينظرون إلى بعضهم البعض ويتحسرون على ما فاتهم من حياة الطمأنينة في ربوع بساتين البرتقال، وعبير زهر الليمون، وألوان فراشات الربيع، وتغريد الطيور على الأشجار.

دق عدنان على باب البيت برفق خوفًا عليه من السقوط، وذلك بعد أن كانت الأمطار قد أنهكته وأصابته بالترهل والعفن. لم يسمع عدنان أنات الباب، لأن دقات قلبه كانت أعلى بكثير وأكثر اضطرابًا من كل ما كان يحيط به من ضجيج. كان هناك عشرات الأطفال يتجمعون ويلعبون أمام البيت وقد بدت على وجوههم علامات السعادة.. استغرب الأطفال منظر عدنان بلباسه النظيف، حيث بدا وكأنه من موظفي وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين التابع لهيئة الأمم المتحدة، جاء لأمر هام، ربما ليدقق على عدد أفراد عائلة أو جهاد. أما الباب، فلم يكن معنيًا بكل ذلك.. كانت الشقوق الكثيرة قد مزقت جسده وشوهت وجهه،

وتركته عاجزًا حتى عن إخفاء ما كان يجرى خلفه من أحداث، وهذا فتح المجال لأهل البيت لمتابعة المارة في الزقاق، ومراقبة الأطفال يلعبون في الأوحال. لكن الباب بقي، بالرغم من كبر سنه وترهله، أمينًا على أداء واجبه: الحيلولة دون أهل البيت والمتطفلين من المارة، وإجبار الزوار على احترام حرمة البيت والاستئذان قبل الدخول، طبعًا باستثناء أفراد الجيش والبوليس وعملاء المخابرات البواسل.. رجال الدولة الذين لم يتعلموا حتى ذلك الوقت أن لكل بيت حرمة، وأن لكل إنسان كرامة، وأن لكل مواطن حقوق لا يجوز انتهاكها بغير حق.

فتحت سلوى الباب بسرعة متوقعة أن ترى إحدى صديقاتها، لكنها فوجئت بوقوف عدنان أمامها وجها لوجه.. لم تتمالك نفسها أمام وقع المفاجأة.. صرخت بصوت مرتفع: ماما، ماما.. عدنان ابن خالتي.. عدنان.. وما كادت سلوى تمد يدها لتعانق يد عدنان، وتطلق العنان لبسمتها كي تحتضن عيني حبيب الطفولة، حتى كانت الخالة قد وصلت، تجر خلفها ثوبها المطرز بالحرير، ثوب الزفاف الذي لبسته لأول وآخر مرة قبل عشرين سنه. كانت الخالة في ذلك اليوم التاريخي تلبس ثوب الزفاف للمرة الثانية في حياتها، استعدادًا لاستقبال المهنئين بنجاح سلوى في التوجيهية، وحصولها على المرتبة الخامسة بين جميع بنات المملكة.

عانق عدنان خالته المفضلة بحرارة وعينيه تدمع من فرحة اللقاء، إلا أن أم جهاد لم تمهله لحظة واحدة لالتقاط أنفاسه قبل أن تمطره

بالأسئلة.. كيف حال أمك وإخوتك وأخواتك وأبيك وجدتك؟ كيف حال الأقارب والأصدقاء في مخيم بلاطة؟ ما هي أخبار أم كفاح وأم نضال؟

وبينما كان عدنان يحاول الإجابة على أسئلة خالته المتلاحقة، كان يختلس النظرات كي يرى وجه سلوى المشرق، ويستمتع برؤية بسمة الفرح تغمر وجهها، وحمرة الورود تلون وجنتيها. لقد أحس عدنان أن دقات قلب سلوى كانت تتسارع، وكأنها في سباق مع دقات قلبه المضطرب. كانت سلوى شابة تفيض جمالاً وحيوية ورونقًا، وقد اكتملت أنوثتها، وتفتحت براعم العشق في عينيها وعلى صدرها.. تعيش يومًا من أحلى أيام العمر، ولحظة من أروع لحظاته، وقد حصلت على أغلى ما كانت تصبو إليه من نجاح في الدراسة، وتقدير من الأهل والمجتمع. ومع وصول عدنان اكتملت فرحتها، وزاد رونقها، وغدت بسمتها شمسًا تشرق بعد شتاء طويل بارد، تحمل الدفء للورود والأزهار، وتجدد الأمل في عيون البؤساء وقلوب العاشقين.

وقبل أن تستكمل أم جهاد عملية استجواب عدنان، بدأت المهنئات من الجارات والقريبات يتوافدن على البيت، يحملن معهن الهدايا والحلوى، ويوزعن القبلات على سلوى وأمها وشقيقاتها.. ومن بين المهنئات كانت هناك امرأة همست في أذن أم جهاد معربة عن إعجابها بسلوى ورغبتها في طلب يدها لأحد أبنائها. لكن أم جهاد لم تشجعها، متحججة بعدنان الذي كان يقف بالقرب من سلوى طوال الوقت، قائلة

بأن ابن خالتها حضر من نابلس خصيصًا ليكون معها ويحتفل معنا بنجاحها وتفوقها.

وبعد أن غادرت البيت آخر المهنئات، وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة ليلاً، جلس الأهل لتناول طعام العشاء، وتبادل الأحاديث، ومعاودة ذكريات زمان في جو تغمره أجواء الفرح والغبطة. وبعد أن قدم عدنان هديته لسلوى، والتي كانت أمه قد اختارتها، وشرح لدار خالته سبب مجيئه إلى عمان، قال عدنان بعد تردد، موجهًا كلامه لخالته وزوجها أبو جهاد:

- لماذا لا تذهب سلوى معنا غدًا إلى السفارة السعودية وتقدم طلبًا للتدريس؟ إن السعودية بحاجة لمدرسات، وليس لمدرسين فقط. وبينما علت الدهشة وجه سلوى، والحيرة وجه خالته، قال أبو جهاد بهدوء ودون تردد:

- لا يا عدنان، الحياة في السعودية صعبة وقاسية، خاصة بالنسبة للمرأة.. قسوة العيش هي، كما تعرف جيدًا، للرجال.. للشباب من أمثالك.. أنا متأكد يا عدنان من أنك ستقوم بوجباتك على خير وجه، وأنك سترفع رأسنا عاليًا في السعودية، وستكون كوالدك قدوة لتلاميذك، وستعود لنا قريبًا.. كلها ثمانية أو تسعة أشهر، بعدها تنتهي السنة الدراسية، وتعود لنا بالهدايا والأخبار السارة، والحكايات الطريفة المشوقة.

سكت عدنان، لم يكن لديه ما يقوله بعد ذلك الكلام، تبخر حلمه ولم يكن قد مضى على مولده دقائق معدودة. نهض عندها أبو جهاد وخرج

من الغرفة إلى فسحة البيت.. تبعه عدنان.. صلوا صلاة العشاء معًا، ثم استأذن عدنان. وما إن دخل فراشه حتى سرقه النوم بسرعة.. كان متعبًا من عناء الرحلة وعبء التفكير، ولذا ترك الأفكار تتضارب في رأسه كما تشاء، وتسير في كل اتجاه تهواه.. تركها تعيش حياتها كأمواج تتصارع على البقاء.. رياح عابثة تحاول اقتلاع شجيرات الورد من جذورها قبل أن تتفتح براعمها وتزهر.. شموع تترنح سكارى محاولة مقاومة نسمات خريفية تحاول أن تطفئ نورها الضعيف وما يوحي به من بصيص أمل.

قلق الانتظار ومخاوف الترقب

في حوالي التاسعة من صباح اليوم التالي، كان عدنان ورفاقه يصطفون أمام مقر البعثة السعودية مع غيرهم من مئات الراغبين في العمل في التدريس. وحين بلغت الساعة العاشرة، خرج أحد المسئولين السعوديين ومعه حزمة من الأوراق الرسمية، وخاطب جموع المصطفين أمامه بصوت مرتفع قائلاً: إن البعثة السعودية تعتذر عن عدم قدرتها على إجراء مقابلات مع هذا العدد الضخم من المتقدمين. لذلك تقرر عدم قبول طلبات التدريس من المدرسين الذين تقل خبرتهم عن سنتين، ومن حملة شهادة الثانوية الذين تقل معدلاتهم عن ٨٠%. وهكذا، اختصر المسئول السعودي عدد المصطفين أمامه إلى حوالي ربع ما كان عليه، وخيب آمال مئات الأمهات والآباء، وقام بوأد أحلام العشرات من الشباب دون ضجيج.

كانت معدلات عدنان ورفيقيه تتجاوز الثمانين، لذلك زادت آمالهم في الحصول على وظيفة في السعودية، خاصة بعد أن تضاؤل عدد المتقدمين كثيرًا. نظر الرفاق إلى بعضهم البعض بعيون تكاد أن تبكي من فرحة لم تتم.. فرحة لا تزال تتأرجح بين مستقبل غامض وواقع مرير. تقدم عدنان ورفاقه إلى الأمام، استلم كل منهم الطلب الرسمي لتعبئته حسب الأصول، وتسليمه لممثل البعثة السعودية، مرفقًا معه ما

لديه من وثائق وشهادات رسمية. وحين غادروا المكان، كانت الساعة تشير إلى الثانية عشر ظهرًا، مما جعل الرفاق يقررون قضاء ما تبقى من النهار في المدينة، يتعرفون على شوارعها وأزقتها وسوقها القديم المعطر برائحة التوابل، ويمرون أمام قصورها الفخمة التي تسبح في الثراء، ولا تحلم بشيء سوى بالمزيد من المال، ولا تعرف شيئًا عن المخيمات أو البادية أو ساكنيها سوى بعض الصور التي تنشرها الجرائد أحيانًا.

- هيا بنا إلى الدوار الثالث.. إلى جبل عمان، قال عدنان، سنمر أولاً على الدوار الأول، حيث تقع بيوت عمان العريقة، ومنه إلى الدوار الثاني، حيث أقيمت العديد من القصور الحديثة وبعض الفنادق، وبعدها سنصل إلى الدوار الثالث، آخر الدواوير وأكبرها وأجملها، حيث يسكن بعض أفراد العائلة المالكة.. ستشاهدون على طول الطريق أجمل ما رأت عيونكم من قصور وحدائق، وأفخم ما حلمتم به من سيارات.. إن جبل عمان هو جبل المال والسلطة، حيث يسكن المترفون، وينعم كبار التجار، ويضع كبار الساسة وقادة الجيش خططا جهنمية لكبت الشعب وقهره والسيطرة عليه.

وبعد مشوار طويل ومثير استغرق حوالي ساعتين عاد الشباب إلى وسط المدينة، جلسوا في إحدى زوايا المدرج الروماني، يتظللون بظله، ويأكلون ساندويتشات الفلافل، ويتفكرون في تاريخ المدرج وجبروت قياصرة الرومان الذين أقاموه، وحكموا بلادًا وشعوبًا بلا عدد. كان عدنان ونضال وطارق يتنقلون بخيالهم بين ماض مات رغم

جبروته وعظمتـه، وحاضر يحتضر رغم عنفوانـه وقسوته، ومستقبل غامض لا يبوح بسره لأحد. فالمستقبل يحترف المراوغة دومًـا، يتشكل ببطء خلف ستار من الغموض والكتمان، بعيدًا عن خرافات الماضي الموغلة في القدم، وشكاوى الحاضر التي تلون كل شيء بلون رمادي قاتم، وأحلام ليال طويلـة تحاول أن تختزل الزمن في لحظات، وأوهام عابثة لا تعرف البداية من النهاية.

- ما رأيكم في استشارة الأرنب الهندي، قال طارق، يقرأ لنا الحظ ويطمئننا على مستقبلنا، قد يريحنا على الأقل من عناء التفكير فيما سيحدث لنا غدًا، ويمنحنا فرصة النوم ولو لليلة واحدة دون قلق.

هل تعتقد أن أرنبًا، يا أرنب، بإمكانه أن يقرأ لك الحظ ويخبرك بما سيحمل لك المستقبل من مفاجآت؟ هل هذا ما تعلمته في المدرسة، يا أستاذ طارق، وهل هذا ما عندك لتعلمه لتلاميذك النجباء في السعودية؟

- أولا، أنا لست أرنبًا، يا ثعلب.. فأنا لا أخاف ولا أعرف الخوف أو الجبن.. وثانيًا، ليس هناك عاقل يعتقد بأن أرنبًا هنديًا أم بلديًا أو بريًا يستطيع أن يقرأ له الطالع. لكن ما دمنا في عمان، وفي هذا المكان بالذات، بالقرب من قارئ الطالع والأرنب الهندي الشائع الصيت، والذي يأتيه البؤساء من كل حدب وصوب طالبين مشورته، فلم لا نفعل نفس الشيء.. قد يعطينا ذلك فرصة المقارنة بين ما سيقوله لنا الأرنب اليوم وما سيحدث معنا غدًا بعد انتهاء المقابلة.

- المسألة ليست إلا تسلية.. أنا متأكد من ذلك.. طارق يريد تقضية الوقت.. يريد أن يصرفنا عن التفكير في المقابلة وتبعاتها.. إنه يبحث عن شيء يزيل الملل ويريحنا مؤقتًا من القلق.. أليس كذلك يا طارق؟
- نعم.. أحسنت يا نضال.. صديقنا عدنان يريد كعادته أن يفرض رأيه علينا.. أن يقودنا إلى حيث يريد، وأن يرهبنا حتى لا نعبر عن آراءنا.. أنا أعتقد أن عدنان لو دخل سلك البوليس أو جهاز المخابرات سيكون من أنجح العملاء في إرهاب الناس والهيمنة عليهم، لكن كلها بضعة أسابيع ونفترق.. نتوزع على قرى منسية في صحارى قاحلة، ونمضي أيامنا في مدارس بائسة تسكن مناطق نائية.. سنتذكر هذه الأيام بكل تأكيد، وسوف نبتسم ابتسامة ملونة بأطياف الحزن والحنين.
- لا تزعل يا طارق، سأكون أول من سيستشير الأرنب الهندي، وأتمنى أن يقول لنا كلامًا جميلاً يطمئننا.. إننا لسنا بحاجة للمزيد من الهموم والقلق.

ذهب الأصدقاء إلى قارئ الطالع، حيث استشاروا الأرنب الهندي الذي قام بقراءة حظوظهم. كان صاحب الأرنب يجلس على الأرض وفي حضنه أرنبه الغالي، وأمامه لوح من الكرتون به عدة ثقوب، في كل ثقب منها ورقة ملفوفة بعناية، وقد كُتب عليها بعض العبارات التي صاغها مالك الأرنب ومدربه بمهارة. وفي مقابل قرش واحد، كان قارئ الطالع يطلق أرنبه فوق لوح الكرتون، حيث يقوم الأرنب بالتقاط إحدى الأوراق من أحد الثقوب، ويقوم قارئ الطالع بقراءة ما كتب عليها. ويبدو أن الأرنب الهندي كان في ذلك اليوم كريمًا مع معظم

مريديه وزواره.. لقد أخبرهم جميعًا بأن المستقبل يبشر بالخير، وأن حظوظهم في النجاح والسعادة كبيرة، وأن عليهم المثابرة وعدم اللجوء إلى اليأس. أما عدنان فلم يسمع من الأرنب العبقري المطلع على الغيب ما كان يتمناه من تنبؤات.. لقد تركه الأرنب في حيرة من أمره، إذ لم يكن ما تنبأ به جيدًا، ولا مطمئنًا.

- لقد سمعت أنه يوجد قبر لأحد الأولياء بالقرب من عمان، على الطريق إلى الزرقاء،.. ما رأيكم في زيارته والصلاة هناك على قبره ركعتين والطلب منه أن يوفقنا في المقابلة غدًا، ويحنن قلوب السعوديين علينا.. أنا متأكد من أن ذلك سيساعدنا على تحقيق النجاح؟

- الآن جاء دورك يا نضال، أليس كذلك؟.. واحد يريد أن يستأنس برأي أرنب، والثاني يريد بركات ميت.. كم مرة زرت قبور الأولياء في منطقة جنين، وما كانت النتيجة؟ هل لا زلت تعتقد أن شخصًا مات منذ عشرات السنين، وربما منذ مئات السنين، يستطيع أن يساعدك من قبره بعد أن تآكلت عظامه؟ يساعدك في حل قضية لم تكن من اهتمامات زمانه، وبالتالي ليس بإمكانه أن يفهمها أصلاً. كيف يستطيع إنسان حي، ولا أقول ميت، أن يتعامل مع قضية لا يفهمها؟ هل أنت مجنون؟ لو حاولت دراسة تاريخ ما يطلق عليهم أولياء الله الصالحين لاكتشفت أن معظمهم مات بائسًا، فقيرًا ومريضًا، وربما أعمى أو معتوه.. فهل تعتقد أن مَنْ عجز عن فعل شيء لإنقاذ نفسه من البؤس أو الفقر أو المرض أو التعاسة أو الظلم أن يفعل شيئًا لك بعد أن مضى على موته ما طال من السنين ولم تترك الديدان من لحمه شيئًا؟ دعونا

من هذه الخرافات.. دعونا نخطط لما سنواجهه غدًا من تحديات.. المقابلة والأسئلة المحتملة وكيفية الإجابة عليها.

وبعد تقادم النهار، وقبل أن تغرب الشمس بقليل، تفرق الأصدقاء بعد أن اتفقوا على اللقاء في العاشرة من صباح اليوم التالي في نفس المكان، أمام مقر البعثة السعودية.. عادوا إلى البيوت الدافئة التي احتضنتهم في ليلة الأمس وحمتهم من برودة ليل عمان القارص.

كان من المفروض أن تكون البعثة السعودية قد انتهت من دراسة الطلبات في اليوم السابق، وأن تكون أسماء المطلوبين للمقابلة قد علقت قبل الظهيرة على حائط المبنى حيث تقيم البعثة، إلا أن لعبة الانتظار استمرت حتى الخامسة مساء. وبالرغم من طول فترة الانتظار واشتداد وطأة الحرارة، لم يجرؤ أي من مقدمي الطلبات على مغادرة المكان للبحث عن كأس ماء يطفئ ظمأه، أو لشراء ساندويتش يسعف معدته التي كانت تتلوى من الجوع، أو للبحث عن جريدة يقضي معها ساعات الانتظار المملة. أطلَ ممثل البعثة السعودية في حوالي الخامسة على الجمهور الذي كان ينتظره بفارغ الصبر، وقرأ أسماء المحظوظين بهدوء وتأني، معلنًا المواعيد التي حددت لمقابلاتهم. كان اسم عدنان هو الثاني بين حملة شهادة التوجيهية، وموعد مقابلته الحادية عشرة من صباح اليوم التالي. وبعد قراءة اسم عدنان بقليل، تواردت أسماء طارق ونضال على التوالي والمواعيد التي حددت لمقابلتهم.

وصل عدنان في اليوم التالي إلى مقر البعثة السعودية في حوالي التاسعة صباحًا، أي قبل حلول موعد المقابلة بساعتين تقريبًا، قام خلالها باستجواب بعض الأشخاص الذين تمت مقابلتهم، حيث سألهم عن نوعية الأسئلة التي وجهت إليهم، وعن اهتمامًات أعضاء اللجنة، وعن آرائهم فيما يجب أن يُقال، وما لا يجب أن يقال. وبعد أن استكمل استجواباته، شعر بنوع من الارتياح والثقة بالنفس.. لقد أدرك أن الأسئلة لن تتطرق إلى ذكر المواد الدراسية، ولا إلى معرفة سبب الرغبة في العمل في السعودية، بل ستتركز حول تحليل شخصيات مقدمي الطلبات، والتعرف على ظروف تربيتهم وعلى أخلاقياتهم، وعلى خلفياتهم العائلية والثقافية. كان هدف البعثة، كما بدا لعدنان وثبت له ولرفاقه فيما بعد، هو التأكد من أن المدرس يتمتع بأخلاقيات حسنة، ويتميز بحسٍ عالٍ بالمسئولية، ولا يشكل خطرًا على أمن النظام الحاكم، ولا يحمل من الأفكار والمواقف ما من شأنه أن يعكر صفو ثقافة المجتمع السعودي وتقاليده وأعرافه القبلية المتوارثة عبر أجيال. وحين عثر نضال وطارق على عدنان في حوالي العاشرة والنصف، أخبرهم بما فعل، وأطلعهم على نتائج استجواباته وتحليلاته بتفاصيلها.

كانت مقابلة عدنان سهلة، بل ممتعة، منحته فرصة جيدة لاستعراض معلوماته الثقافية المتواضعة، واستخدام مهاراته في التحاور مع الآخر. جاءت الأسئلة كما توقعها تمامًا، مُحاولة استكشاف مدى حسه بالمسئولية، وحبه لمهنة التدريس، وقدرته على التعامل مع أولاد في

مدرسة ابتدائية، ومع أناس يعيشون في بيئة بدائية، ومدى ميوله للعمل السياسي. أجاب عدنان على ما وُجه إليه من أسئلة بثقة وأدب ودون تردد، مما جعله يحس بالارتياح حين انتهت المقابلة، ويشعر بالإطمئنان بعد رأى علامات الرضا تعلو وجوه أعضاء البعثة. كان من بين الأسئلة التي لم تلفت انتباه عدنان كثيرًا سؤال حول البادية ومدى معرفته بأجوائها وتقاليدها وطباع سكانها من البدو، وهو سؤال أقلق مضجعه بعد انتهاء المقابلة وقاده إلى التفكير فيما ستؤول إليه حياته لو تم تعيينه في البادية، بعيدًا عن كل مظاهر الحضارة المتواضعة التي عرفها عن قرب وتَعَوَدَ عليها وارتاح إليها.

رغم ذلك، كانت الفرحة بانتهاء المقابلة كبيرة، والتخوف من نتيجة غير معروفة أكبر، والترقب سببًا لقلق لم يتبدد إلا بعد أن أُعلنت أسماء المقبولين في ظهيرة اليوم التالي، حيث كان من بينها أسماء عدنان ورفاقه. وعلى الرغم من سماع أسماءهم تُقرأ بصوت مرتفع، إلا أن عدنان وطارق ونضال لم يغادروا المكان، ولم يتزحزحوا من أماكنهم إلا بعد أن تمت قراءة كافة الأسماء، وعلقت القوائم على الحائط، وقاموا بقراءتها اسمًا اسمًا مرتين، وتأكدوا من أن آذانهم لم تخنهم.

قرر الرفاق الاحتفال بذلك الإنجاز الكبير.. كان عدنان يسمع عن مقهى السنترال الذي كان يطل على المثلث الرئيسي في وسط العاصمة، حيث تلتقي الشوارع الرئيسية التي تصب في قلب المدينة القديمة وتغذي شرايين الحياة فيها. كان الشارع المؤدي إلى محطة

ركاب العبدلي، ومنها إلى مدينة السلط والضفة الغربية، أطول تلك الشوارع وأكثرها حركة، وكان الشارع المؤدي إلى جبل عمان وقصوره الفاخرة، أكثر الشوارع جمالاً وأناقة وهدوءًا، وكان الشارع المؤدي إلى منطقة المدرج الروماني وسوق عمان العتيق ومحطة المواصلات الداخلية، أكثر شوارع العاصمة ازدحامًا وحيوية. أما مقهى السنترال الذي تأسس في الأربعينات من القرن العشرين، فقد كان من أهم معالم عمان السياحية في حينه، يجلس على سطح عمارة كبيرة نسبيًا تُطل على السوق القديم، وعلى ساحة الجامع الكبير، وتُشرف على حركة التجارة والناس والسيارات.. يَشْتَمُ الجالس فيه رائحة المشاوي القادمة من المطاعم المجاورة، ونكهة البهارات والتوابل المُنطلقة من السوق العتيق، ويسمع نداءات الباعة ودعاء المتسولين في الشوارع، ويشاهد باغتراب وإعجاب شرطي المرور ينظم حركة السير في قلب العاصمة.

بقي تقاطع الشوارع الرئيسية الثلاثة، وحتى أوائل السبعينات، أهم نقطة في عمان، وكان شرطي المرور المشرف على إدارة السير في تلك النقطة بالذات، من أمهر موظفي الدولة وأكثرهم أهمية، ينظم حركة السيارات في النهار، ويحلم بالمسؤولية الملقاة على عاتقه في الليل، ويحرص على إتقان عمله في كل إشارة يقوم من خلالها بتوجيه حركة المرور. كان هزاع يقف في دائرة صغيرة في وسط التقاطع، تحت مظلة تحميه من الشمس والمطر، ويداه لا تتوقفان عن الحركة إطلاقًا، تعملان بطريقة بهلوانية لا يستطيع متابعتها إلا المحترفون من

سائقي سيارات الأجرة. كان هزاع يقوم بتوجيه السائقين، ويكرس جهده وعقله لتأمين سلامتهم، ويسخر كل حواسه لضمان أمن المواطنين.. وهذا جعل الكثير من المواطنين وزوار المدينة من الأردنيين والأجانب يقفون الساعات الطويلة أحيانًا على الرصيف المقابل لمكان وقوف هزاع، يراقبون حركاته بشغف، يبدون الإعجاب بعبقريته، ويستمتعون بمشاهدة حركة السير، ويتأملون أنواع السيارات الفخمة التي يملكها الأثرياء، ويقودها ويلهو بها المُنعمون من أولاد الذوات.

وبعد الاحتفال في مقهى السنترال بشرب الشاي، والتمتع بمقابلة أحد كبار المثقفين الأردنيين في حينه، عاد عدنان إلى مخيم الوحدات حاملاً معه الخبر الأكثر سرورًا، والأمل الأكثر إشراقًا. لكن الأصدقاء، وقبل مغادرة وسط المدينة إلى الضواحي، قاموا بزيارة مركز بريد العاصمة الذي يقع على بعد مئات الأمتار من المثلث المروري، في أول الطريق المؤدي إلى جبل عمان. ومن هناك، قاموا بالاتصال بأحد أصدقائهم في مدينة نابلس، حيث نقلوا إليه الخبر السار، وطلبوا منه أن ينقل الخبر إلى ذويهم المتلهفين لسماع أخبارهم في مخيم بلاطة.

ابتسمت أم جهاد لعدنان حال دخوله باب البيت وقد لاحظت تعابير الفرح على وجهه، وحين سمعت نبأ اختيار عدنان للعمل مدرسًا في السعودية، كانت أكثر أهل البيت اغتباطًا، بينما كانت سلوى أكثر أفراد العائلة قلقًا. أما أبو جهاد فقد كان أكثرهم ارتياحًا، إذ هنأ عدنان بالفوز بالوظيفة، وطلب منه أن يعاهده على الإخلاص في عمله، وعلى

الحفاظ على أخلاقه ومبادئه، وعلى توفير فلوسه بقدر الإمكان، لأن "القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود". كما قام أبو جهاد بتذكير عدنان بأوضاع اللاجئين الفلسطينيين عامة، وبحاجة والده لمساعدته في إعالة عائلة كبيرة تتزايد مطالبها يومًا بعد يوم. وقبل أن يغادر مخيم الوحدات، قام عدنان بتحين الفرص والاختلاء بسلوى بضعة دقائق، عبر خلالها كل منهما عن حبه للآخر، وقطع الوعد على نفسه بالإخلاص والوفاء للحبيب.. لقد سمحت تلك الخلوة لهما أيضًا بالعناق للمرة الأولى والأخيرة.

وبعد توقيع عقد العمل مع رئيس البعثة السعودية، كان على عدنان وغيره من المقبولين الحصول على "شهادة حسن سلوك" من الجهات الأمنية الأردنية، تتيح لهم السفر إلى خارج البلاد. كان السفر خارج الأردن في حينه، بمثابة إكرامية تمنحها الحكومة لمن تشاء، وليس حقًا يملكه المواطن ويستخدمه متى شاء. كان البيت في المخيم وفي القرية بالنسبة لغالبية شباب ذلك الجيل بمثابة زنزانة بأربعة جدران، أما الوطن فقد كان بمثابة سجن كبير بلا أسوار، بلا حيطان، تسيطر عليه أجهزة مخابرات لا تحسن شيئًا أكثر من اصطياد الشباب وإهانتهم، كما تصطاد القطط الضالة قطعان الفئران الجائعة وتمثل بها أمام أعين الجمهور في المدرج الروماني. وحيث أن عدنان كان قد أُعتقل في السابق بتهمة التحريض على نشر ثقافة العودة وتحرير الوطن المحتل، فإن حظوظه في الحصول على إذن بالخروج من الأردن، دون واسطة، كانت شبه معدومة. لذا سارع عدنان بالعودة

إلـى بلاطـة، كـي يتـدبر الأمـر مـع والـده قبـل فـوات الأوان، وقبـل ضـياع فرصة العمر.

كان أبو عدنان يمر على نقطة تفتيش عسكرية كل يوم فـي طريقـه إلـى مقر عمله في مدينة نابلس، ويتوقف عندها دقـائق تطـول أحيانًـا، وذلـك لأن الجهـات الأمنيـة فرضـت علـى كـل السـيارات الداخلـة إلـى المدينـة والخارجـة منهـا التوقـف عنـد تلـك النقطـة، كـي يقـوم رجـال الأمـن المتواجدين فيها دومًا كوجود الله، بتفحص وجوه الركـاب، واستجواب بعضهم، وإهانـة البعض الآخر دون سبب، وذلـك قبـل أن يسمحوا لهـم بمواصلة السير. كان رجال الأمن يفعلون ذلك من أجل تأكيد سطوتهم، واثبـات تسـلط السـلطة التـي تقـف مـن ورائهـم، وإذلال المـواطنين وتكريس الخـوف فـي قلـوبهم. ومـع مـرور الأيـام والسنين، أصبح أبـو عدنـان الوجـه الأكثـر ألفـة لرجـال الأمـن والمخـابرات العـاملين فـي تلـك النقطـة، وهـذا أعطـاه فرصـة كـي يتعـرف علـى شـعلان، أحـد ضـباط المخابرات المسئولين. وبعد أن اكتشف شعلان أن الأستاذ أبو عدنان هـو المـدرس المفضـل لأحـد أبنائـه المنتسـبين لمدرسـة الأمـل، تحولـت المعرفة فيما بينهما إلى صداقة قوية، تبادلا خلالها الود والاحترام.

حين برزت قضية شهادة حسن السلوك بالنسبة لعدنان، كان شعلان قد تمت ترقيته، وتم نقله إلى المقر الرئيسي في المدينـة. وحين ذهب أبـو عـدنان لبيـت صـديقه يستشـيره فـي الأمـر، أخبـره الضـابط أنـه لـيس بالإمكـان الحصول علـى الشـهادة المطلوبـة، مـا دام سجل عدنان يشير إلى أنه كان مـن بـين الأشـخاص الـذين تعرضـوا للاعتقـال فـي السـنوات

الماضية، وذلك في إشارة واضحة إلى أن الأمر قد يحتاج إلى رشوة إلى جانب الواسطة. كان من الصعب على أبو عدنان، الأستاذ الفاضل والمربي الأمين، أن يقبل فكرة الرشوة وأن يهضمها. لكن سوء الظروف السياسية، وقسوة الحياة الاقتصادية، والحاجة لضمان مستقبل ولده، اضطرته إلى التفكير مليًا وجديًا في الأمر والقبول به في آخر المطاف.

عاد أبو عدنان إلى بيت صديقه في اليوم التالي ليسأله كم ستكلف العملية، ومن سيقوم بالتفاوض على ترتيباتها، ومع مَنْ سيتم التفاوض. أجابه شعلان ببساطة:

- سأجمعك به غدًا في بيتي، نتناول طعام العشاء معًا، ومن ثم سأتركك لتتفاهم معه.. إنه رجل جريء، لا يخجل من شيء، ولا يخاف أحدًا، ورخيص في نفس الوقت، يبيع أمه وأبوه ووطنه بقروش قليلة. وحين تقابل أبو عدنان مع مدير السجلات في جهاز أمن المدينة في مساء اليوم التالي، بادره الأخير قائلاً دون مقدمات: لقد راجعت سجل ولدك، وأن قضيته عويصة، لكنني قادر على حلها، ولن تكلفك كثيرًا.. إنني اعلم أن أحوالك المعيشية صعبة، ولديك، ما شاء الله، عائلة كبيرة، ولذا لن أثقل عليك كثيرًا.. معاش شهر واحد من راتب عدنان في السعودية، وأقسم لك بالله العظيم، أنه لو كنتَ من تجار المدينة أو من أصحاب العقارات لطلبت منك عشرة أضعاف هذا المبلغ، لكنني سأتنازل عن بقية أتعابي، سأعتبرها صدقة لوجه الله.

بعد استلام الرشوة، قام مدير السجلات بتسليم شعلان محتويات الملف على مدى ثلاثة أيام متتالية، ثم وضع في الملف بدلاً منها بعض الأوراق التي تصعب قراءتها ولا تعني شيئًا، وألقى بالملف في مكان قذر يغمره العفن، وتسرح الفئران فيه وتمرح دون رقيب. بعد ذلك بيومين، قام شعلان بتمزيق ما لديه من أوراق وإعداد طلب للحصول على "شهادة حسن سلوك"، نيابة عن عدنان وتقديمه لرئيسه، مشفوعة بشهادة منه تقول: "بعد الاطلاع على الملف الخاص بالمستدعي، لم أجد فيه ما يستدعي رفض طلبه أو التحفظ عليه". وحين عاد أبو عدنان إلى البيت في ظهيرة ذلك اليوم، كانت يده متصلبة.. لقد بقيت في جيبه لا تتحرك لحوالي الساعتين، ممسكة بالشهادة الجديدة.. بصيص الأمل في نهاية النفق، وحبل النجاة لغريق طال انتظاره في مستنقع قذر.

فرح أعضاء العائلة بذلك الانجاز الكبير، واحتفلوا بشهادة حسن السلوك أكثر من احتفالهم بشهادة التوجيهية، وذلك باستثناء أبو عدنان. بقي أبو عدنان صامتًا، عابس الوجه طيلة فترة المساء.. لم يستطع مجاراة أولاده في الضحك، ولا حتى تناول العشاء معهم، أو تبادل الحديث مع زوجته. لذا خرج من البيت، ولم يعد إليه إلا بعد منتصف الليل، بعد أن كان النوم قد سرق الأولاد جميعًا ورمى بهم في بحر من الأحلام الوردية. لقد أحس أبو عدنان بالحزن بسبب ما آلت إليه الأوضاع والأخلاق في وطنه، وبالخجل من فعلته، وبتأنيب ضمير كان لا يزال محافظًا على نظافته واستقامته. أما عدنان، فقد تنفس

الصعداء لأول مرة بعد عشرة أيام من الانتظار والترقب والخوف.. لقد أيقن أنـه يملـك وثيقـة التحـرر مـن السـجن الكبيـر، وأن القـدر ابتسـم لـه أخيرًا، لكنـه لم يكن يدري ما كان يخبؤه لـه القدر في المكان الآخر.

مضارب بني هاجر

لم تكن الساعة قد أشارت إلى الثامنة صباحًا حتى كان مطار القدس يعج بزواره.. عشرات المسافرين والمودعين والمستقبلين كانوا قد تجمعوا بالقرب من المدرج بانتظار قدوم الطائرة، لكن انتظارهم طال أكثر من ساعتين قبل أن يعلن برج المراقبة أن الرحلة تأجلت حتى التاسعة مساء. احتار المسافرون والمودعون والمستقبلون فيما كان عليهم أن يفعلوه، إذ بينما قرر البعض العودة إلى بيوتهم والمجيء إلى المطار في الوقت المحدد، خاصة من كان يسكن منهم في القدس أو بالقرب منها، قرر آخرون الانتظار في المطار حتى موعد إقلاع الطائرة في المساء. وبعد استشارة رفاقه، قام عدنان بإقناع كافة مودعيهم من الأهل والأصدقاء بالعودة إلى نابلس. وبعد ذلك قام عدنان ونضال وطارق بتسليم حقائبهم المتواضعة لموظف شركة الطيران في المطار، وذهبوا إلى قلب المدينة، حيث قاموا بالتجول في شوارعها العتيقة التي طالما عشقوها وتغنوا بها وبمجدها، وزاروا كل من الصخرة والحرم وكنيسة القيامة، وتناولوا طعام الغداء في مطعم السلام، وذلك قبل أن يعودوا إلى المطار في السادسة مساء.

في حوالي العاشرة مساء، أقلعت الطائرة وعلى متنها عدنان ورفاقه في طريقهم إلى مدينة جدة في السعودية، حيث كان ممثل وزارة التربية في انتظارهم في مطار المدينة. وبعد إتمام إجراءات الدخول إلى المملكة، تم نقل الضيوف إلى أحد الفنادق المتواضعة في وسط المدينة، انتظارًا لتحديد أماكن عملهم وترتيب عملية نقلهم إليها. وفي صباح اليوم التالي، نزل الأصدقاء الأشقياء إلى وسط المدينة لزيارتها، وتفقد معالمها، والتجول في سوقها القديم، وقضاء بعض الوقت في سوق الذهب الذي طالما سمعوا عنه الكثير. فوجئ نضال بمنظر النساء السعوديات، وقد لبست كل واحدة منهن ثوبًا أسودًا يغطي كامل جسدها، مما جعله يتساءل عن السبب، وعما إذا كانت السعودية تعيش أيام حداد. ضحك عدنان وطارق كثيرًا حين سمعوا ما قاله نضال.. أشفقوا على رفيقهم من سذاجته وضعف ثقافته، وأخبروه بما كانوا يعرفونه عن طبائع المجتمع السعودي وتقاليده، وعن المذهب الوهابي في الإسلام الذي تتبعه أغلبية السعوديين، والذي يجعلهم أكثر تزمتًا وتمسكًا بالتقاليد والحجاب من الشعوب العربية الأخرى.

لم تمض ثلاثة أيام على وصولهم إلى جدة حتى كان عدنان ورفاقه في طريقهم إلى القرى التي تم تعيينهم فيها، والتي كانت سلاسل الجبال الشاهقة ومئات الكيلومترات من الصحاري القاحلة تفصلها عن بعضها البعض. وبينما تم نقل طارق ونضال بالسيارات إلى مراكز عملهم في مناطق قريبة من المدينة المنورة، كان على عدنان أن يسافر أولاً

بالطائرة إلى مدينـة الظهران الواقعة فـي المنطقـة الشرقية من الـبلاد، قبل أن يستقل سيارة حكوميـة تنقلـه إلـى مكـان عملـه فـي مضـارب بنـي هاجر.

تقع مضارب بنـي هـاجر التـي ألحق عدنان بهـا، فـي منطقـة صـحراوية نائية في المنطقة الشرقية من المملكـة، علـى بعد مائـة كيلـومتر تقريبًـا من مدينـة الظهران التـي تتمركـز فيهـا صـناعة الـنفط وشـركات البتـرول العالميـة. وفـي الطريـق إلـى مضـارب بنـي هـاجر، توقفـت السيارة التـي كانت تقل عدنـان واثنين آخـرين مـن المدرسـين الجـدد فـي قريـة صـغيرة اسمها وادي الظبيان، بها مدرسـة تتكـون مـن ثلاثـة غـرف، ويعمـل بهـا اثنـين مـن الأسـاتذة، يقـوم أحـدهم بمهـام المـدير، وبهـا أيضًـا مقهـى متواضـع لـم يكـن قـد مضـى علـى تأسيسـه سـوى ثمانيـة أشـهر، يـديره مـدير المدرسـة فـي أوقـات فراغـه، ويؤمـه المدرسـون والموظفـون والمهندسون وغيرهم من العاملين في تلك المنطقة مـن العرب، خاصـة يوم الجمعة من كل أسبوع.

دخل الزوار إلى المقهى، استقبلهم ورحب بهـم صـاحب المقهـى ومـديره والموظف الوحيد فيه. كان أبو أحمد صاحب المقهى، يعمل أيضًـا مـديرًا لمدرسـة القريـة منـذ ثلاثـة سـنوات خلـت، وكانـت زوجتـه أم أحمـد هـي التي أقنعته بفتح المقهى، وذلك بعد أن كـاد الفـراغ القاتـل يسرق النـوم من عينـه، والأمل من قلبه، والرشد مـن عقلـه. وبسـرعة غيـر متوقعـة، لـم يكـن يحلـم بهـا أبـو أحمـد ولـم تتخيلهـا أم أحمـد، تحـول ذلـك المقهـى

المتواضع جدًا والكائن في قرية نائية لا يهتم بوجودها مثقف إلى مركز ثقافي وملتقى فكري أسبوعي يفيض نشاطًا وحيوية.. لقد أصبح المقهى خلال أسابيع قليلة واحة فكر وتسلية، يلتقي فيها الأصدقاء والأشقياء الباحثون عن أصدقاء، والضالون العطشى في صحراء بلا رفيق أو ماء، يتبادلون الحكايات الطريفة، يقرؤون الأشعار، يتعرفون على آخر الأخبار والإشاعات، ويستمعون لأحدث الأغنيات والنكات التي كانت تصلهم من الأهل في أوطان تركوها على أمل العودة إليها قريبًا.

وصل أبو أحمد لقرية وادي الظبيان، تمامًا كما وصل إليها عدنان، بعد أن عاش سنوات صباه في مخيم عقبة جبر القريب من مدينة أريحا، والذي كان يأوي عددًا كبيرًا من اللاجئين الفلسطينيين. ولكن لحسن حظ أبو أحمد، ولكونه متزوجًا، تم تعينه في وادي الظبيان التي تتوفر فيها غالبية متطلبات الحياة الأساسية. وحين توقفت السيارة في القرية، كان أبو أحمد أول شخص يتعرف عليه عدنان في السعودية من أبناء وطنه ويرتاح إليه. لكن عدنان لم يكن في حينه قادرًا على استيعاب أهمية اللقاء.. كان الذهن مشغولاً وقلقًا ومشتتًا، لا يرى أمامه غير صحراء ممتدة كأنها ليل بلا نهاية أو بحر بلا آخر.. كانت الشمس الحارقة تبدو وكأنها نار تستعر بلا توقف، وكانت الرمال المتطايرة في السماء تدمي العيون بلا سبب، بلا فرح أو حزن. وبعد أن شربوا الشاي معًا، وسأل أبو أحمد ضيفه عن آخر أخبار الوطن،

تابعت السيارة التي كانت تقل عدنان رحلتها إلى مضارب بني هاجر، حيث وصلت محطتها النهائية في حوالي السادسة مساء.

أحيانًا تكون إنجازات الإنسان سندًا له، تجعل حياته أقل صعوبة وأكثر متعة، وأحيانًا تكون الإنجازات مصدر تعب، تزيد من مسئولية صاحبها ومعاناته. كانت شهادات عدنان المدرسية تشير إلى أنه كان متفوقًا في كافة المواد الدراسية، لذا اختاروا له مدرسة صغيرة، يقوم بإدارتها والتدريس فيها بمفرده، والحرص على نظافتها بنفسه، والنوم ليله في أحضانها والعيش نهاره بين جدرانها.. كانت مدرسة عدنان بلا جدار.. مجرد خيمة بلا اسم، تقع في مكان مهجور لم تتعرف عليه خارطة بعد، ولم يخطر لعدنان على بال، أو يقلق حلمه في يوم من الأيام. هكذا، وجد عدنان نفسه بين ليلة وضحاها مديرًا ومدرسًا وفراشًا في آن واحد لمدرسة بلا جدران، عبارة عن خيمة بالية تقع في مكان بعيد عن العمران، يؤمها طلاب بمختلف الأعمار، ليس لديهم حافز، ولا هموم مستقبلية، ولا مشاغل فكرية أو سياسية، ولا أشجان.

كان الشيخ عرفان بن البصير، شيخ عشيرة بني هاجر، في انتظار عدنان حال وصوله إلى مضاربهم العامرة، حيث استقبله بالترحاب، وقاده متكئًا على عصاه وممسكًا بيد صبي حسن الطلعة، إلى خيمة خالية من كل شيء، فيما عدى فرشة عتيقة فقدت لونها مع تقادم الزمن وتراكم الأوساخ، ومخدة صغيرة سوداء اللون، وجاعد مصنوع من جلد ماعز فقد معظم شعره من كثرة الاستعمال والتعرض المستمر لحرارة الشمس الحارقة. كانت تلك الاشياء ملقاة في ركن من أركان

الخيمة، وكأنها بعضًا من نفايات نسي صاحبها التخلص منها حين قرر الرحيل وهجران خيمته. وبالرغم من وضوح الحقيقة أمام عيني عدنان، إلا أنه رفض في أول الأمر أن يصدق أن تلك الخيمة ستكون بدءًا من تلك الليلة، كل بيته، وغرفة نومه، وخزانة كتبه. إلا أن المفاجأة الكبرى جاءت حين أخبره الشيخ عرفان أن الخيمة هي أيضًا مكان عمله، وجميع مباني مدرسته، وأن أرضها هي صفوف الدراسة لتلاميذه.

أما مضارب بني هاجر فقد كانت عبارة عن مجموعة من الخيام لم يتجاوز عددها العشرين، تتناثر بشكل عشوائي في صحراء قاحلة، لا يُوَحدها نظام ولا يجمع فيما بينها مفهوم مجتمعي، أقيمت في مكان معزول عن البحر والعمران، لا تتصل بحضارة، ولا تعرف معنى المدنية.. خيام تقف في حالة استعداد دائم للرحيل، لا تشعر بالارتباط بأرض، ولا بالولاء لسماء، ولا بالحنين لزمن.

أغمض عدنان عينيه وغاب عن الوعي لحظات قليلة، لكنها كانت كافية ليدرك أن الخيمة هي الفضاء الذي سيحتوي عالمه الجديد لشهور عديدة، وربما لسنوات قادمة، وأن عليه أن يقبل تلك الحقيقة ويتكيف معها.. كانت الخيمة الفارغة من كل شيء يمت لمتطلبات الحياة الأساسية بصلة، هي البيت الذي حلم عدنان بالتمتع فيه بالماء والكهرباء، وكانت ديوانية بني هاجر الصماء التي تعَرف عليها فيما بعد، هي المنتدى الثقافي الذي حلم بنشر أفكاره السياسية والاجتماعية

من خلاله، وكانت الصحراء القاحلة التي تحيط به من كل ناحية، هي الفضاء الإنساني الذي حلم باستنشاق الحرية في أجوائه.. خيمة أسوأ بكثير من خيمة المخيم الذي تركه خلفه، وسجن أكبر من عالم الأردن الذي هرب منه، وحرية ضائعة في منفى صحراوي، بلا فكر أو ثقافة أو وجود إنساني يستحق الذكر.

كانت قرية وادي الظبيان، حيث يعيش أبو أحمد وزوجته، أقرب مكان مأهول لمضارب بني هاجر، تبعد عن مكان إقامة عدنان ما يقارب الساعة بالسيارة على طريق وعرة شقتها قوافل الإبل عبر عشرات السنين، وما يزيد عن ٣ ساعات على ظهر جمل أو حمار. وكانت الصحراء المحيطة به عبارة عن فضاء مفتوح يسرح الرعيان فيه مع أغنامهم وكلابهم دون رقيب.. تظهر بعض الحيوانات الضالة في الليل، تصرخ باستمرار، وكأنها تحاول زرع الرعب في قلوب البدو وتخويفهم كي يرحلوا عن مملكتها. كانت هنالك أيضًا شجيرات صغيرة متنوعة، تزهر أحيانًا في مواسم قصيرة، تستخدمها الأفاعي والعقارب أوكارًا تختفي في أحضانها.. شجيرات لا تكاد أن تكبر حتى يقتلعها العربان، ويقدمونها قرابين لنار الطهي والشواء ومواقد الشتاء.. فراغ يحبس النفس ويكبلها، وحرية تخنق الروح والجسد معًا، وسكون يحير العقل ويربك الفكر، ورتابة تدمع العين وتحزنها. كانت الرمال هي الشيء الوحيد الذي يتمتع بحيوية دائمة في ذلك المكان، تقوم كل يوم تقريبًا بتمثيل مسرحية راقصة، تجبر العيون المفتوحة على

الانغلاق، وتملأ أنوف المشاهدين بالتراب، تهز أركان خيامهم بعنف، وتفرض على ساكنيها أحيانًا حالة منع التجول لأيام.

بعد أسابيع من بدء العمل ورتابة الحياة والخوف من التعود على الكسل، اكتشف عدنان أن هناك بالقرب من مضارب بني هاجر عين ماء عذبة المذاق، خلقت من حولها بحيرة صغيرة جميلة، تحيطها غابة صغيرة من شجيرات وورود برية تزهر في الربيع وتحتفظ بخضرتها طوال مواسم السنة. وفي الصباح الباكر كانت نساء واحة الظبيان وبني هاجر تؤم البحيرة لملئ جرار الماء والاستحمام في مياهها قبل العودة إلى منازلهن، بينما كانت تردها الأغنام والجمال والحمير والرعيان في العصر للشرب والراحة، وتتوقف عندها أسراب الطيور المسافرة في الصيف عبر الصحراء لتروي ظمأها قبل مواصلة الهجرة إلى بلاد الشام.

اكتشف عدنان أن الحياة في ذلك المكان النائي كانت تجربة فريدة أعادته أكثر من خمسة قرون إلى الوراء... أعادته إلى أيام البداوة الحقيقية، حين كان المجتمع العربي في غالبيته رعويًا لا يعرف معنى الانتماء لأرض أو لوطن، ولا يعترف بدولة أو سلطة سياسية. كانت خيمة البدوي في حينه هي الأرض والوطن الذي يرتبط به، وقبيلته هي الشعب الذي ينتمي إليه ويشعر بالولاء له، وعادات وأعراف القبيلة هي القوانين التي يحترمها والهوية التي يتمسك بها، وكانت حياة التجوال والتنقل والرعي بحثا عن الماء والكلأ هي كل نشاطه

الاقتصادي، وغزو الغير من القبائل وقتل رجالهم وسبي نسائهم وأطفالهم وسلب أغنامهم وأموالهم، مصدر فخر واعتزاز وتسلية، يؤرخ لها وبها، ويقول الشعر فيها.

دُعي عدنان بعد أسبوع من وصوله لحضور مجلس الشيخ عرفان.. فرح عدنان بالدعوة كثيرًا، واستعد لحضور المجلس كما كان يستعد حين يُدعى للمشاركة في المحاضرات العامة واللقاءات الحزبية. إلا أن تجربة عدنان هذه المرة كانت مخيبة للآمال.. كان السكون والرتابة يخيما على أجواء المكان، وكان الكلام قليلاً وبالميزان. أما الشيخ عرفان فقد لاحظ عدنان أنه كان عابس الوجه طوال الوقت، وذلك بالرغم من صعوبة تفحص وجهه بسبب فقدان البصر. لقد اقتصر حديث الشيخ على تلاوة بعض الآيات الكريمة، وذكر بعض الأحاديث النبوية الشريفة، والتي لم يكن يحسن حفظها، ولا تلاوتها، ولا شرح معانيها للحضور. كان في المجلس رجل صغير الحجم، نحيل البنية، يميل لون بشرته إلى السواد، يبدو عليه من مخلفات عهود العبودية البائدة.. كان الرجل يقف بالقرب من باب الخيمة، ولا يتحرك من مكانه إلا بناء على إيماءات الأخ الأصغر للشيخ عرفان، يمر بين الحين والآخر على الحضور، يصب القوة لهم.

في حوالي الساعة التاسعة مساء، استئذن عدنان للصلاة، وسأل عما إذا كان هناك من يرغب في الانضمام إليه، لكنه لم يجد أحدًا.. شعر عدنان عندها بالاحراج، وخاف من أن يكون قد تسبب في إحراج

الشيخ عرفان ورجاله، لكن لم يبدو على وجه الشيخ شيئًا يدل على أنه شعر بالحرج. استغرب عدنان الأمر بعض الشيء، لكنه لم يقل شيئًا. وبعد أن أتم صلاته، همس في أذنه الشاب الذي كان يجلس إلى جانبه وأخبره بأنه لا يوجد بين الحضور من يداوم على الصلاة. وحين ترك عدنان المجلس شعر بأنه أضاع وقته في الاستماع لرجل يدعي التدين دون القيام بواجباته الدينية، وجاهل لا يدرك حقيقة جهله، ولا مدى خطورة الجهل على حياة الناس الذين يستمعون إليه ويستأنسون برأيه. فالجهل الملفوف بعباءة العلم يتحول إلى مصيبة حين يردده شيخ عشيرة، أو يتبناه قائد أمة، أو يُكتب في كتب تُدرَس في المدارس، وتُُفرض على أجيال من التلاميذ والتابعين.

تكررت زيارات عدنان للمجلس، وذلك بناء على رغبة الشيخ عرفان، لكن الأمور بقيت على حالها دون تغير يذكر.. نفس الأحاديث المملة، نفس الأجواء القاتمة، نفس الوجوه العابسة، نفس القهوة، ونفس الخادم الذي يبدو وكأنه أخرس لا يستطيع الكلام. وفي إحدى الزيارات، قرر عدنان أن يسأل الشيخ عرفان عن الشيئ الذي اعتقد أنه غائب عن المجلس. كانت معلومات عدنان القليلة التي استمدها من الحكايات الشعبية المتداولة في فلسطين والأردن، تشير إلى أن مجالس شيوخ القبائل والعشائر تتميز عادة بسرد القصص الشيقة التي تحكي أساطير الماضي وتعدد أمجاده الغابرة، وتتفاخر بوجود من يقرض الشعر ويقرؤه باستمتاع على الحضور، وأن الربابة غالبًا ما كانت تشارك في تلطيف الأجواء. لذا سال عدنان مُضيفه عما إذا كان بين

الحضور من يحفظ الشعر، أو يحسن التقسيم على الربابة، أو يجيد الغناء. تجهم وجه الشيخ عرفان حين سمع ما قاله عدنان، وقال بنبرة حادة يشوبها الغضب:

- يبدو عليك يا بني أنك نسيت تعاليم دينك الحنيف، ألا تعلم أن الشعراء يتبعهم الغاوون، وأن الغناء والرقص من شيم الغجر، وأنها من الأمور المكروهة؟ إن التفكر في أمور الدين والحياة، وأداء الواجبات الدينية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هي طريق الخلاص من عذاب القبر والنار.. إنها مفاتيح الجنة التي وعد الله بها عباده الصالحين.

شعر عدنان عندئذ بالحرج الشديد، وكاد أن ينسحب من المجلس بهدوء ويعود إلى خيمته التي كانت تلعب بها الرياح، لكنه قرر عدم الاستسلام بدون مقاومة.. قرر أن الاستسلام للجهل والاعتراف بالهزيمة أمام عنجهيته هي خطيئة لا تغتفر. لذا قال عدنان، وذلك في محاولة لإحراج الشيخ عرفان وكشف ما كان يعانيه من جهل:

- نعم، يا شيخ عرفان.. إنك على حق، وأنا متأكد من أنك قضيت جل سنوات العمر في دراسة القرآن الكريم، والاطلاع على الأحاديث النبوية الشريفة، ومراجعة أمهات الكتب الدينية وسير الصحابة والأئمة رضي الله عنهم جميعًا.. طبعًا قبل أن تفقد نعمة البصر التي عوضك الله عنها على ما يبدو ببصيرة القلب.

كان لتلك الكلمات وقع الصدمة على الشيخ عرفان، مما جعل وجهه يتجهم من جديد، ويبدو عليه الخجل والإحراج، وهذا دفعه لمحاولة

إنهاء النقاش في موضوع الدين والتدين، وتغيير مجرى الحديث. إلا أن عدنان لم يُمكِنُه من ذلك، إذ تابع حديثه بسؤال محرج وجهه للشيخ مباشرة:

- هل لك يا شيخنا الفاضل أن تتكرم علينا بشرح دواعي وقوع الفتنة في صفوف المسلمين التي تلت مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه، وأن تعطينا فكرة عن آراء وتاريخ الشيعة؟ إن هذه قضايا هامة في تاريخنا الحضاري وموروثنا الديني طالما أقلقتني ولم أجد لها تفسيرًا مقنعًا حتى الآن.

طأطأ الشيخ عرفان رأسه وقد أدرك حجم الورطة التي وقع فيها، سكت طويلاً، وتردد كثيرًا قبل أن يتكلم:

- لا اكذب عليك يا بني إذا قلت لك أنني أمي، لا أقرأ ولا أكتب، ولم اطلع بنفسي على أي كتاب من كتب الدين أو الفقه أو التاريخ، وأنني فقدت نظري في سن الخامسة من العمر.. إن كل ما لدي من معلومات نقلتها وحفظتها عن شيوخ أفاضل، مقرئين وفقهاء في الدين، كانوا كلما مروا بديارنا استضفناهم لأيام، وأحيانًا لأسابيع، يمضونها بيننا، يقرؤون لنا القرآن، يشرحون لنا الأحاديث النبوية، يقصون علينا قصص الأقدمين، ويعلموننا أصول العبادات. وقبل الرحيل، كنا نتصدق على كل منهم بغنمة أو اثنتين، وبعض اللبن الجامد، وعباءة شتوية.. كان الشيخ معصوم بن محسوم، رحمه الله، أجل من زارونا من الفقهاء في هذه الديار.. كان رجلاً بصيرًا، حرمه الله نعمة النظر ونور العين، ولكن وهبه صفاء العقل، ونقاء النفس، وبصيرة القلب.

- إنني افهم من كلامك هذا أن الشيخ معصوم كان أعمى، وهذا يعني أنه كان أيضًا أميًا، وأنه بالطبع لم يعرف القراءة ولا الكتابة، وبالتالي لم يقرأ القرآن ولا الأحاديث النبوية، ولم يطلع بنفسه على سير السلف الصالح وكتب تاريخ الأمة وقضايا الخلاف بين طوائفها. فكيف لأمي أعمى، يا شيخ عرفان، أن يصبح فقيها في أمور الدين، وكيف له أن يفتي في قضايا تحتاج إلى نظر.. إلى رؤية بالعين وليس رؤية في الحلم، كتلك التي تتعلق بعورات النساء مثلا؟ أنه بالتأكيد حصل على علمه من شخص آخر، ربما كان أميًا مثله.

- نعم.. صدقت يا بني، هذا صحيح. لقد التقى الشيخ معصوم شيخه عبد الستار الذي علمه أصول الدين، حين كان الشيخ عبد الستار، رحمه الله، قد قدم من السودان لأداء فريضة الحج. وحين التقيا في مكة المكرمة كان الشيخ عبد الستار في حالة يرثى لها، ملقى به على قارعة الطريق بالقرب من مدخل المدينة، وقد أعياه التعب وكبر السن، وبدا عليه الإرهاق والعطش والجوع، ويكاد أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. أما الشيخ معصوم، فقد كان في طريقه إلى مكة لتأدية فريضة الحج، مصطحبًا ابنته أسماء البالغة من العمر ١٢ سنة تقريبًا. لاحظت أسماء حالة الشيخ عبد الستار المحزنة، وأخبرت أباها بما رأت، واصفة له أوضاع الشيخ عبد الستار المؤلمة. لذا قرر الشيخ معصوم، صاحب القلب الكبير، الأخذ بيد الشيخ عبد الستار ومساعدته على تأدية مناسك الحج. وحين انتهت المراسم، قام الشيخ معصوم، والذي أعجبته ثقافة الشيخ عبد الستار وعلومه وشخصيته، بمؤاخاته

ودعوتـه للإقامـة معهم فـي قريـة السـعدية القريبـة مـن وادي الظبيـان. وهنـاك قـام الشيخ عبـد السـتار بتعلـيم الشـيخ معصـوم أصـول الـدين، ومبـادئ التفسـير، وطـرق الـوعظ، وقـام الشـيخ معصـوم بـرد الجميـل بأفضل منـه، حيث وهب ابنته أسماء لصديقه وأخيـه فـي الإسلام. وبعد حـوالي السـنـة، أنجبـت أسـماء ولـدًا، وذلـك قبـل أن يتـوفى الشـيخ عبـد الستار بسنتين تقريبًا.

وهنا تدخل أحد الحضور قائلاً:

- هل لـك يـا شـيخ عرفـان أن تقـص علـى ضـيفنا الكـريم قصـة الشـيخ معصوم أيضًا؟ اعتقد أنها ستعجبه، وستعطيه فكرة جيدة عن كـرم بنـي هاجر، ومروءة شيخهم الجليل.

- نعـم، أحسـنت يـا سـلمان.. إنهـا بالفعـل قصـة مشـوقة. كـان الشـيخ معصوم، رحمـه الله، يعمـل راعيًـا للغنم أثنـاء صباه عنـد والـدي الشيخ سحبان، وكـان والدي يكرمـه ويحسن إليـه دائمًـا. وفـي يـوم مـن الأيـام، وبينما كان معصوم يرعى الغنم في الصـحراء المجـاورة، هبت عاصـفة رملية قوية على المنطقة بأسرها.. ضلَ معصوم طريقـه فيهـا، ولـم يعد قادرًا على معرفة مكانه أو وجهة سيره. لـذا بقـي ضـائعًا فـي الصـحراء لمدة ثلاثة أيـام متتاليـة، دون طعـام أو شـراب. وحـين تـم العثـور عليـه، وجدناه مستلقيًا على وجهه، فاقد الـوعي.. وبعد أن تـم إسـعافه وصـحا مـن غيبوبتـه، اكتشـفنا، مـع الأسـف، أنـه فقد بصـره. حزنـا لـذلك حزنًـا كبيرًا، وأطلق والـدي سـراحه وأعـاده إلـى عشيرته فـي قريـة السـعدية، بعد أن وهبـه عشـر غنمـات مـن أفضـل الغنم التـي رباهـا معصـوم علـى

يديه. عاش معصوم على حليب ونسل أغنامه، وتزوج بعد أشهر ابنة عمه وضحة التي رزقه الله منها ابنة فاضلة اختار لها اسم أسماء.

قامت أسماء، أكرمها الله، بخدمة والدها الضرير وزوجها الشيخ عبد الستار على أفضل وجه، والعناية بابنها والبيت والغنم، وذلك حتى وفاة والدها الشيخ معصوم بعد وفاة زوجها الشيخ عبد الستار بسنتين تقريبًا. لكن بينما كان الشيخ معصوم يرقد في فراش الموت، قام إخوته، جازاهم الله، بالاستيلاء على كل ما تركه لابنته وولدها من أغنام، وطردوهما من البيت بعد وفاته بأيام، ولم يكن الحسن قد بلغ الرابعة من العمر. وعندما علمتُ بأمرها، أرسلت مَنْ أحضرها وولدها إلي، أكرمت وفادتها، وتزوجتها بعد انقضاء فترة الحداد، واحتضنت ابنها وعاملته كواحد من أولادي.. إنه الحسن.. واحد من أفضل ما لديك اليوم من تلاميذ.

وهنا همس عدنان في سره قائلا: نعم.. الآن فهمت.. فهمت كل شيء.. أمي يُعلم أميًا علوم الدين، وأعمى يقود أعمى لمراتب المشيخة في المجتمع، وأمي أعمى يقود عشيرة تقود أمة. ثم اتجه بنظره إلى الشيخ عرفان قائلا بحدة:

- أخبرني يا شيخ عرفان هل تصلي الصلوات في أوقاتها وحسب الأصول؟ إنني لم أرَ في حياتي، لا في السعودية، ولا في فلسطين، ولا في الأردن بدويًا يصلي، أو حتى يتوضأ.. ألا يعتبر البدوي الصلاة فرضًا من فروض الدين؟

وحين لم يسمع جوابا من الشيخ عرفان، استأذن بالخروج، وترك المجلس مصممًا على عدم العودة إليه إطلاقًا. وفي الطريق إلى قصره المنيف الذي كانت تضرب الرياح فيه، خطرت له خاطرة.. دخل الخيمة، أضاء مصباحه الزيتي، احضر دفترًا وقلمًا، استلقى على بطنه فوق أرض الخيمة، وسجل مشاعره تحت عنوان: "سلطان الجهل".

سلطان الجهل

العقاب آتٍ
تلوَ العقابْ
والأميرُ واهم
مرتبك
لا يعرف الخطأ
من الصوابْ

والشيخ مقرئ جاهل
يدعي شفاء المرضى
تفسير الأحلام
ويعجز عن الفعل
أمام الذبابْ

يتقمص دور النبي
يحسن النفاق للقوي
والغنيِ
يستلهم العلم من الجاهل الغبي
ويدعو له بحسن الثوابْ

لعابه يجري كالنهر

لسانه يقطع كالسيف

يهدر دم العلم

والعالم

ويصدر الأحكام الجائرة

بلا حسابْ

والجهل يغمر الأرض

يزهو كالأسد

وناطحات سحابْ

والعلم يتوارى حزينًا

كشمس آفلة

أغرقها الضبابْ

والشعب خائف

راكع لسلطان الفقر

والقهر

يستمرؤ الظلم

وطعم العذابْ

والفكر يتيم

يعيش التشرد

وحال اغترابْ

ينتظر الهروب من الوطن

من الكبت

يخاف العقاب

تلو العقابْ

المدرسة والحمار

بعد أن قرأ عدنان القصيدة التي كتبها عدة مرات، هرب النوم من عينيه الحزينتين.. هجره وتركه يعاني القلق والوحدة.. تركه يبكي حاله وحال أمته، ويندب مستقبلاً غدًا جزءًا من خيمة بالية تعبث بها رياح صحراوية عاتية. وبينما كان سارحًا يجدف في خيالات واهية وأوهام عبثية وقد بدأت أشعة الشمس تتسلل إلى خيمته، فوجئ بسماع صوت نسوة تغني بالقرب منه.. أصوات بعض نساء بني هاجر في طريقها إلى عين الماء، مرورا بخيمته التي كانت تقع في الطرف الغربي من مضارب بني هاجر على الطريق المؤدية إلى العين، ومنها إلى قرية وادي الظبيان. كانت العين ملتقى النسوة، تردها كل صباح، وأحيانًا في المساء أيضًا لملئ جرار الماء، وغسل الثياب، والاستحمام أحيانًا، وقضاء وقت جميل في الغناء والرقص بحرية بعيدًا عن أعين خيمة العشيرة وما يحيط بها من تقاليد وأعراف.

ظن عدنان حين سمع تلك الأصوات أنه كان يحلم، لكن حين لاحظ أن الأصوات كانت تقترب منه لحظة بلحظة، تأكد أن أذنيه لم تَخُنْه. استل نفسه من فراشه بسرعة، فتح باب خيمته وخرج منها دون أن يتذكر ضرورة تغيير بيجامته وترتيب شعره.. نسي كل ذلك بعد أن سمع أصوات وغنج نساء بالقرب منه. ضحكت النساء حين رأت منظر

عدنان.. شعر منفوش، وبيجامة قصيرة تكشف من رجليه وصدره أكثر مما تخفي، وعيون متعبة أعياها السهر والسفر في اللا شيء. لكن ذلك الحدث أعطى نساء العشيرة، ولأول مرة، فرصة رؤية مدرس أبنائهن والتعرف على شكله، وأعطى عدنان فرصة رؤية قوام نساء بني هاجر في طريقهن إلى العين للتمتع بحرية الغناء والرقص بعيدًا عن عيون المتطفلين. لكن حادثة ذلك الصباح الجميل لم تتكرر، مما جعل عدنان يعود إلى سابق عهده.. النوم المتأخر، والصحو الأكثر تأخرًا. ومن خلال مراقبة أوقات مرور نساء العشيرة من أمام خيمته، لاحظ عدنان أنه كانت من بين تلك النساء امرأة جميلة القوام ساحرة العينين، واظبت على المرور أمام خيمته مع اثنتين من رفيقاتها في فترات المساء، والتباطؤ كلما لاحظت وجوده خارجها، إلا أنها لم تحاول تبادل الحديث معه، كما أنه لم يجرؤ على التحدث إليها.

إن شغف عدنان بعمله وإصراره على أداء واجبه على الوجه الأفضل ومحاولة تجنب الوقوع فيما لا تحمد عقباه، شغلته عن التفكير في علاقات مع الجنس الآخر. وعلى الرغم من قسوة الحياة واحباطات التجربة واختفاء الحلم خلف رمال صحراء قاحلة، أصر عدنان على الإخلاص في عمله، والاهتمام بتلاميذه، والنجاح في أداء مهمته. كان عدنان يُشعل مصباحه الزيتي كل مساء، ولا ينام حتى يتعب من القراءة، وكان لا يصحو في الصباح إلا حين يوقظه تلاميذه، وقد احضروا معهم طعام الإفطار المكون من حليب الغنم، وخبز القمح، والتمر، وبعض العسل أحيانًا، مما جعله يتناول الطعام في حضور

تلاميذه، ويبدأ يومه بنشاط وحيوية أكسبته بسرعة حب التلاميذ واحترامهم.

لم يمض وقت طويل حتى اكتشف عدنان أن قدرات تلاميذه على القراءة والكتابة والحساب متفاوتة كثيرًا، وهذا اضطره إلى تصميم برنامج خاص لكل تلميذين على حدة، لكن التلاميذ قلما اكتمل عددهم في أي يوم من الأيام. ولقد تسبب عدم انتظام التلاميذ في متابعة دروسهم في تسرب الإحباط والقنوط تدريجيًا إلى نفس عدنان، مما جعله يدرك أن الإخلاص في العمل لا يقود بالضرورة إلى تحقيق النجاح، وأنه ليس بإمكان أي أستاذ أو عالم، مهما بلغت مواهبه وقدراته وإخلاصه لعمله، مساعدة أي شخص دون أن يكون الشخص المعني مستعدًا لمساعدة نفسه، والتفكير في مستقبله، والاستفادة من الفرص المتاحة له. وهكذا، بدأ الكسل يتسلل إلى حياة عدنان تدريجيًا ويبعده عن الاهتمام بنفسه وتلاميذه، مما جعله يقضي أيامًا دون أن يبدل بيجامته أو يحلق ذقنه، ينام ويصحو دون حافز، في عالم تشرق الشمس كل يوم فيه من بطن صحراء حارقة بلا سبب، وتغيب على أطلالها القاحلة دون تفسير، وهذا جعل عدنان يتساءل عما إذا كانت الشمس عمياء، تشرق في أماكن حارة لا تحتاجها، وتغيب عن بلاد تغمر روابيها وجبالها الثلوج.

كان عدد تلاميذ المدرسة المسجلين رسميًا ١٤ تلميذًا، لكنه قلما حضر أكثر من الثلثين في أي يوم من الأيام، إذ كان بعض الأولاد، خاصة الناضجين منهم، يفضلون مرافقة آبائهم حين يخرجون مع أغنامهم

بحثًا عن الكلأ والماء، وفي رحلات الصيد، وعندما يذهبون إلى السوق الأسبوعي الذي يبعد كثيرًا عن مضاربهم، يبيعون ويشترون الجمال والحمير والغنم والمواد الغذائية وغير ذلك من أشياء. كما كان البعض الآخر من التلاميذ يضطر أحيانًا لرعاية جمال أو غنم العشيرة، أو العناية بحميرها بناء على أوامر الشيخ عرفان.

كان الحسن البالغ من العمر حوالي أربعة عشر عامًا صبيًا وسيمًا، يختلف من حيث لون البشرة، والبنية الجسدية وملامح الوجه عن بقية رفاقه، يهتم بدروسه وهندامه ونظافته على الدوام، ويواظب على الدراسة والمشاركة في الحوار. وهذا ساعده كي يكون أفضل التلاميذ جميعًا، وأكثرهم استعدادًا للتعلم، يبدي رغبة مستمرة في الاستزادة من العلم، والحرص على إرضاء أستاذه والتقرب منه. كان الحسن أيضًا كثيرًا ما يتأخر مع أستاذه بعد نهاية الدوام المدرسي، يساعده في تنظيف الخيمة، وترتيب الكتب القليلة، ونقل أخبار القبيلة إليه. ومع الأيام، تكونت بين عدنان والحسن رابطة خاصة، تبادلا من خلالها الود، تطورت فيما بعد إلى صداقة قوية تقوم على الألفة والمحبة المتبادلة.

وكما اكتشف عدنان فيما بعد، كانت أم الحسن تقف خلف ابنها الوحيد، تشجعه على الدراسة والاستزادة من العلم، وتدفعه للتودد إلى أستاذه والتقرب منه. ومن أجل ذلك، دأبت على تحضير بعض الطعام الخاص بين الحين والآخر وإرساله لعدنان مع ابنها. وهذا ساهم في توطيد العلاقة بين عدنان والحسن، ودفعهما إلى تناول العشاء معًا كلما

أحضر له الحسن طعامًا من صنع أمه. ومع الأيام، ومن خلال تبادل الأحاديث، عرف عدنان قصة الحسن، وعرف أن أسماء التي تزوجها الشيخ عرفان بعد موت زوجها الشيخ عبد الستار هي أم الحسن. كما أن الحسن نقل لعدنان إعجاب أمه بطريقة تدريسه واهتمامه بعمله، وحرصه على العناية بتربية تلاميذه. وهذا جعل أم الحسن تتابع أخبار عدنان، وتتعرف على بعض ما كان يدور في رأسه من خواطر، وما يعيشه من أحاسيس، وذلك من خلال ما كان يقصه ابنها عليها.

في صباح أحد الأيام، وقبل أن يصل التلاميذ إلى مدرستهم، صحا عدنان على صوت سيارة إبراهيم، المفتش المسئول عن المنطقة الشرقية، وقد توقف أمام خيمته. كان إبراهيم يمر بسيارته على مضارب بني هاجر مرة كل أسبوع، يحمل معه ما استجد من أخبار وتعليمات للموظفين الحكوميين. وكان عدنان ينتظر ذلك اليوم بفارغ الصبر ليطلع على الجرائد والمجلات التي كانت تصله من المدينة، وليتعرف على ما استجد من أخبار الدنيا. وحين جاء إبراهيم في تلك المرة، وبعد أن كان عدنان قد أمضى حوالي ستة أسابيع في مضارب بني هاجر دون أن يغادرها، أخبره إبراهيم أنه توقف في وادي الظبيان في طريقه إلى مضارب بني هاجر، حيث رأى أبو أحمد وتناول القهوة في مقهاه، كما أخبره أن أبو أحمد سأل عنه وعن أخباره، وأنه يود دعوته لزيارة وادي الظبيان يوم الجمعة القادم. وأضاف إبراهيم قائلاً: إن مقهى أبو أحمد تمتلئ كل جمعة بالمهندسين، والأطباء، والمدرسين، وموظفي الحكومة، ومدراء الشركات العاملين في

المنطقة المحيطة بالقرية، وتغدو مهرجانًا للحكايات الشعبية، والنكات الظريفة والطريفة، والأشعار الجميلة، والغناء والطرب.

فرح عدنان بتلك المعلومات، وبالدعوة لزيارة أبو أحمد في مقهاه العامرة.. شعر وكأنه يكتشف حبًا عميقًا في قلبه كان يرفض البوح عن ذاته، مما جعله يشعر بالحنين لأيام خوالي كانت تعيش في زوايا النسيان التي طمرتها قسوة الحياة في الصحراء. لكن عدنان تذكر أنه ليس لديه وسيلة للتنقل، فكيف له أن يسافر إلى وادي الظبيان دون سيارة أو حمار أو جمل. وبعد تفكير طويل وعميق، قرر أن يطلب من الشيخ عرفان حمارًا يحمله إلى هناك، ويكون رفيقًا لدربه في ذهابه وإيابه. رحب الشيخ عرفان بالفكرة كثيرًا، ووعد عدنان بأن يكون الحمار جاهزًا للرحلة في مساء يوم الخميس التالي. إذ بعد المواجهة التي تمت بين عدنان والشيخ في الديوانية، أصبح الشيخ يشعر بالضعف أمام عدنان، فالجهل؛ وبالرغم من العنجهية والشراسة التي يتصف بها أحيانًا، يشعر غالبًا بالتواضع أمام العلم والمعرفة.

نام عدنان ليلته سعيدًا، يحلم برحلة مثيرة تأخذه إلى وادي الظبيان، ولقاء مع أبو أحمد، وربما التعرف على صديق جديد يساعده على تحمل عذابات الغربة والضياع. وبعد انتهاء الدرس في اليوم التالي، تخلف الحسن كعادته لمساعدة أستاذه على ترتيب المكان وتنظيف الخيمة. وبينما كان عدنان منهمكًا في عمله، قال له الحسن:

- سأُحضر لك الحمار يا أستاذ في مساء الغد ليكون جاهزًا للسفر فجر الجمعة، إنه حمار جميل وصغير السن، لكنه قوي البنية والعزيمة..

اسمه صابر، وأنا أُلقبه صابر المثابر، لكن عليك يا أستاذ أن تبدأ الرحلة في الصباح الباكر قبل طلوع الشمس بساعة على الأقل لأن الحرارة شديدة وقاتلة في بلادنا، كما أن عليك العودة قبل حلول الظلام لأن الطريق ليست آمنة، والذئاب كثيرة هذه الأيام.

- شكرًا يا صديقي على هذه النصائح، لكنني لا أعرف صابر، لم أتعود عليه ولم يتعود عليّ.. هل لك أن تحضره مساء اليوم لآخذه في رحلة قصيرة في المنطقة المجاورة قبل أن أرافقه في رحلة طويلة؟ وماذا عن الرحلة يا حسن؟ إنني لا اعرف الطريق إلى قرية وادي الظبيان، فكيف لي أن أتحاشى الضياع في الذهاب؟ إن العودة سهلة، لن يكون علي سوى السير في الاتجاه المعاكس.. الصعوبة هي في الوصول إلى قرية وادي الظبيان دون أن افقد بوصلة الإبحار في صحراء بلا معالم، وأغدو فريسة لذئاب تبحث عن ضحية هائمة على وجهها.

- ليست هناك مشكلة على الإطلاق يا أستاذ.. إن صابر يعرف طريقه جيدًا.. لقد قمت بناء على إرشادات أمي وتعليمات الشيخ عرفان بتدريبه على الطرقات منذ سنة تقريبًا.. ما عليك إلا أن تدير وجهه نحو الغرب، بعيدًا عن شمس الشروق، وتربت على رقبته وتقول له هيا بنا يا صابر، وبعد ساعات قليلة ستكون في وادي الظبيان، سيأخذك إلى سوق القرية، بجانب المدرسة. وفي المساء، ما عليك سوى أن تدير وجهه نحو الشرق، بعيدًا عن شمس الغروب، وتعبر له عن رغبتك في العودة. لكن لا بد أن تعرف يا أستاذ أن على جانب الطريق إلى وادي الظبيان، توجد عين الحلوة، وواحة الغزلان التي كنا

قد اتفقنا على زيارتها قبل أيام ولم نفعل ذلك حتى اليوم.. لقد تعود صابر أن يتوقف هناك قليلاً ليروي عطشه، ويستريح بعض الوقت قبل مواصلة الرحلة.. لن يتوقف صابر هناك كثيرًا، إنه يدرك طول الطريق، ولا يرضى لنفسه أن يتكاسل ويتعثر في الطرقات، أو يتأخر، وتصعب عليه الرؤية في الظلمات.

- شكرًا يا حسن على هذه الإرشادات والمعلومات القيمة.. لم أكن أعرف أن الحمار قادر على تحديد طريقه في صحراء بلا معالم، وأنه يعي أهمية الوقت، ولا يقبل لنفسه أن يتكاسل أو يتساهل في أداء واجباته، ويتسبب بالتالي في تعريض حياته وحياة رفاقه وأتباعه للخطر.

تفاجأ الحسن بما سمع من عدنان، إذ كان يعتقد كغيره ممن هم في سنه من الأولاد أن الأستاذ يعرف كل شيء، لذا قال متسائلاً:

- ألا تعلم يا أستاذ أن الحمار كان ولا يزال يقود قوافل التجارة عبر الصحاري العربية؟ إنه ربما كان المخلوق الوحيد الذي لا يضل طريقه في الصحراء أبدًا.. إن الله منح الحمار حاسة شم قوية تمكنه من اقتفاء آثار من سبقوه على الطريق، وهذا يجعله قادرًا على إتباع أقصر الطرق وأسهلها للوصول إلى حيث يريد بأسرع وقت ممكن. إن قدرة الحمار على اقتفاء آثار الآخرين واحترام نفسه لا تجارى.. ألم تلاحظ أن الحمار حين يضربه صاحبه يعاند بشراسة، ويرفض أن يبرح مكانه، وحين يُعامل بلطف يكون خادمًا أمينًا وصديقًا مخلصًا إلى أبعد الحدود؟ إنها الكرامة يا أستاذ.

- صدقت أيها الحسن.. الكرامة هي كل شيء.. حين يفقد الإنسان كرامته يضل طريقه.. يتنازل عما لديه من أخلاق وقيم واحترام للذات والوقت.. وكذلك هي حال الشعوب والأمم يا حسن.. ألا ترى كيف أصبح حال أمتنا؟ ليس هناك شيء يفرقنا عن قطيع جمال ضل طريقه في صحراء قاحلة حارقة، يبحث عن حمار يقوده إلى واحة ماء قبل أن يفتك به العطش والحر والجوع، وتفترسه الذئاب. لكن القادة الموهوبين في بلادنا أصبحوا عملة نادرة، والموجود منهم يرفض أن يتحلى بأخلاقيات الحمير في الصبر والمثابرة والتمسك بالكرامة.. شعوبنا وثقافتنا يا حسن تحتقر الحمير وتعتقد أن الحمير مخلوقات غبية، وهذا تسبب في الحكم على الحمير في بلادنا أن تعيش في أدنى المراتب المجتمعية. مع ذلك، تعودت الحمير كغيرها من حيوانات والكثير من البشر على استمراء ظروف حياتها السيئة والمهينة، والارتياح إليها، ومقاومة محاولات تغييرها، حتى حين يكون التغيير ضروريًا والمستقبل واعدًا.

إن من الواضح أن قادتنا لم يدركوا بعد ما يتصف به الحمار من صفات رائعة.. إنهم على ما يبدو لا يعرفون أن الحمار هو شعار الحزب الديمقراطي في أمريكا. وبالرغم من أن غالبية الأمريكيين لم يعايشوا الحمير أبدًا، إلا أنهم ربما كانوا أكثر شعوب الأرض تقديرًا لها. أما نحن بني العرب، الذين عشنا حياتنا مع الحمير وتآلفنا معها لآلاف السنين، والكثير منا تشرب عنادها ورضي بالعيش مثلها، فلا نزال غير قادرين على فهم الحمير، ولا حتى الاعتراف لها بالجميل.

لقد تعجبت كثيرًا حين رأيت الرئيس الأمريكي كنيدي قبل أشهر يلقي خطابًا تاريخيًا مُوجِهًا كلامه للعالم أجمع، وليس للشعب الأمريكي وحده، وخلفه صورة حمار. لكن بعد ما سمعته اليوم عن أخلاقيات الحمير وملكاتها ومواهبها لم أعد استغرب موقف الأمريكيين منها. يبدو لي يا صديقي العزيز، أن شعوبنا وقادتنا لا تكره الحمير ولا تحتقرها كما يبدو لنا، بل تغار منها، لأنها عاجزة عن تقليدها.. أليس الأمر كذلك يا حسن؟

واحة الغزلان

غادر عدنان خيمته في حوالي السادسة من صباح اليوم التالي في طريقه إلى قرية وادي الظبيان، يقوده صابر المثابر، بعد أن كانا قد تعارفا وتآلفا في الليلة السابقة. وبعد حوالي الساعة والنصف، أدار صابر وجهه نحو الشمال، سار بضعة دقائق قبل أن يتوقف على شاطئ بحيرة صغيرة، تبدو أن الزمن نسيها وتركها تستنشق الهواء من عطر الأزهار، وتتغذى على زقزقة العصافير. وما كاد عدنان يرى وجه البحيرة حتى سمع نهيق حمار آخر كان هناك، وكأنه يعلن ترحيبه بوصول صابر.. سار صابر نحو الحمار الآخر، اقترب منه ببطء، فإذا بالحمار يخفض صوته ويرفع رأسه عاليًا، وكأنه يبدي احتفاءه بالضيف واعتزازه به. ترجل عدنان عن حماره عندئذ، وترك صابر يلامس الحمار الآخر، ويتهامس معه في جو من الهدوء والغبطة.

فجأة، خرجت من البحيرة حورية من صنع خيال فنان عبقري، كان ثوبها الضيق يلتصق بجسدها وكأنه جزء منه، يُظهر كل مفاتنه، ويبرز كل النتوءات المثيرة فيه.. كانت شفتاهاورديتان، وخداها بلوريان ناعمان، تزينهما غمازتان تختزنان ابتسامات عمر لم يعش الفرح، وفي الصدر نهدان متأهبان للعناق، يعيشان شوقًا عارمًا لم

يتذوق طعم الحب بعد، وفي العينين حنين غامض لأمسيات عشق لا تزال تترنح سكارى في زوايا الحلم. اقتربت الحورية من عدنان، خاطبته بهدوء قائلة:

- لم تأخرت.. إنني انتظرك هنا منذ السادسة صباحًا بعد أن علمت الليلة الماضية بأنك ستمر على الواحة في طريقك إلى وادي الظبيان.. إن وادي الظبيان قرية مختلفة تمامًا عن مضاربنا، واعتقد أنها ستعجبك.. لكن هيا بنا الآن.. الوقت لا يخدم من لا يحسن استخدامه.

تَعَرَف عدنان فورًا على حورية البحيرة.. إنها تلك المرأة الجميلة التي دأبت على المرور أمام خيمته بين الحين والآخر مع رفيقاتها، وكانت تتباطئ كلما رأته يقف أمام خيمته، ينظر إلى السماء في حيرة كمن يستجدي مطرًا، أو كأعمى يطلب إحسانًا من مارة لا يراهم.

وقف عدنان مشدوهًا، لم يتكلم، لم يرفع عينيه عن حوريته، ولم يحرك ساكنًا. خطر بباله أن تكون أسماء، أم الحسن، لكنه لم يجرؤ على سؤالها. أخذت الحورية زمام المبادرة، أمسكت بيد عدنان وقبلتها برفق وحنان، وقالت له اتبعني، حيث قادته إلى مكان قريب كانت قد فرشت فيه بساطًا صغيرًا خلف شجيرات برية وهبها الله نعمة العيش بجوار عين الحلوة التي تغذي البحيرة بمياهها العذبة. وبينما كانت تسير أمامه ويسير خلفها نحو الخلوة كطفل يتبع أمه بلا تفكير، لاحظ عدنان أن البحيرة كانت تنعم بوجود ثلاثة حسناوات أخريات، كانت عيونهن مسلطة تمامًا عليه، تراقب كل خطوة من خطواته، وترصد كل همسة من همسات رفيقته.

جلست الحورية على البساط في ظل الشجيرات، أجلسته إلى جانبها، وهمست في أذنه.. هيا بنا، لا تخاف، المكان آمن، ونسيم الصباح ينعش الروح، والجو جميل يبعث الأمل في النفوس.. ألا ترى صور النشوة تتراقص أمامنا على وجه الماء؟ الكون كله ينتظر لحظة حب يباركها، والقلوب تتلهف في شوق لعناق لحظة عشق غالية عاشت العمر تعاني الحرمان. استلقت الحورية على ظهرها باسترخاء ودلال.. تركت كل مفاتن الجسد ومحطات الجنس والإثارة فيه تعرض ما لديها من كنوز مغرية، وتحكي بصمت قصة الشوق الدفين في خلاياها. نظر عدنان إليها في ذهول، لكنه لم يحرك ساكنًا.. كان شارد الذهن، يتعبد في محراب اللاوعي، حيث يفقد الإنسان أحاسيسه وتضعف قدرته على السيطرة على مشاعره وإرادته الواعية.

كان عدنان، ومنذ أن وقعت عينيه على حورية البحيرة، قد دخل حالة مرعبة من انعدام الوزن، اختلط فيها الشعور بالرهبة والرغبة الجامحة في ممارسة الجنس مع الخوف من ارتكاب خطيئة كبيرة تغضب الله. وبينما كانت رعشة الاضطراب تستولي على جسده وتهزه كما تهز الرياح خيمته البالية، كان الدوار يستولي على رأسه، ويتسلل الخوف إلى قلبه، ويتصبب العرق من جبينه. هم عدنان بالتجاوب مع نداء الحورية أكثر من مرة رغم المخاوف الا أن عيون الحسناوات التي كانت تتجسس عليهما، حرمتهما من خصوصية اللحظة، وحالت بالتالي دون قيام الشهوة بإعادة تركيب كيمياء الجسد على هواها، وبالشكل الذي يمكنها من إشباع الغريزة الكامنة في اللاوعي. لم يتخيل

عدنان أن بإمكانه خلع ملابسه تحت أضواء مجهر إنساني له ثمانية عيون ثاقبة، ومضاجعة امرأة تراقبها ثلاثة نساء أخريات تتلوى أجسادهن شهوة، وتلمع عيونهن شبقًا.

حاول عدنان أن يغمض عينيه كي لا تعانق عيون الحسناوات الجائعة، لكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً.. إذ كلما هم بتقبيل حوريته، أو حاول مداعبة نهديها، أو تمرير يده على مكامن الجنس والإثارة في جسدها، وجد نفسه، وبلا وعي أو إرادة، ينظر في الاتجاه الآخر، حيث تتواجد الحسناوات المتلهفات لمشاهدة بقية المسرحية والتفاعل معها.. يغلبه الخجل والاضطراب، يرتبك، ويتراجع. لم يكن عدنان، ذلك الشاب البسيط يعرف أن غالبية النساء تروقها كثيرًا مشاهدة غيرها من النساء تمارس الجنس بشهوة وعنفوان، وتتلوى أجسادهم من آلام المتعة، وتتعالى آهاتهن طالبة المزيد. إذ يجد البعض من النساء في ذلك مزيدًا من أسباب الإغراء والإثارة والتهيج، وقصة تحكى وتختزن في زوايا الذاكرة، تُسترجع كلما هبت رياح الشوق وطالت سنوات الحنين.

وحين فقدت الحورية صبرها، وفشل عدنان في اتخاذ الخطوة الأولى، قامت بجذبه إليها، وضمه إلى صدرها بقوة. وما أن لامست شفتاه شفتيها حتى سمع آهات عميقة تتردد وتعلو على شاطئ البحيرة.. التفت عدنان دون وعي إلى مصدر الآهات، رأى الحسناوات وقد خرجن من الماء شبه عاريات.. أدار وجهه إلى الناحية الأخرى في محاولة لتجنب نظراتهن، فإذا به يلحظ صابر وقد أدار وجهه نحو

الشمال، وخطى أولى خطواته على الطريق إلى وادي الظبيان. ارتبك عدنان وهمس بصوت مسموع: الحمار.. الحمار، ثم انتفض واقفًا على قدميه، وهمّ بالجري وراء صابر والإمساك به. استوقفته الحورية، ربتت على كتفه، ثم صاحت بحزم موجهة نداءها للحمار: صابر.. صابر.. وحين سمع صابر النداء تجمد في مكانه، لم يتحرك قيد أنملة، وهز رأسه، كأنه يقول سمعًا وطاعة سيدتي الجميلة.

صُعق عدنان حين رأى صابر يتجمد في مكانه.. طأطأ رأسه وقال في سره: يا إلهي.. إنها تعرف صابر حق المعرفة، وصابر يعرفها ويصغي إليها، بل يبدو عليه وكأنه يعبدها. من هي هذه المرأة الفاتنة؟ هذه الحورية الساحرة؟ أنقذني يا إلهي.. هل ما أشعر به حلم أم حقيقة؟ وحين لم يسمع جوابًا، خطى عدنان خطوته الأولى في اتجاه صابر، دون أن يقول لحوريته كلمة واحدة، تركها وترك القبلة التي كان يحول اقتطافها معلقة بحبال الشهوة والحنين إلا أن الحورية لم تتركه وحاله، إذ استوقفته ثانية وقد تغير لونها، وفقدت هدوءها واستسلامها اللامتناهي لنداء الجسد والشهوة. وبعيون تتقد غضبًا، خاطبت الحورية عدنان قائلة:

- آه يا صديق.. كنت أحسبك أستاذًا ماهرًا، لكنك خيبت ظني وأملي كثيرًا.. الأستاذ الماهر لا يفشل في الامتحان.. لكنك، وللأسف الشديد، فشلت في الامتحان الأول على الرغم من بساطته وحلو مذاقه.. الإنسان الذي يفشل في الامتحان الأول يصعب عليه النجاح فيما بعد، لأن الفشل شبح مخيف يلاحق المتعثرين طيلة حياتهم، يسرق منهم

الثقة بالنفس، وأحيانًا النوم، ولا يسمح لهم بالانتصار إلا نادرًا، وبعد جهد جهيد، ووقت قد يطول كثيرًا. أرجو أن تتغلب على هذه التجربة القاسية بسرعة، وأن تنجح في الامتحان في المرة القادمة.. سأعطيك فرصة ثانية وأخيرة.. سأنتظرك هنا في السادسة مساء.. لا تتأخر.
وبعد أن ربتت على كتفه ثانية، استأنفت الكلام قائلة: أترى الحمار الجالس هناك على شاطئ البحيرة.. إنه حماري، أم صابر.. ألم تسمعها تستقبل صابر بالزغاريد؟ ألم ترى صابر يقبلها ويهمس في أذنها مُطَمْئِنًا لها ومُطْمَئِنًا عليها؟ لقد ربيت صابر على يدي.. إنه أعز مخلوق عندي بعد ابني الحسن.. أوصيك خيرًا بصابر وبالحسن يا أستاذ عدنان.. كلاهما لا يزال في مقتبل العمر، وبحاجة للعطف والحنان والرعاية.. رافقتك السلامة.. لا تتأخر..لا تنسى أننا على موعد هذا المساء.. في السادسة تمامًا.
كان صابر أثناء الوقت الذي أضاعه عدنان مذعورًا على ما يبدو بلا سبب، قد شرب حاجته من الماء، وأخذ قسطًا جيدًا من الراحة، وتسامر مع أمه التي استقبلته بالزغاريد، وطمأنها واطمأن عليها. كان صابر في تلك اللحظة على أهبة الاستعداد لمواصلة الرحلة إلى المحطة الأخرى، والقيام بواجبه وأداء المهمة الموكولة إليه، والتي ائتمنه الحسن عليها. ركب عدنان على ظهر صابر مطأطئ الرأس، وهمس في أذنه طالبًا منه متابعة السير نحو وادي الظبيان. وفي الطريق إلى موعد لا يعرف عنه شيئًا، ولا يدري ما يخبؤه له القدر فيه، أخذ عدنان يناجي نفسه، ويتحدث مع رفيق دربه الذي ظل صامتًا

طوال الرحلة، مصغيا لحماقات وتخريفات سيده حتى وصلا إلى واحة الظبيان. قال عدنان موجهًا كلامه لصابر:

- لقد سنحت لي الفرصة يا رفيقي كي أحرر نفسي من الكبت الذي تعانيه، وأنقذ روحي من قيود التقاليد البالية التي تكبلها وتكاد أن تخنقها، واسمح لغريزتي كي تمارس حقها في الكشف عن ذاتها، ولروحي كي تعيش لحظة متعة بلا قيود أو شروط، وأُخلِص عالمي الصغير لساعة من المجتمع المتحجر الذي يحيط به ويكبت كل ما فيه من أحاسيس جميلة، لكنني فشلت.. يجب علي أن أعترف بالفشل، اعترف أمام نفسي قبل أن اعترف أمام الآخرين.. إنني فشلت في المعركة قبل أن أخوض غمارها، خسرت الحرب دون دخولها. كان أستاذي أبو ربيع، يا صابر، يقول إن التحدي الأكبر الذي يواجه الإنسان في حياته هو التحدي مع الذات.. الاعتراف بالفشل عندما يقع الفشل، والاعتراف بالخطأ حين يحدث الخطأ، والاعتراف بتقادم الفكر حين تتغير الأحوال وتغدو حكمة الماضي مخلفات أزمنة بائدة، والإقرار بالحاجة لتجاوز المعتقدات الراسخة حين يدحضها العلم وتعريها التجربة. إن تحقيق النصر في معركة التحدي مع الذات، يجعل من السهل على الإنسان تحقيق النصر في مواجهة تحديات الحياة، أما الفشل أمام تحدي الذات، فمن طبيعته أن يجعل تجاوز تحديات الحياة أمرًا في غاية الصعوبة. لذلك قررت أن أعترف بالفشل، وأنت شاهد على ذلك يا صابر.. إنني اعترف بالسماح للتقاليد العقيمة كي تواصل كبتي، وبالسكوت على قيم مجتمع بدائي يمارس الظلم والقهر ضدي،

وبالجهل بـأمور كـان علـيّ أن أعرفهـا وأفكـر بهـا جيـدًا قبـل مواجهتهـا على حين غرة.

لقد فعلت، يا رفيقي، ما فعلته الجيوش العربية في عـام ١٩٤٨، عنـدما هُزمت في الحرب قبل أن تخوض معركتهـا مـع العدو الصـهيونـي. لكـن، وخلافًـا لمـا أفعـل اليـوم أمامـك، لا قـادة الجيـوش العربيـة، ولا زعمـاء الأمة العربية اعترفوا بالهزيمة والفشل. بل علـى العكس مـن ذلـك، لقد ادعـى بعـض الزعمـاء العـرب أن إسـرائيل لـم تحقـق هـدفها فـي مـد سيطرتها "من النيل إلى الفرات"، وبالتالي فشلت في حربهـا. إن نجـاح إسرائيل فـي احـتلال مـا يزيـد علـى ثلاثـة أربـاع فلسـطين لـم يكـن، مـن وجهـة نظـر أنظمـة الكبـت والتخلـف العربيـة، نصـرًا يهوديًـا أو هزيمـة عربية.. أي منطق هذا يا صـديقي، وأي معتـوه يصـدق هـذا الكـلام؟ لقد استخدم زعماؤنـا الإعـلام لتحويـل الهزيمـة الشـنعاء إلـى نصـر وهمـي، وأقنعـوا أنفسـهم بـذلك، واسـتمرؤوا التسـلط وكبـت الجمـاهير وإذلالهـا. وكـي يُغطـوا سـماء الهزيمـة بعبـاءة بدويـة باليـة كتلـك التـي ترقـد فـي خيمتي البائسة، أطلقوا اسم "النكبة" على ما حدث في ذلك العـام، دون تحديد هوية المسؤولين عنهـا، وبالتـالي دون مسـاءلتهم، وكـأن تشـريد الشـعب الفلسـطيني، وهزيمـة الجيـوش العربيـة، وإهانـة كرامـة الأمـة العربية، هي من صنع الخالق الذي لا تجوز مساءلته.

وهنا سكت عدنـان عن الحديث، وكأنـه كان ينتظر تعليقًا من رفيـق دربـه صابر المثابر. لكن صابر كان على ما يبدو قد فوجئ بمـا قالـه عدنـان، ولذلك لم يجد لديـه الكلمـات المناسبة ليقولهـا، ولـذا اكتفـى بهـز رأسـه.

ربت عدنان على رقبة صابر، يشكره على تفهمه وصبره، ومن ثم تابع الحديث، قائلاً:

- بعد وقوع الهزيمة الشنعاء، واتضاح عمق الجراح التي تركتها في نفوس الشعوب العربية، قام بعض الضباط الذين قادوا الجيوش المهزومة بالاستيلاء على السلطة، وذلك تحت شعار حماية الوطن والأمة من الاستعمار والغزو الثقافي، ودرء خطر الأفكار المستوردة، والحيلولة دون قيام المشاغبين "والعملاء" من المثقفين بتشويش عقول الجماهير والشباب وقيادتهم إلى الثورة على التراث وأولي الأمر منهم. ولقد تبع ذلك، تضييق الخناق على الفكر التحرري والوحدوي بوجه عام، واضطهاد المثقفين، وكبت المفكرين بوجه خاص، والعمل على تكريس كل مظاهر الهزيمة على الأرض وفي أعماق النفس العربية. هل تعرف يا صابر أن تكريس التخلف هو الذي يضطرني اليوم إلى الركوب فوق ظهرك؟ فلو أننا انتصرنا وتحررنا من الاستعمار الخارجي والداخلي، وذلك كما فعلت اليابان مثلا، لكنا حققنا الكثير من التقدم العلمي والتكنولوجي والرفاهية الاقتصادية، ولكنت اركب اليوم سيارة خاصة، وربما سيارة نقل صغيرة أسوقها بنفسي، وتركب أنت في الخلف، تجلس مرتاحًا، وتتمتع بالمناظر الخلابة وعطر النسيم على طول طريق جميل تحفه أشجار النخيل ويدغدغه عطر البرتقال، بينما نسير بسرعة البرق إلى حيث نريد، وتهوى أنفسنا.

انتحار راضي

- تصور، يا صابر، أن صديقًا مخلصًا أثق فيما يقوله، اسمه الشيخ لطفي، أخبرني أنه كان لجارهم في أريحا حمار رائع ومخلص مثلك، اسمه راضي، يعتز بكرامته ويتحمل مسؤولياته بأمانة، رفض القبول بالهزيمة وتبعاتها الظالمة. لذلك قاوم راضي فكرة الاستسلام بعناد شديد.. رفض أوامر المحتلين وأوامر المتعاونين معهم على السواء. ولكن حين رأى بعينيه القادة العسكريين يستسلمون للعدو الواحد تلو الآخر، وشاهد الانتهازيين يتراكضون على تقبيل يد أمريكا بشكل مذل ومهين في السنوات التالية، اكتشف راضي أنه لم يعد يحتل أدنى المراتب في المجتمع كما كان عليه الحال في الماضي. كان الكثيرون من الناس قد أصبحوا دون مستواه، يعيشون في مرتبة مجتمعية ذليلة أدنى من مرتبة حمار عادي في بلاد العرب العتيدة. لذلك قرر راضي عدم التنازل عن كرامته مثلهم، وعدم القبول بالذل والمهانة والعيش حياة غير حياته في مرتبة مجتمعية غير مرتبته، وهي المرتبة التي حرص على الاحتفاظ بها عبر تاريخ طويل من الصبر والعناد والشقاء في دنيا العرب. لذلك قرر راضي أن ينتحر ويموت بكرامته. أما الذين كانوا يتباهون بالنجوم تثقل أكتافهم، ويتفاخرون بالأوسمة تغطي صدورهم، فبدلاً من الاعتراف بالهزيمة والتنازل عن مواقعهم

السلطوية، وترك زمام القيادة لغيرهم، قاموا بالاستيلاء على الحكم، وكبت الحريات العامة، وتشويه الثقافة، واستغلال الفقراء والضعفاء، وسرقة أموال الشعب، والتصالح مع العدو.

بعد توقيع اتفاقيات الهدنة مع العدو الصهيوني، وشيوع النبأ في البلاد العربية، وعدم تحرك الجماهير للوقوف ضدها، سمع الشيخ لطفي في إحدى الليالي حمار جارهم راضي يضرب الأرض بقدمه بشدة. حاول الشيخ لطفي، بحكم الجوار والعيش والملح بينه وبين جيرانه، مساعدة راضي في محنته.. قام من فراشه، ذهب إلى حيث كان يقف راضي غاضبًا، ربت على ظهره بحنان، هدأ من روعه قليلا، ثم نقله إلى مكان آخر أكثر أمنًا، وذلك على أمل أن يُخلصه مما كان يُضايقه من خيالات وأشباح. لكن راضي واصل ضرب الأرض بقدمه بعد دقائق، وفي صباح اليوم التالي وجدوه ميتًا. كان شريان قدمه اليمنى قد انقطع، نزف راضي حتى مات.. انتحر راضي. حزن الشيخ لطفي على موت راضي، سار في جنازته مهمومًا، وساهم في تشييع جثمان الفقيد إلى مثواه الأخير، وساعد في دفنه في حديقة البيت، بينما كانت الدموع تتساقط في عينيه حسرة على حال أمة فقدت كرامتها، ولم تجد من يذكرها بتلك الكرامة سوى حمارًا شهمًا من حميرها.

يا صديقي ورفيق دربي العزيز، أرجوك ألا تفعل مثل ما فعل راضي، أرجوك ألا تنتحر.. إن انتحارك يا صابر، فيما لو قررت أن تنتحر، سوف يتركني وحيدًا في هذه الصحراء القاحلة بلا رفيق يشاركني معاناة السفر، ويصغي لخرافاتي التي أعرف أنها لا تعني شيئًا لك،

لكنها سلوتي الوحيدة في غياب الأهل والأصدقاء.. إنها قناة التواصل مع الماضي والذكريات، وفضاء التفكر في أمر المستقبل. تذكر يا صديقي أن غلطتي ليست بحجم خطايا قادة أمتنا السياسيين والعسكريين الذين هُزموا وهزمونا معهم.. تذكر أيضًا أن الأوضاع المعيشية في ربوع بلادنا هذه الأيام أصبحت أفضل بكثير مما كانت عليه في الماضي حين انتحر راضي.. أنا أعرف شعورك يا صابر.. قد تقول إن راضي انتحر احتجاجًا على أوضاع الحريات المخزية في بلادنا وليس على الأوضاع المعيشية فقط، وبسبب فقدان الكرامة والشهامة بين شعوبنا، وليس بسبب فقدان الشعير أو البرسيم مثلاً. نعم، لقد انتحر راضي كما أخبرني الشيخ لطفي، لأن الكثير من الناس غدت أحط مكانة منه بعد سكوتهم على الهزيمة واتجاههم أفرادًا وجماعات وقيادات إلى مهادنة العدو الصهيوني الذي احتل أجزاء غالية ومساحات واسعة من وطننا العزيز. هذا صحيح يا صديقي.. إنني احترم راضي وأقدر موقفه وشهامته، لكن يجب على الإنسان، يا صابر، أن يضحي من أجل أصدقائه.

آسف يا صابر.. إنني آسف جدًا، أنا اعرف أنك لست إنسانًا، وإن كان لك ولبني جنسك من الحمير مشاعر فياضة قد تتفوق على مشاعر الكثير من الناس.. لكنهم علمونا أن نتكلم عن الإنسان فقط، وكأن مشاعر كافة المخلوقات الأخرى لا تعني شيئًا. لا تنس أيضًا يا صديقي ورفيق دربي العزيز أننا، بني البشر، موعودون بحياة دائمة بعد أن تنتهي الحياة على هذه الأرض، ومع ذلك قلما ينتحر إنسان منا

انتصـارًا لكرامــة، أو فـداء لقضـية، أو مـن أجـل الوصـول إلـى الجنــة الموعودة بسرعة. أما بالنسبة لكم بنـي الحيوان، فيبدو أن هذه الحياة هي كل ما وهبكم الله.. قد يبدو هذا غريبًا وغير عادل، لكن حكم الله لا جدال فيـه.. هكذا علمونـا يـا صـابر.. لـذا عليـك يـا صـديقي أن تعيش حياتـك كاملـة وتتمتـع بهـا، وأن لا تتركنـي وحـدي بـلا رفيـق، فالـدرب أمامي طويل وشاق، ورحلـة الحيـاة فـي السـعودية بـدونك ستكون أكثـر معاناة ومشقة.

دعني اقترح عليك فكرة جميلة، بـل رائعـة.. فكـرة جهنميـة خطـرت الآن على بالي ونحن نتكلم عن إسرائيل وأمريكا.. دعني اقتـرح عليك تنظيم مظـاهرة صـاخبة للحمير أمـام السـفارة الأمريكيـة فـي كـل عاصـمة مـن عواصـم الـدول العربيـة، تطـالبون فيهـا بفـتح بـاب الهجـرة للحميـر إلـى أمريكا أسوة باليهود، فكلاكما، بني الحمير وبني اليهود، وقعتم ضحايا جهل وظلم وعنصرية الغيـر.. إننـي متأكد يـا صـابر أن أعضـاء الحـزب الـديمقراطي فـي الكـونجرس الأمريكـي بالـذات سـوف يتحمسـون جـدًا لفكرة هجرة الحمير إلى بلادهم، فالحمـار شـعار حزبهم، وربمـا قـام كـل سينـاتور ديمقراطي بتبنـي قضـية حمـار مـنكم، واحتضـانـه بعـد الهجـرة ورعايتـه، وربمـا استضـافه فـي بيتـه أو فـي مزرعتـه ريثمـا يجـد عمـلاً ومكانًـا آمنًـا يعيش فيـه.. إن غالبيـة أولئـك الأعضـاء المبجلـين، وكافـة زملاؤهـم مــن الجمهـوريين، يبــدو وكــأنهم يســتلهمون آرائهــم مــن عبقريتكم الفذة فـي العنـاد، ويستمدون مشـاعرهم الفياضـة مـن بلادتكـم التـي لا حـدود لهـا، ويتعلمـون أصـول التخطـيط والتنفيـذ فـي النـواحي

السياسية وغير السياسية، من بحور علومكم المتعلقة بأمور الصحراء واقتفاء آثار الغير من الحمير والبغال.

لكن أريدك يا صديقي ورفيق دربي أن تعدني بشيء مهم للغاية بالنسبة للبشرية.. تعدني بأنكم حين تسيطرون على صنع القرار السياسي في أمريكا كما يسيطر عليه اليهود اليوم، سوف توظفون طاقتكم وعقولكم الجبارة لإعادة أمريكا إلى رشدها.. إعادتها إلى مبادئ دستورها العظيم وأخلاقيات ومُثل آبائها المؤسسين، وأنكم لن تتركوها على حالها، مؤسسة قهر وعنجهية تستخدم جيوشها واقتصادها وعلماءها والأبرياء من أبنائها آلة حرب ودمار لاستغلال الآخرين وقهرهم، وحرمان المظلومين والبؤساء من حقوقهم السياسية والإنسانية، والانتصار لجرائم الظالمين على حساب المظلومين، وغرس بذور الكراهية والتفرقة بين شعوب الأرض.

إنني متأكد يا صابر أنه لو نجحت فكرة فتح باب الهجرة لبني الحمير لأمريكا، فلن يمر وقت طويل قبل أن يصل أحدكم إلى البيت الأبيض، مستشارًا للأمن القومي مثلاً، أو مديرًا لجهاز الاستخبارات الأمريكية، أو وزيرًا للخارجية، أو حتى رئيسًا لأمريكا.. رئيسًا لأعظم دولة عرفها التاريخ.. لن يكون ذلك بالتأكيد في حياتك، فمثل هذه الأمور المعقدة تحتاج لوقت قد يطول يا صديق، خاصة وأن أمريكا لا تزال تعاني من التفرقة العنصرية ضد السود وغيرهم من أقليات، لكنه قد يحدث في حياة أبنائك أو أحفادك.. ومن يدري يا صابر، قد يصبح ابنك هو الحمار الأول الذي يدخل البيت الأبيض وزيرًا أو رئيسًا، ويلقبونه

صابر "الابن". لكن عليك يا صابر، أن تنصح أبنائك وتحذرهم بشدة من مغبة العنفصة، لأنهم إذا فعلوا ذلك، فإن النتيجة ستكون كارثية بالنسبة لأمريكا نفسها، وبالنسبة لكم بني الحمير عامة، وبالنسبة للبشرية جمعاء.

كما أريدك، يا صديقي العزيز، أن تعدني بشيء آخر مهم بالنسبة لنا بني العرب.. تعدني بأن جماهيركم المظفرة سوف تسمح لي بقيادة هذه المظاهرة التاريخية.. إنني أريد أن اثبت لكل المخلوقات والشعوب في كل مكان من هذه المعمورة أن بإمكان عربي بسيط مثلي قيادة مظاهرة جماهيرية للحمير، وذلك كما تقود الحمير مظاهرات الجماهير العربية.. تصور يا صابر حجم التغطية الإعلامية الكونية حين يضطر السفير الأمريكي للخروج من مكتبه لمخاطبة جماهير الحمير المحتشدة أمامه، وتقديم الوعود لهم برفع مطالبهم ومظالمهم لدولته العادلة.. تصور يا صابر مدى وعمق الدهشة على وجوه عشرات الملايين من مشاهدي التلفزيون في العالم ومئات الملايين من مستمعي الراديو حين يسمعون أصواتكم تنطلق في نهيق واحد يهز أركان المعمورة، وحين يشاهدوا حشودكم المظفرة تقتحم ضمير البشرية بقيادة عربي بسيط، لا يملك مالاً ولا جاهًا، ولا يسيطر على جيوش أو أجهزة مخابرات، ولا يعمل لحساب عدو.. سيكون ذلك حدثًا تاريخيًا عظيمًا دون أدنى شك.

وادي الظبيان

وصل صابر المثابر سوق قرية وادي الظبيان في حوالي العاشرة والنصف صباحًا. لم يكن من الصعب على عدنان التعرف على المكان الذي يقع فيه مقهى أبو أحمد، فالقرية صغيرة، والسوق يقع بجوار المدرسة، والمقهى يحاذيها تمامًا، وسيارات وحمير رواد المقهى تصطف على جانبي الشارع أمامه. دخل عدنان المقهى، يرسم على وجهه ابتسامة عريضة، تلُفُها سحابة حزن حائرة لا تدري أين تختبئ. استقبله أبو أحمد بالترحاب، أخذه بالأحضان، وقدمه لكل من كان قد وصل حتى تلك الساعة من الزوار والأصدقاء. ولم تمضي دقائق معدودة على وصول عدنان حتى كان المقهى يعج بالرواد.

كان ذلك اليوم حدثًا تاريخيًا في حياة المقهى، إذ كانت أم أحمد قد أقنعت زوجها مجددًا بإعداد وجبة طعام ساخنة وشعبية من التراث الفلسطيني لرواد المقهى كل يوم جمعة، وتقديمها للزبائن بسعر التكلفة. كانت أم أحمد تشعر مع المغتربين، تعرف شوقهم إلى صديق يخفف عنهم معاناة الشتات، وتدرك حاجتهم إلى بيت وأهل ووجبة طعام جيدة بين الحين والآخر. كان الغداء في يومه الأول قصة نجاح باهرة.. مقلوبة بالباذنجان، وسلطة طازجة بالطحينة، ومهلبية بعد الغداء. كانت فكرة وجبة الغداء الساخنة فكرة ثورية بحد ذاتها، أغرت

العشرات من الرواد القدامى والجدد بزيارة المقهى في ذلك اليوم، وفي كل يوم جمعة بعد ذلك، وبالتالي عززت دور المقهى الثقافي والترفيهي والاجتماعي والإنساني.

تعرف عدنان في ذلك اليوم على عدة أشخاص من أمثاله من المدرسين والموظفين والأطباء والمهندسين الذين جاؤوا إلى السعودية بحثًا عن عمل، وطمعًا في تحقيق دخل جيد لا يتوفر في بلادهم، والإسهام في تنمية جزء من وطنهم العربي الأكبر. كان السفر إلى السعودية هي رحلة عدنان الأولى خارج الأردن وفلسطين، وكان اللقاء بذلك العدد الكبير من المغتربين العرب تجربة جديدة ومثيرة بالنسبة له. جاء المغتربون اللذين التقى عدنان بهم من مصر، وسورية، والعراق، ولبنان، واليمن، وحتى من السودان والصومال.. بلاد كان يسمع بها كثيرًا، ولا يعرف عنها إلا قليلاً. أُعجب عدنان بخفة دم المصري وقدرته على حفظ وسرد النكات السياسية، وجمال صوت السوداني يردد ألحانًا كلها حنين للوطن، وجدية العراقي حين يتكلم في السياسة، وشطارة السوري حين يتكلم في التجارة. إلا أن المهندس جبران القادم من لبنان كان أكثر من سعد عدنان بلقائهم وارتاح إليهم.. كان جبران يسافر إلى لبنان مرة كل شهر تقريبًا، وهذا أفرح عدنان الذي يتوق إلى قراءة بعض الكتب غير المتوفرة في السعودية. وبعد تبادل الحديث مع العديد من الزوار، اكتشف عدنان أن أوضاعه في مضارب بني هاجر لم تكن هي الأسوأ.

بينما كان الرواد يمارسون نشاطات اجتماعية مختلفة، وقد توزعوا إلى مجموعات صغيرة، كان أبو أحمد يتنقل بين زواره، يقدم لهم الشاي والقهوة، يمازح هذا ويشارك ذاك نكتة، ويسأل زواره عن أحوالهم وأحوال من غاب من الأصدقاء في ذلك اليوم ولم تسعفه ظروفه للحضور. كان صياح الرواد يختلط بالضحكات المثيرة والآهات العميقة.. كانت المقهى مكانًا لتحرير الذات من كبت المجتمع المحيط بها، ونسيان عذابات العمل وأشواق الغربة.. وهذا جعل التجمع في المقهى مناسبة للعودة لأيام الطفولة، حيث تسقط المحظورات باسم البراءة، وتُمارس الممنوعات باسم شقاوة الطفولة، وتهدم قلاع التقاليد باسم اللعب على شاطئ الذكريات. عاش عدنان يومًا جميلاً أنساه ألم ضياع فرصة الصباح، لكن موعد المساء بقي هاجسه الأهم، وشغله الشاغل طوال ذلك اليوم.

ومع تقادم النهار، بدا عدنان مضطربًا، لا يدري ماذا يقول أو يفعل. إن عمق الفشل الذي لحق به في الصباح على شاطئ واحة الغزلان، جعل الخوف يعتريه.. الخوف من الفشل مرة ثانية إذا التقى حوريته في المساء مع رفيقاتها، والخوف من احتمال أن يلاحقه التعثر لسنوات قادمة تُفقده الثقة بالنفس، كما قالت له أسماء. كان يتمنى انقضاء النهار بسرعة، والعودة إلى خيمته.. يتمنى إعادة عقارب الساعة عشر ساعات إلى الوراء، ونسيان كل ما حدث في الصباح. شعور غريب انتابه فجأة، جعله يتساءل بألم وحسرة، هل من الممكن أن

يكون تفويت الموعد في المساء أقل ألمًا من الفشل في إثبات الرجولة ثانية؟

في حوالي الرابعة بعد الظهر، بدأ المهندس جبران بتوديع الأصدقاء والزملاء استعدادًا للرحيل. وحين جاء دور عدنان، مال على صديقه هامسًا:

- هل يمكنني أن اطلب منك خدمة بسيطة، لكنها عظيمة بالنسبة لي، تؤديها أثناء زيارتك القادمة لبيروت؟

- بكل تأكيد.. كلنا أهل في الغربة يا عدنان، والأهل لا يكونوا حقًا أهلا وأصدقاء إلا بتعاونهم. ماذا تريد من بيروت؟ فتاة جميلة، أم أغنية جديدة لفيروز أو لوديع الصافي؟ أأمرني.. كل بيروت على حسابك.

- عفوًا يا صديقي.. كم كنت أتمنى أن أرافقك في رحلتك إلى بيروت.. أن احضر حفلة من حفلات فيروز أو وديع الصافي، لكن كما تعلم، لا أستطيع مغادرة هذا المكان.. على الأقل، لم يحن الوقت بعد. لكنني أريدك أن تشتري لي عددًا من الكتب.. أكبر عدد يمكنك أن تحمله معك دون أن يشكل عبئًا عليك.. كتبًا في التاريخ والسياسة، وما تيسر من القصص والروايات، دواوين شعر، وما شابه ذلك.

- هذا طلب متواضع يا عدنان.. دعني أقول لك أن حظك ممتاز وتوقيت الطلب جيد، سأسافر إلى بيروت بعد أسبوع، وسأقضي هناك أسبوعين.. سأحضر لك كل ما طلبت وأكثر.

- شكرًا يا صديقي.. إنني حقًا سعيد بالتعرف عليك، وأتمنى أن تستمر الصداقة بيننا طويلاً، وأن نلتقي في القريب العاجل في فلسطين.. تمنياتي القلبية برحلة موفقة وممتعة.

- أتمنى زيارة فلسطين والقدس من كل قلبي.. لكن التمنيات هي أحلام بعيدة المنال.. لذا دعنا نفكر فيما يمكن لنا أن نفعله اليوم.. في كيفية العيش هنا دون ملل، ودون أن يحطم الإحباط معنوياتنا. إنني أشعر أنه بدون يوم كهذا بين الحين والآخر، من الممكن أن تتحطم معنوياتنا في أسابيع، ونشيخ في أشهر، ونموت في غضون سنوات قليلة، ونغدو ذكرى لا تعمر طويلاً.

همّ عدنان بمصاحبة جبران حين خرج من المقهى، والعودة إلى مضارب بني هاجر، إلا أن أبو أحمد استوقفه قبل أن يخرج من الباب قائلاً:

- أريدك أن تزورنا في البيت، سنذهب بعد أن يغادر آخر الرواد المقهى إلى المنزل.. إن أم أحمد متشوقة للتعرف عليك، وقد أعدت لنا كنافة نابلسية، من صنع يديها طبعًا.. إنها تريد أن تتحدث مع رجل آخر غير زوجها تشم فيه رائحة الأهل والوطن.

لم يكن بإمكان عدنان أن يرفض دعوة كهذه، بينما كان مجرد التفكير في احتمال التخلف عن موعد المساء يقلقه كثيرًا، ويدخله في دوامة من التفكير الذي لا يفضي إلى شيء. وهنا تساءل عدنان عما إذا كانت الدعوة قد جاءت في حينها لتنقذه من موعد يهاب مواجهته، لا يعرف كيف سيبدأ، ولا كيف سينتهي.

تعرف عدنان في عصر ذلك اليوم على أم أحمد، الزوجة المخلصة التي تعرف كيف تعامل زوجها بود ومحبة، وكيف تقف إلى جانبه وتسانده وترفع من معنوياته كلما تعرض لأزمة.. المرأة التي تتمتع بثقة عالية بالنفس، وإحساس مرهف يجعلها تشعر مع غيرها من الناس الذين يمرون بظروف تشبه ظروفها. ومنذ لحظة دخولها باب غرفة الجلوس، أحس عدنان برهبة، وكأنه وجد نفسه صدفة في مكان مهيب.. واحة خضراء تحيط بها جبال شاهقة ويلفها السكون.. كانت أم أحمد امرأة ناضجة بكل ما تعنيه تلك الكلمة من معنى.. نضوج أنثوي وفكري، كما كانت تتمتع بشخصية قوية وجاذبية طاغية لم يكن من السهل تحديد منبعها. لاحظ عدنان أيضًا أن أم أحمد كانت حاملاً، وأن الجنين كان على ما يبدو في شهره السابع أو الثامن.

- أهلا بك يا أخ عدنان في بيتنا المتواضع، قالت أم أحمد.. أتمنى أن تكون زيارتك هذه هي الأولى وليست الأخيرة، كما أتمنى أن تكون وجبة الغداء قد أعجبتك. أنا اعرف أنكم في منطقة جنين تحسنون إعداد طبق المسخن وتحبونه كثيرًا، لكن نحن أبناء منطقة الساحل الفلسطيني، ومنطقة يافا بالتحديد، نحب الخضروات أكثر من اللحوم، ولذا نعتز بطبق المقلوبة، ونعتبره طبقنا المفضل.

- شكرًا لك يا أم أحمد، وشكرًا لزوجك العزيز.. إن زيارتي لبيتكم هو شرف كبير لي.. إنها لفتة كريمة من عائلة من أهل الكرم والشهامة والنخوة.. إنني سعيد جدًا بهذه الزيارة وبهذه الصداقة والحفاوة.. سأكتب لأمي رسالة هذه الليلة أطمئنها على أحوالي.. ستكون سعيدة

جدًا حين تعلم أنني زرتكم في البيت، وأكلت عندكم طعامًا فلسطينيًا من إعداد امرأة جميلة وطباخة ماهرة.

- إن على أبو أحمد أن يجد من يساعده في المقهى بسرعة.. سأصبح قريبًا أمًا، وسيكون عليّ تخصيص جزء كبير من وقتي وفكري وحبي لطفلي.. أتمنى أن يكون ولدًا، لأن أبو أحمد يريد أن يأتي أحمد بسرعة كي يحقق لوالده أمنيته الغالية في حياته، وإن كنت في الحقيقة أرغب أن يكون القادم بنتًا.

- إن من المؤكد أن أحمد سيجعل والده ووالدته فخورين به، وسيجعل الجد سعيدًا جدًا، لأنه سيطمئن إلى وجود من سيحمل اسمه من بعده.. لكن هل لديكم فكرة عن جنس الجنين؟ عما إذا كان ذكرًا أم أنثى؟

- هذه أمور لا يعلم بها غير الله.. إنها من الغيبيات التي لا يعرفها البشر.. من الأسرار التي من المفروض أن تبقى سرًا حتى مجيء الطفل في اليوم المقدر له أن يولد فيه.

- نعم.. هذا ما علمونا إياه في المدرسة وفي البيت منذ الطفولة، لكنني قرأت أخيرًا في مجلة روز اليوسف المصرية خبرًا علميًا يقول بأن العلماء في أمريكا توصلوا حديثًا إلى اكتشاف علمي يستطيعون بواسطته التعرف على جنس الجنين بعد عدة أسابيع من الحمل، وأنه قد أصبح لديهم أجهزة لتصوير الجنين ورؤيته وهو في بطن أمه.

- لابد وأن تكون هذه مجرد إشاعة، هدفها تضخيم انجازات أمريكا العلمية.. إن مثل هذا الكلام يتناقض مع ما جاء في إرثنا الديني، قال أبو أحمد.. إن هناك حديث نبوي، على ما أظن، يحدد الأسرار التي

ليس باستطاعة الإنسان التوصل إلى معرفتها بثلاثة: ما في الأرحام، وأين ينزل الغيث، وفي أي أرض يموت الإنسان.

- نعم.. هذا صحيح يا زوجي العزيز، لكن الله أعطى الإنسان عقلاً ليفكر ويتعلم ويصنع ويبتكر ويكتشف أشياء جديدة.. ألم يقل القرآن الكريم مثلا "علم الإنسان ما لم يعلم".. مَنْ كان يصدق قبل سنوات أن الاتحاد السوفيتي سيطلق قمرًا صناعيًا يطوف حول الأرض، يقوده رجل فضاء، إنسان عادي مثلنا، ويقوم بتصوير معظم أرجاء المعمورة.. العلم يتقدم بسرعة مذهلة، وعلينا أن نتكيف معه ونستفيد منه ولا نشكك في قدراته على صنع ما يمكن أن يسمى اليوم معجزات.

- ما رأيك يا أم أحمد إذن في موقف بعض رجال الدين من علم الفضاء بالذات؟ سأل عدنان.. لقد سمعتِ بالتأكيد ما قاله الرئيس الأمريكي جون كنيدي من أن أمريكا ملتزمة بوضع إنسان على سطح القمر خلال عشرة سنوات.. طبعًا هناك من يشكك في هذا الكلام كثيرًا، بل إن مفتي إحدى الإمارات الخليجية أعتبر ذلك إلحادًا وأمرًا مستحيلاً لأن الله لن يسمح به، حتى وإن كان ممكنًا.

- لا أحد يعرف ماذا سيحصل في المستقبل، ولا كيف سيتصرف العرب حيال معجزات العلم القادمة، لكنني اعتقد أن التقدم العلمي سيستمر، ولن يتوقف أبدًا مهما فعلنا، وأنه سيشكل تحديًا كبيرًا للفكر العربي التراثي بوجه عام، وللفكر الديني، ولا أقول الدين بوجه خاص. إن على رجال الدين أن يتفهموا حقائق العصر، وأن يتابعوا علومه، وأن يستفيدوا منه في تطوير مفاهيمهم لدور الدين في المجتمع والحياة،

وألا يجعلـوا الـدين حجـر عثـرة فـي طريـق التقـدم والنهـوض.. إن مجتمعاتنا العربيـة فقدت حتى الآن حوالي خمسمائة سنة من التطور العلمـي والتحـول الثقـافي.. لقـد خـرج العـرب والمسـلمون عامـة مـن التـاريخ الحضـاري للإنسـانية منـذ خـروجهم مـن الأنـدلس فـي أواخـر القرن الخامس عشر.. تنازلوا عن موقعهم المتقدم طواعيـة، وذلك بعد مـا كـانوا يقـودون مسـيرة التطـور الحضـارية ويحـددون مسـاراتها ويشكلون محتوياتها.

- لكن هناك بوادر توحي برفض بعض رجـال الـدين من أصحاب النفوذ العديـد مـن النظريـات العلميـة ومـا ينبثـق عنهـا مـن أفكـار وتحـولات اجتماعية وثقافية، وهي مقاومة لا أعتقد أنها ستتوقف دون تـدخل مـن الدولة في اتجاه منح العلم والعلماء الحرية ليمارسوا نشاطاتهم العلميـة والفكرية، ويساعدوننا على فهم بعض أسرار الكون وقوانينـه المعقـدة، وكيفية الاستفادة منها لنحقق ما نصبو إليه من نـهوض وتطور.

- ممـا لا شك فيـه أن هنـاك معركـة قادمـة.. معركـة حاسمة، ليس فقط بالنسبة لمـا سنحققه كعرب ومسلمين من تقدم فـي مجـالات الاقتصـاد والصناعة وعلوم الفضاء والحيـاة، بـل وأيضًـا فـي مجـالات التحـرر مـن الاسـتعمار والاحـتلال الخـارجي، والـتخلص مـن الظلـم والكبـت الـداخلي الـذي تمارسـه أنظمـة الحكـم العربيـة. لـذا أعتقـد أن هنـاك احتمـالين لا ثالث لهمـا: إمـا أن ينتصر التزمت الديني، وبالتـالي يتراجـع العلـم كثيـرًا، ويُختصر دوره في الحياة المجتمعية بوجـه عـام، وتتصـاعد نتيجـة لـذلك عمليات الكبت والحجـر السياسـي والانـغلاق الفكـري والثقـافي. وإمـا أن

ينتصر المنطق العلمي والحقيقة العلمية على التزمت والخرافات الملفوفة بعباءة الدين والتراث، وبالتالي يتراجع دور الدين في الحياة العامة، خاصة في المجال الفكري والثقافي والسياسي. إذا انتصر التيار الأول، فإن التخلف سيستمر والتبعية ستتعمق والظلم سيسود والكبت سيتحول إلى حالة ذهنية تفتك بملكات الخلق والابتكار لدى الإنسان والمجتمع، أما إذا انتصر التيار الثاني، وأنا مع الأسف أشك في ذلك كثيرًا، فإنه سيكون بإمكاننا معاودة السير على طريق التقدم، وسيصبح بإمكاننا الإسهام بفاعلية وايجابية في تطور الحضارة الإنسانية. والآن دعونا نصلي من أجل العلم، ومن أجل أن يلهمنا الله طريق الصواب ويجنبنا ظلمات الجهل وعذابات البؤس والتخلف وتحكم الغير في مصائرنا.

ما كادت أم أحمد تنهي كلامها حتى سمع الجميع صوتًا نسائيًا يناديها، مما جعلها تغادر غرفة الجلوس بسرعة. جلب الصوت انتباه عدنان، إلا أنه سرعان ما عاد لتبادل الحديث مع أبو أحمد. وبينما كانا يتحدثان عن رواد المقهى وشخصيات بعضهم، لمح عدنان فتاة رائعة الجمال في طريقها من ساحة البيت إلى المطبخ وبيدها طبقًا كبيرًا.. كانت الفتاة في مقتبل العمر، ذات شعر أسود بلون الليل، وقوام أرشق من قوام غزال، وعينين واسعتان بلون الغسق، يشع النور منهما كأنه إشراقة شمس من خلف غابة لوز، وقد حول الشروق أغصانها وأزهارها إلى شموع تنير أرجاء المعمورة. ابتسمت الفتاة لعدنان حين التقت عيناها بعينيه ابتسامة مثيرة، تجاوب معها على خجل. لقد كان

عدنان على ما يبدو على موعد آخر مع القدر.. إذ لم يكن يحلم أن يرى عن قرب، وفي قرية وادي الظبيان فتاة بذلك الجمال والسحر الأخاذ.

وما أن اختفت الفتاة حتى بدأ عدنان يتساءل: من تكون هذه الفتاة الساحرة؟ هل هي أخت أم أحمد؟ أم أخت أبو أحمد؟ ربما كانت زوجة صديق لهم.. لكن لماذا أصرَ أبو أحمد على دعوته لزيارة البيت دون غيره من رواد المقهى؟ هل يبحثون لتلك الفتاة الجميلة عن عريس؟ أتمنى ذلك، قال لنفسه.. لكن التمنيات، كما قال جبران، ليست إلا أحلامًا بعيدة المنال.. سرح ذهنه ثواني لم تطل، لكن أبو أحمد لم يمهله كثيرًا كي يستعرض كل الاحتمالات الممكنة، ويتخيل كل التبعات المحتملة.

- إنها جميلة حقًا.. أليس كذلك يا عدنان؟ إنها ساحرة بكل ما للكلمة من معنى.. لكن نجمة، مع الأسف، متزوجة لأغنى رجال القرية مالاً، وأكثرهم جهلاً، وأشدهم بخلاً، وأوفرهم حماقة.. إنه رجل كبير السن، يعمل في التجارة، ولا يهتم بهذه الزهرة الجميلة التي كادت أن تذوي في بيته وبين يديه. لكن نجمة ليست فتاة جميلة فقط، بل امرأة في غاية الذكاء والوعي.. إن لها قصة مثيرة وغريبة في آن واحد.. مثيرة في غرابتها، وغريبة في إثارتها.. قصة إنسانية تُجسد عمق الألم والفرح معًا، الألم الدائم، والفرح العابر، الانتصار الحاسم على الجهل، واستمرار هيمنة الجهالة على المجتمع.

توقف أبو أحمد قليلاً ليلتقط أنفاسه، تنهد قليلاً قبل أن يستطرد في الحديث، إلا أن أم أحمد لم تعطه الفرصة لمواصلة الحديث، دخلت

عليهمـا تحمـل طبـق كنافـة سـاخن، بينمـا كانـت نجمـة تغطـي رأسـها ووجهها بعباءتها، وتغادر المنـزل متباطئـة الخطى، بعد أن ألقت نظرة أخيرة على الغرفة التي كان يجلس فيها أبو أحمد وضيفه، حيث تركت هناك ابتسامة مثيرة وأمرتها أن تتسلل إلى خيال عدنان وَتَسْكُنُه.

كانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف مساء حين بدأ عدنان رحلـة العودة إلـى مضـارب بنـي هـاجر.. كـان يعلـم أنـه سيحتاج إلـى سـاعة ونصف على الأقل كي يصل إلى واحة الغزلان. أخذ يتساءل من جديد، هل ستنتظرني أسماء حتى الثامنـة؟ ومـاذا سأقول لهـا؟ وكيـف سـأبدأ الحـديث معهـا؟ لقـد عجـزت عـن الاعتـذار فـي الصـباح، فهـل سـيكون بإمكاني الاعتذار في المساء؟ وهل ستقبل أعذاري؟ وفـي الطريـق إلـى البحيـرة كـاد أن يقسـو علـى صـديقه ورفيـق دربـه صـابر، وهـو ينهـره ويحثـه علـى الإسـراع.. لقـد أراد مـن صـابر أن يـركض، أن يطيـر إن أمكـن.. لكـن صـابر سـار كعادتـه بخطـوات ثابتـة وجـادة، غيـر متعثـرة، وغيـر متسـرعة، دون أن يعيـر توسـلات عـدنان وأوامـره الكثيـر مـن الاهتمام.

وصـل عـدنان واحـة الغـزلان ليجـد هنـاك عـددًا مـن الحيوانـات البريـة تـروي عطشـها فـي صـمت، وتأخـذ قسـطًا مـن الراحـة والمتعـة علـى ضفاف البحيرة، لكنه لم يرَ خيالاً لإنسان. تفقد أرجاء المكـان ركنًـا ركنًـا بحثًا عن ضالته، لكنه لم يجد لها أثرًا، ولم يشم لعطرها البدوي رائحـة. بـدأ الإحبـاط يتسـلل إلـى نفسـه رويـدًا رويـدًا، وخيبـة الأمـل تتـراكم فـي صـدره، والـدموع تنهمـر مـن عينيـه.. جلـس وحيـدًا لحظـات، بينمـا كـان

صابر، وقد روى عطشه، يأخذ قسطًا من الراحة.. لم يمهله عدنان.. استعجله.. وطوال الطريق إلى بني هاجر بقي عدنان صامتًا، عابسًا، وحزينًا. وحين ترجل أمام خيمته وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة ليلاً، وجد الحسن في انتظاره مبتسمًا، فرحًا بعودته سالمًا. قال الحسن لعدنان:

- لقد تأخرت يا أستاذ كثيرًا.. لقد قلقنا عليك.. ماذا حدث؟ أرجو أن يكون خيرًا.

طمأنه عدنان، لكنه بقي شارد الذهن طوال المساء. لم يكن الحسن يدري أن كلمة "قلقنا" سوف تكون سببًا في زيادة قلق عدنان، وغرقه في تساؤلات كثيرة وأوهام عميقة لأسابيع قادمة.

لم يفهم عدنان ما كان يعنيه الحسن حين قال قلقنا عليك.. هل يعني ذلك أن أمه أخبرته بأن عدنان تأخر عن موعده في المساء.. هل يعني أنها تسأل عنه، وأنها ستسامحه حين تراه في المرة القادمة، وأن عليه أن لا يقلق كثيرًا أو يفقد الأمل.. ومتى وكيف سيتم الاتصال فيما بينهما؟ أسئلة كثيرة، محيرة ومقلقة أربكت عدنان وشغلت باله. وعلى مدار عدة أسابيع، بقي عدنان يعيش حلم اللقاء المرتقب مع أم الحسن، يُؤول كل ما يسمعه من الحسن بالطريقة التي تطمئنه، وترضي غروره، وتعيد تأكيد رجولته.. لكن أسماء كانت قد توقفت منذ ذلك اليوم عن المرور أمام خيمته في المساء، وكأنها تقول له، انتهى كل شيء.. لقد أعطيتك فرصة كان يتمناها كل رجل، لكن رجولتك خانت، ولذا عليك أن تنسى ما حدث لأنه لن يتكرر.

حمل عدنان معه في رحلة العودة إلى مضارب بني هاجر بعض المقلوبة والحلوى التي كانت أم أحمد قد أصرت أن يحملها قبل مغادرة بيتهم. شارك الحسن بها في تلك الليلة، حيث تناولا طعام العشاء معًا. كان الحسن في حينه قد أصبح يقضي بعض الوقت في المساء مع أستاذه. ومع الأيام بدأ الحسن يقضي ما لا يقل عن ليلتين كل أسبوع مع عدنان في خيمته. وهذا أعطى عدنان فرصة ملامسة جسد الحسن، واحتضانه أحيانًا، وجعله كلما رأى فخذ الحسن يتذكر فخذ أمه، وكلما أمعن النظر في وجهه وعينيه وشفتيه، تخيل كل ما في أمه من أنوثة ومغريات. ومن حيث لا يدري، بدأت علاقة عدنان بالحسن تأخذ منحى جديدًا، يسيطر عليه الجنس، وتحركه الإثارة، وتقود عدنان رويدًا رويدًا إلى عالم مجهول، ومغامرة غير مأمونة العواقب.

عاد عدنان إلى مزاولة عمله كالمعتاد، إلا أن خيال أم الحسن، وابتسامة نجمة الساحرة لم تتركاه أبدًا، لا في الليل ولا في النهار. قال لنفسه سأنتصر يومًا ما.. سأنتظر حتى يجيء ذلك اليوم بفارغ الصبر، بل سأعمل جهدي ليأتي بسرعة.. سأضاجع الحورية بشغف منقطع النظير، وأشبع لها رغبتها.. سأعانق أجمل نساء وادي الظبيان، سأضمها إلى صدري بعنف، وسأقبلها قبلة تفرغ كل ما في قلبي من عشق للحياة، وما في عيني من شوق للحب، وما في صدري من آهات تائهة.. سأحرر جسدي المعذب والمتعب من كل ما يعانيه من كبت وحرمان.

بدأ عدنان يصحو في ساعة مبكرة من صباح كل يوم، يلبس بعض الملابس بسرعة، يركض حتى واحة الغزلان، يستحم فيها قبل وصول نساء وحمير بني هاجر وشابات وادي الظبيان. كان يستلقي على شاطئ البحيرة في مكان منزوي لا يراه فيه أحد، تظلله بعض الشجيرات، وذلك حتى السابعة، يستمتع باختلاس النظرات وسماع آهات وهمسات روادها من النساء، ثم يغادرها وقد ارتفعت شمس الصباح، ولكن قبل أن تشتد وطأة الحرارة. كان يأمل أن يصادف حورية البحيرة، أو ساحرة القرية يومًا ما، بل كان متأكدًا من أنه سيراهما عاجلاً أم آجلاً في مياه البحيرة عاريات، وعلى شُطآنها مستلقيات. وحين مرت أيام عديدة دون أن يصادفه الحظ، بدأت آماله في التلاشي، وتوقعاته تفقد بريقها، وبدأ الكسل والتكاسل يعود إليه من جديد. وهكذا أدرك عدنان إن الفرص الثمينة في حياة الإنسان قليلة، وقليلاً ما تتكرر، إذ يوجد دومًا من يقدرها ويقتنصها دون تأخير أو تردد، تاركًا للمترددين والجهلاء فرصة التحسر والندم.

وبينما واظب عدنان على زيارة واحة الغزلان مرتين في الأسبوع، والاستحمام في مياهها العذبة، جدول برنامجه الحياتي على أساس زيارة مقهى أبو أحمد مرة كل أسبوعين.. يسعد هناك بلقاء الأصدقاء، ويتحين الفرص لرؤية نجمة، أجمل نساء القرية. كان التجمع الأسبوعي في مقهى أبو أحمد عبارة عن مهرجان للفنون والأشعار والقصص في جو نقي لا تعكر صفوه عيون المخابرات، ولا تفسد روحه تشنجات المتزمتين.. جو يتيح للمكبوتين حرية التعبير عن

مشاعرهم، ويفتح لهم المجال للاستمتاع بوقت جميل في مكان لا مثيل له في البلاد العربية. إذ أن التواجد بعيدًا عن أنوف المخابرات وعيونها، وفي غياب التقاليد المجتمعية العقيمة، وفي جو يساعد على نسيان الارتباطات الوظيفية والعائلية مؤقتًا، يجعل من مقهى بسيط كمقهى أبو أحمد منتدى للفكر والثقافة، ومنتجعًا للحرية والانعتاق من المكبلات الاجتماعية وغير الاجتماعية، وفضاء واسعًا في بلاد يسودها الكبت، وتختنق فيها الحريات.

عاد عدنان إلى قرية وادي الظبيان بعد أسبوعين ليجد مقهى أبو عدنان أكثر اكتظاظًا بالرواد، وأكثر نشاطًا وحركة وحيوية عما رآه عليه في الرحلة السابقة، وهذا جعله يقرر أن يُعيد جدولة برنامجه لتكون الزيارة أسبوعية.. كل يوم جمعة. وبعد انصراف كافة الرواد، قام عدنان بمرافقة أبو أحمد إلى البيت، حيث كانت أم أحمد في انتظارهما وقد أعدت لهما نوعًا جديدًا من الحلوى.. بسبوسة، أو كما يسميها الفلسطينيون، نَمُورَه. لكن أم أحمد كانت متعبة في ذلك اليوم، ولم تكن بالتالي في وضع نفسي يسمح لها بمواصلة الحديث حول القضايا التي تم طرحها خلال لقائهم الأول.. كان الجنين في رحم أم أحمد على وشك الوصول. لذا، حين جاء موعد تناول الحلوى، كانت نجمة، وليست أم أحمد، هي التي أحضرته لغرفة الجلوس. نهض عدنان واقفًا حين دخلت عليهم، وسارع في مد يده لمصافحتها.. لكنها حين صافحته تركت يدها الطرية الناعمة تغفو لحظات في يده التي كانت تتصبب عرقًا.. أحس عدنان بأنه قطعة سكر تذوب في يد نجمة،

وتمنى أن يعيش في قبضة يدها العمر كله. لكن عدنان الذي استبشر خيرًا بلقائه بنجمة، لم يكن يدري أنه لن يلقاها في بيت أبو أحمد بعد ذلك اليوم. إذ حين وصل في الأسبوع التالي وجد المقهى غارقًا في الزهور البرية والبالونات الملونة احتفاء بقدوم أحمد، وانشغال الأم بابنها واعتزالها مؤقتًا الحياة الاجتماعية ذات المتطلبات المرهقة.

لم يكن بإمكان عدنان أن يتصور وحشة الفراغ الذي كان عليه أن يعيش فيه طيلة وجوده في مضارب بني هاجر. وهذا جعله يبحث عن وسيلة لملئ الفراغ أو التخلص منه، مما دفعه إلى التعود على النوم في فترة ما بعد الظهيرة. وفي المساء، حين تخف درجة الحرارة، كان يفرغ ما لديه من طاقة في كتابة الشعر.. الغزل بمحبوبة لا وجود لها إلا في الخيال، والحنين لوطن هرب منه ولا يرغب في العودة إليه ثانية، والبكاء على مستقبل دخل غياهب الشيخوخة قبل أن يرى النور. وبالرغم من عمق المشاعر التي لونت أشعاره، إلا أن عدنان، وخوفًا من اكتشاف أمره ومعاقبته، كان يقف أمام خيمته كل مساء، وذلك بعد أن تتوارى شمس المغيب ويسدل الظلام خيمته على المكان، يمزق أوراقه بهدوء وعناية، قطعة قطعة، يذرف بعض الدموع حزنًا عليها، ثم يرمي بما جادت به القريحة وآلام المعاناة وعذابات الغربة من أشعار في مهب الرياح.

تعتبر قرية وادي الظبيان المركز التجاري والإداري لتلك المنطقة النائية، حيث يوجد بها فرع لأحد البنوك الكبيرة التي تتعامل معها الحكومة، يديره نجم الدين (أبو هبة) الذي قدم من سورية قبل عدة

سنوات. كانت الحكومة تودع رواتب الموظفين العاملين لديها في تلك المنطقة في ذلك البنك، وكان أبو هبة يقوم بخدمة الزبائن على أكمل وجه.. كان البنك ينتقل كل يوم جمعة إلى مقهى أبو أحمد، يأتي أبو هبة ومعه كشوف الحسابات، والكثير من النقد لخدمة العملاء، وهذا أعطى مقهى أبو أحمد وظيفة أخرى ذات أهمية كبيرة بالنسبة للرواد. فمن مقهى بسيط في قرية نائية، وفي يوم عطلة رسمية، كان بإمكان عملاء البنك سحب المال من حساباتهم، وتحويل الأموال إلى ذويهم في الخارج، وادخار ما يستطيعون ادخاره في مكان آمن. كان أبو هبة بنك المنطقة المتنقل، يقدم خدماته الخاصة لقاء رسوم زهيدة.. خمسة ريالات مقابل كل معاملة.

رغم انشغال عدنان بالتدريس، وملئ ساعات المساء بكتابة الشعر والبكاء على حياة غدت أطلالاً قبل أن تعيش حياتها، لم يستطع أن يتغلب على الإحساس بالفراغ، لكن الشعور بالفراغ لم يدم طويلاً. فبعد أسابيع، عاد جبران من لبنان يحمل معه ثلاثين كتابًا ومجلة.. فرح عدنان فرحًا عظيمًا بتلك الثروة الفكرية، أخذته الكتب والمجلات إلى عالمها المملوء بالإثارة والغرابة والجنس، وبالمعلومات الهامة والحكايات الطريفة والأحداث العجيبة. غرق عدنان في عالم كتبه، وتاه في بحارها العميقة، وبدأ ينسي معها إحباطات التجربة التي عاشها على شواطئ واحة الغزلان.

وفي يوم من الأيام، رأى صورة فتاة جميلة على غلاف إحدى المجلات التي احضرها جبران من لبنان، ذكرته بنجمة، الفتاة الساحرة التي

خطفت عقله في ثواني، وسكنت حلمه في لحظات، ولم تفارق ابتسامتها خياله أبدًا. كان عدنان يتظاهر بأنه نسي نجمة وتناسى أم الحسن، لكن العشق لا يُنسى، والتجربة الحلوة والمرة لا تُمحى، ومحاولة الهروب أو التهرب من أيهما لا تحل إشكالاً، ولا تحقق مأربًا، بل كثيرًا ما تزيد الأمور ألمًا وتعقيدًا.

حصان الشهوة

بعد إعمال عقله الذي يحسن التفكير، وإن لم يحسن دومًا التدبير، أعلن عدنان على مسمع الحضور في مقهى أبو أحمد حين زاره في الأسبوع التالي أنه سيقوم بجولة استكشافية في قرية وادي الظبيان، يتعرف من خلالها على كنوز القرية ومعالمها التاريخية. قال عدنان موجهًا كلامه لرواد المقهى: ليس من المعقول أو المقبول أن نزور هذا المكان كل أسبوع دون أن نتعرف عليه وعلى خباياه وكنوزه.. ضحكت غالبية الحضور. قال البعض، مبروك عليك يا أبو الثقافة أزقة وحواري وادي الظبيان التي تعلوها النفايات، وتفسد جوها الروائح الكريهة، وترتع فيها القطط والكلاب الضالة. لكن عدنان لم يكن في الحقيقة ينوي أن يكون أبًا للثقافة ولا أُمًا لها في ذلك اليوم.. لقد كان له هدف آخر، أهم من مجرد التعرف على معالم القرية بكثير.. كان هدفه الأول والأخير هو البحث عن بيت نجمة، ومحاولة الوصول إليها.

خرج عدنان من المقهى، امتطى ظهر حماره، طاف شوارع القرية المكونة من شارعين رئيسيين، سار ببطء، تفقد بيوتها بيتًا بيتًا محاولاً رؤية ما خلف الجدران وسماع ما يدور وراء الشبابيك المغلقة من همس. إلا أنه لم يلاحظ أي نشاط يذكر، سوى وجود بعض الأولاد

الصغار يقفون أمام بيتين من البيوت.. كانت القرية تغط في نوم عميق في تلك الساعة، غير معنية بالمقهى ولا برواده. وقبل أن يستكمل رحلته الاستطلاعية بقليل ويفقد الأمل في العثور على ضالته، جاءت المفاجأة. خرجت نجمة من بيت كبير، يبدو أنه بيت شيخ من شيوخ القرية، وخاطبته دون أن تغطي وجهها:

- ماذا تريد يا سيدي؟ هل تريد مساعدة؟ إن مقهى أبو أحمد في الاتجاه الآخر، لكن يمكنك الوصول إليها من هذا الاتجاه.. من خلف المدرسة. لكن حين اقتربت منه، تذكرته على الفور.. أدركت أنه الشخص الذي رأته في بيت أبو أحمد قبل عدة أسابيع، وطالما تمنت أن تراه ثانية، اقتربت منه أكثر، وابتسمت له ابتسامة خجولة. مد يده محاولاً أن يمسك بيدها إلا أنها لم تمكنه من ذلك، إذ ابتعدت عنه بضعة خطوات، لكن دون إبداء الغضب أو مغادرة المكان. احتار عدنان وشعر بالحرج، إلا أنه تماسك نفسه وقال:

- كنت أريد أن أصل إليك يا سيدتي.. إلى حيث تتمنى النفس، وتحب الروح، ويعشق القلب. أدارت وجهها خجلاً وقالت بصوت لا يكاد أن يسمع:

- ربما يأتي ذلك اليوم، لا تستعجل الأمور يا صديق، ثم عادت مسرعة إلى أحضان بيتها الدافئ.

وقف عدنان أمام البيت لحظات لم تطل، يتفحص المكان جيدًا، يستعيد في مخيلته ابتسامة نجمة ولمسة يدها الدافئة، يرسم صورتها على الأفق البعيد بعناية متناهية، يقبل شفتيها برفق في خياله، ويرشف من

رحيق ثغرها قطرات شهد تروي براعم الشباب في قلبه قبل أن يعتريها الذبول.. قبلة حارقة تطفئ نار الشهوة المتقدة في عينيه، وتسكر روحه المتعطشة إلى جنة العشق. وبعد أن ارتوى من سراب الحب وخيالات التأمل، قال لحماره ورفيق دربه: آن الأوان يا صديقي العزيز كي نعود إلى بيوتنا.. هيا بنا إلى مضارب بني هاجر العتيدة.

ومنذ ذلك اللقاء لم تعد طريق عدنان إلى مقهى أبو أحمد تمر من مكان آخر غير الشارع المؤدي إلى بيت نجمة، إلا أن نجمته لم تعد تُسعد المارين بطلتها. يبدو أن غيوم التقاليد حجبتها عن العيون، وعواصف الحياة ألقت بها بعيدًا عن شاطئ العشاق. لكن مجرد التفكير باحتمال رؤيتها في يوم من الأيام كان يسعد عدنان كثيرًا، ويفرح قلبه، ويطمئنه على أنها لا تزال تعيش في دائرة الممكن، ولم تخطفها دنيا المحال. وفي يوم جمعة لم يتوقع منه شيئًا جديدًا، توقف صابر أمام بيت نجمة. كانت نجمة قد وضعت أمام بيتها جرة ماء مفتوحة بشكل يدعو حمير المارة إلى الشرب منها، والارتواء من خيراتها. لقد وضعت نجمة الجرة، على ما بدا لعدنان، بهدف إغراء صابر على التوقف، وإرغام عدنان على الترجل أمام دارها.

وما كاد صابر أن يتوقف أمام الجرة، حتى سمعت نجمة قرقعة الفخار التي كانت تنتظرها بفارغ الصبر. وفي الحال، خرجت من البيت باسمة الوجه، وقد ارتدت أحلى الحلل، وبدت كأجمل نجمة عرفتها سماء السعودية. مد عدنان ذراعيه بسرعة محاولاً ضمها إلى صدره وعناقها، إلا أنها أفلتت من قبضته بخفة قبل أن يتمكن منها. نظرت

إليـه نظـرة تأنيب لكن دون غضب، ممـا جعلـه يتراجـع ويعتـذر دون أن يفقد الأمل.. قال عدنان محاولاً استعطاف نجمة وإيجاد مبرر لما فعل:

- أنت أجمل امرأة في الدنيا.. أنت الحسناء الفاتنـة التـي لا مثيل لهـا إلا فـي الأحلام.. الأحـلام التـي نتمناهـا ونعرف أنهـا لـن تتحقق.. أنـت ليلـة القدر التي وعدني الله بها يـوم ولـدت، وحملنـي علـى المجـيء إلـى هذا البلد كي أراها بعيني، وأعيشها بكل حواسي.

- لا تبالغ يا صديق فيما تقول.. المبالغة تسـيء أكثر ممـا تنفـع.. هنـاك ملايـين النسـاء اللـواتي يتمـتعن بجمـال أفضـل ممـا وهبنــي الله بكثيـر، ويملكن أنوثـة لا استطيع مجاراتها مهما حاولـت.. نساء موجودة فـي أمــاكن بــلا عـدد، فــي مصـر، ولبنــان، وفرنســا، وألمانيــا، وإيطاليــا، وأمريكا، وحتى في الصومال وإثيوبيـا.. إن بإمكانـك أن تشـاهد فنـونـهن في الأفلام السينمائية، وترى رشاقتهن على شواطئ البحـار والبحيـرات المتنــاثرة بكثـرة حـول العـالم، وتتمتـع بصـورهن علـى صـفحات الكتـب والمجلات التي لا تحصى.

فـوجئ عدنـان بثقافـة نجمـة ومعرفتهـا بتلـك الأمـور، ممـا جعلـه يرتبـك قليلاً قبل أن يستعيد رباطة جأشه ويقول:

- نعم.. قد يكون ما تقولين صحيحًا، لكن من تتكلمين عنهن مـن النسـاء يعشن خارج دائرة الممكن والمرئي.. في عالم لا يمكنني الوصول إليـه، ولا يمكنك الاقتراب منه.. أنت أجمل امرأة رأيتهـا بعينـي، وأكثـر النسـاء التـي عرفتهـا إثـارة.. النسـاء اللـواتي يقعـن فـي دائـرة الواقـع لا الحلـم.. أنـت الحلـم فـي عـالم يهـرب الحلـم منــه، والرؤيـة الصـادقة يـوم تخـتلط

الرؤى في سمائه الملبدة بغيوم الوهم، وتتبعثر المشاعر الجياشة مع رياحه الحارقة.

أسدلت نجمة جفونها خجلاً، طأطأت رأسها في تواضع، وهمست بصوت مسموع:

- أرجو أن تعبر كلماتك عن إعجابك بعقلي، وليس عن شهوتك لجسدي فقط، واشتياق ليلك لخيال ليلي.. نعم.. أنا أعرف أنني جميلة وجذابة وأحيانًا مثيرة أيضًا، لكنه جمال وجاذبية وإثارة لا أملك حرية التصرف بها الآن.. ربما أستعيد ملكيتها في يوم من الأيام.. أدعو الله أن يمنحني ما يكفي من الشجاعة لأفعل ذلك قبل أن يضيع العمر ويذوي الجسد، ويغدو الجمال والجاذبية والإثارة مجرد ذكرى.. أما الآن فلا بد من العودة إلى البيت.. إن زوجي نائم.. أخاف أن يستيقظ، وتقع الكارثة.

ركب عدنان حماره، وأمره بمواصلة السير إلى مقهى أبو أحمد، بينما كانت مشاعر الفرح والحزن تدق على جدران قلبه الرقيقة من كل جانب.. الفرح لأنه قابل نجمة ولمس يديها وخاطب قلبها، والحزن لأنه لم يستطع عناقها وتقبيلها كما اشتهى. لقد أدرك أن حبيبته لا تملك حريتها، وأن ظروفها تحول دون بناء علاقة معها، أو حتى الاقتراب منها. وعلى الرغم من أن أنوثة الجسد أثارته كثيرًا، إلا أن فطنة العقل وثقافة القول أثارت فضوله أكثر.. ومنذ تلك اللحظة، غدت نجمة لغزًا يحير عقله، وقضية مثيرة تتحدى ذكاءه وفكره.

منذ أن تعود صابر على المرور من الشارع المؤدي إلى بيت نجمة، أصبح يضع في حساباته أن أمامه محطة أخرى بعد واحة الغزلان، فيها الماء البارد والحنان، ولذلك لم يعد عدنان بحاجة لتوجيه صابر كي يمر من قلب القرية. وبالرغم من اختفاء نجمة عن الأنظار مجددًا، ولفترة طويلة، وانشغال عدنان عنها بتلاميذه وأصدقائه وكتبه، إلا أنه لم يمانع من مرور صابر بدارها كل يوم جمعة، وذلك لأن جرة الماء لم تختفي.. كانت دومًا في انتظار صابر، وكأن نجمة تقول لعدنان لا تفقد الأمل.. انتظر.. سنلتقي يومًا ما. وهذا زاد اللغز تعقيدًا، وقضية حله إثارة وصعوبة.

فكر عدنان في سؤال أبو أحمد عن نجمة، لكنه عدل عن رأيه بسرعة، فكر أيضًا في اختلاق عذر لزيارة أبو أحمد في بيته عله يراها هناك، إلا أنه وجد الفكرة مثيرة للتساؤل، وقد تؤدي إلى إثارة الشكوك. لذلك قرر أن يحاول طرد شبح نجمة من رأسه، ومحو صورتها من خياله، إلا أن صابر لم يوافقه الرأي، إذ استمر في سلوك الطريق المؤدية إلى جرة الماء وبيت نجمة الحنونة.

وحين بدأت ملامح نجمة تتلاشى تدريجيًا من ذهنه، وتختلط صورتها مع صور الفاتنات المنشورة على صفحات المجلات المهربة من لبنان، ظهرت نجمة كغزال شارد يطارده صياد ماكر.. أطلت بعد أن تعالى نداء الجسد والمتعة في خلاياها، ولم يعد بالإمكان كبته أو التغاضي عنه، وبعد أن فاض حنينها لحضن دافئ وحب آمن. ففي يوم من الأيام العادية، حين هز صابر رأسه لينفض بقايا قطرات الماء عن وجهه

وقد ارتوى من جرة نجمة، فُتح باب البيت فجأة، وخرجت منه نجمة.. ودون مقدمات، أمسكت برسن صابر، وقادته إلى داخل البيت.. سار صابر خلفها بهدوء، يتبعهما عدنان في حركة لا إرادية.. قاده هوى القلب تجاوبًا مع نداء الجسد والغريزة دون تفكير.. هرب العقل وتخلى عن مسؤولياته أمام ثقل وطأة الحرمان والشوق الملتهب.

وما أن دخلوا ساحة البيت حتى سألته عن سبب تأخره عن الموعد المعتاد، حيث قالت:

- كدت أن افقد الأمل في حضورك اليوم، وأخرج من البيت بعد أن أعددت العدة لاستقبالك.. يبدو عليك التعب، أعتقد أنك لم تأخذ حاجتك من النوم في الليلة الماضية.. طبعًا المشاغل كثيرة والهموم لا تنتهي أبدًا.. الفراغ يكون أحيانًا أصعب من كل المشاغل وأقسى من كل الهموم، بل هم الهموم الذي يتجدد كل ثانية، خاصة عندما يكون الإنسان غير راضي عن وضعه وحياته.. على كل حال الشاي جاهز، سأحضره في الحال.. اجلس هنا، وأشارت إلى بساط من الصوف الأسود كانت قد فرشته في ساحة البيت. كانت نجمة تقرأ مشاعر عدنان بحدس غريب، وتحلل حالته النفسية والجسدية بدقة، وذلك بالرغم من أنها لم تراه منذ أسابيع، ولم تجالسه في حياتها.

لم تمضي لحظات حتى عادت نجمة تحمل الشاي وقليلاً من التمر، جلست إلى جانبه، صبت له الشاي.. بدا عليه الاضطراب.. نظرت في عينيه محاولة الغوص في أعماقها، وتعرية كل أسرارها، لكنه لم يمهلها.. تسارعت دقات قلبه.. ارتجفت يداه.. تصاعد الدم إلى رأسه..

سرت موجات الشهوة في عروقه.. ضمها إلى صدره.. طواها برفق على البساط.. مد يده تلامس شعرها.. مررها فوق الفستان الملتصق بالجسد.. توقف قليلاً عند كل محطة من محطات الإثارة الجنسية، مال عليها يقبلها.. أغمضت عينيها.. هربت إلى عالم السكينة والاستسلام اللامتناهي، محاولة التجاوب مع نداء الشهوة والجسد.. ألقى بنفسه فوقها دون أن يخلع ملابسه، ودون أن تخلع ملابسها، ترك يده تداعب نهديها، وشفتاه تروي ظمأ الشوق من شفتيها.. لم يعد بإمكانه حينئذ إيقاف قطار الشهوة المتسارع.. ثار البركان وأفرغ كل ما كان لديه من لهيب، وهدأ هدوء الموت. جاءت القبلة الأولى لتجسد كل ما كان في البركان من عنفوان، وجاء الاسترخاء بعدها ليجسد كل ما تركه البركان خلفه من رماد.. بلل عدنان ثيابه الرثة بأعز ما تتمنى المرأة أن تروي به حرقة الشوق في ليالي العشق الموحشة. استلت نجمة نفسها برفق من بين يدي عدنان، اعتدلت في جلستها، وخاطبته قائلة:

- ماذا فعلت؟ أنت رجل ساذج، ويبدو عليك أنك أناني أيضًا.. لقد خيبت ظني. طأطأ عدنان رأسه خجلاً.

- آسف يا سيدتي، قال عدنان، أنا آسف جدًا.. أرجو أن تعذريني.. هذه أول مرة في حياتي أعيش فيها الحلم في وضح النهار.. أنت بالنسبة لي أكبر من الحلم الذي تخيلته طوال عمري.. أرجوك أن تعذريني.. لا تصفينني بالساذج أو الأناني.. إنني لست ساذجًا ولا أنانيًا، وإنما مبتدءًا، والمبتدئ لا يعرف شيئًا سوى كيف يرتكب الأخطاء.. إن أمامه

طريقًا طويلاً قبل أن يصبح محترفًا، إنه بحاجة إلى خبرة.. بحاجة لمن يقدر ظروفه ويساعده على تعلم فنون الاحتراف.

- قد تكون مبتدءًا حقًا، لكنك جرحت كبريائي.. لقد ظننتك قادمًا من بلاد ينضج الرجال فيها بسرعة تتابع الأحداث السياسية على الأرض، ويتناسون أنفسهم في سبيل العزيز والغالي عليهم.. لكن يبدو أنني كنت مخطئة. إنك لا تدري أن المتعة التي استحوذت عليها في ثوان كان من الممكن أن تحصل على أضعافها لو انتظرتني حتى يصل قطار الشهوة لدينا محطته في آن واحد.. لقد وصلت الشهوة لديك إلى الرأس بسرعة، لأنها كانت تعشش هناك منذ زمن بعيد، بينما كانت الشهوة لدي تستيقظ من سباتها بعد نوم عميق طويل، وتسير في عروقي على هدي نسمات شوق معتق بآلام الوحدة. لقد تسببت أنانيتك، أو سذاجتك، أو بدائيتك كما تقول، في تعليق شهوتي في حبل مشنقة الغريزة الجنسية، هناك بين أمل خاب، وفرصة ضائعة قد لا تعوض. ثم أدارت ظهرها، ودخلت إحدى غرف البيت دون أن تلتفت خلفها.

نهض عدنان متثاقلاً، حاول إخفاء آثار الحدث من على بنطلونه.. قاد حماره إلى خارج البيت، امتطى ظهر صابر، أدار وجهه نحو الشرق، وأمره بالعودة إلى مضارب بني هاجر. لكنه في الطريق إلي خيمته قرر أن يقضي بقية النهار في ظلال واحة الغزلان، يحاول أن ينسى ما حدث خلال النهار، يستحم في مياه البحيرة العذبة، يغسل ملابسه، يستمتع بمشاهدة النسيم يداعب أغصان الشجر، يراقب الطيور

المهاجرة تتباهى بريشها على الرمال الفضية، وتروي ظمأها بهدوء استعدادًا لمواصلة رحلة العودة إلى بلاد الشام.

حاول عدنان بعد ذلك أن يرى نجمته أكثر من مرة، إلا أن شمسها لم تشرق، ونور عينيها لم يلمع ليضيء عتمة الصحراء من حوله. لكنه بقي مطمئنًا لوجودها وعدم نسيانها له، فجرة الماء كانت تنتظر صابر كل يوم جمعة، في نفس الزاوية، لا تغير مكانها ولا ما فيها. إلا أن عدنان بدأ يقنع نفسه بوجوب نسيان نجمة، فالمسافة بينهما شاسعة، والطريق إليها وعرة، والمخاطر تحفها من كل جانب.

وفي إحدى الزيارات العادية لمقهى أبو أحمد، وصل عدنان هناك ليجد أجواء المكان وقد تحولت من الفرح إلى الحزن والاضطراب. وقف عدنان مشدوهًا ومندهشًا لحظات، لا يدري ماذا يقول أو يفعل.. اقترب منه جبران وهمس في أذنه قائلاً:

- لا تقلق كثيرًا.. كانت هناك مشكلة خطيرة، لكنها انتهت الآن. تعال معي.. سأحكي لك القصة. هل تذكر صديقنا المهندس سمير؟ المصري الأصل والأمريكي الجنسية. لقد ضبطه دعاة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" في المدينة وهو يمارس الجنس مع فتاة فيليبينية في شقتها.. ضربوه حتى فقد وعيه وكاد أن يفقد الحياة، ثم قادوه بعد أن استعاد وعيه إلى مركز الشرطة عاريًا تقريبًا.. اعتقلته السلطات، وهناك جلدوه مئة جلدة قبل ترحيله إلى شيكاغو بعد تدخل السفارة الأمريكية، إذ لولا قيام السفارة بالتدخل لقاموا برجمه بالحجارة حتى الموت.

- هذا أمر محزن حقًا إن من واجبنا أن نعلن الحداد على فقدانه، ولو ليوم واحد. لقد كان سمير خفيف الظل، كبير القلب، يبث الفرح والمرح من حوله كما تبث شمس الربيع دفئها على الأزهار، فتتفتح الورود.

- هذا صحيح، يا عدنان.. إنني متأكد من أن سمير سيكون سعيدًا حين يسمع ما قلته عنه، وسيخفف هذا الكلام عنه الألم والحزن كثيرًا، لكن الأهم بالنسبة لنا جميعًا هو أن نتعظ من هذه الحادثة.. علينا أن لا نندفع خلف الشهوة العابرة، ونقع في نفس الخطأ. إن من حسن حظ سمير أنه كان يحمل الجنسية الأمريكية، وبالتالي وجد خلفه من يحميه. أما نحن أبناء العروبة الشماء، فليس لنا مُعين.. حكوماتنا تنتظر منا أن نرسل لها المزيد من المال، دون أن تقدم لنا أية خدمات في المقابل، ودون أن توفر لنا الحماية عند الحاجة. إن الحصول على رضا الحكومة السعودية بالنسبة لزعمائنا وشيوخنا وأباطرتنا أهم بكثير من أرواح أبنائهم المعذبة، وعرقهم الذي يكاد أن ينضب في بلاد الغربة ومتاهات الفراغ.

- إنني مع الأسف اتفق مع كل ما قلت، لكن أخبرني يا جبران.. ماذا حدث للفتاة الفيليبينية؟ هل ضربوها؟ هل رجموها؟ هل تدخلت سفارتها وساعدت على ترحيلها إلى بلادها؟

- لا أدري يا عدنان.. كل ما اعرفه أن دعاة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو كما يلقبونهم في جدة، دعاة "الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف"، قادوها كما قادوا سمير إلى مخفر الشرطة، ومنذ ذلك اليوم لم يُسمع منها أو عنها شيئًا.

كان لذلك الكلام صدى مدويًا في رأس عدنان تسبب في زيادة مخاوفه، لذا بدأ يفكر في نسيان نجمة كما نسي أم الحسن، أو كما تناسته وأجبرته على التفكير بغيرها. لذلك انصرف كليًا إلى قراءة الكتب والمجلات، وقام بإحراق الممنوعة منها بعد الاطلاع عليها، وذلك خوفًا من وصول دعاة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فجأة إلى مدرسته، وسطوتهم على قصره العامر الذي لا يوجد فيه مكان لإخفاء أي شيء عن العيون. كما قرر التعود على القراءة ببطء حتى يستوعب ما يقرأ جيدًا، وحتى لا يستكمل قراءة ما لديه من كتب معدودة بسرعة، تعيده إلى الدوران مجددًا في عالم الفراغ الموحش والخيالات المرهقة.

لكن خيال نجمة، وبالرغم من المحاولات المتكررة لنسيانها، كان يعود بين الحين والآخر ليفرض نفسه على عدنان، رافضًا التلاشي في فيافي الصحراء، والذوبان في عواصفها الرملية. كانت نجمة هي الحب الأول الذي تجاوز عذرية المناجاة، والتجربة الأولى في حياة عدنان مع المرأة.. كانت المصباح الذي أضاء له صحارى الذات الباحثة عن مكنون الذات في ذاتها.. الحدث الأكبر الذي أنزل صورة ابنة خالته سلوى عن جدران خياله، ووضع مكانها صورة أميرة بدوية لا يُعرف لها حسب أو نسب. كانت صورة سلوى هي اللوحة الحزينة التي تركها خلفه في عمان معلقة على حائط الطفولة البريئة، وكانت صورة نجمة هي اللوحة الباسمة التي استقبلته في وادي الظبيان واقتحمت فضاء الغريزة التي أنضجتها سنوات الشباب.

يميل الإنسان بطبيعته إلى نسيان الأحداث السيئة والصور المحزنة، ويحاول دومًا أن يتذكر الأحداث السعيدة والصور الجميلة الباسمة. لذا يجد الإنسان السوي نفسه عادة منجذبًا نحو الأماكن التي يعيش فيها الفرح وتتوفر فيها المتعة، ومندفعًا بعيدًا عن الأماكن التي يعشش فيها الحزن وتهجرها السعادة. فالأولاد مثلاً، يقضون وقتًا أطول مع آبائهم وأمهاتهم عندما يكون الآباء والأمهات في حالة صحية ونفسية جيدة، ويتحاشون الزيارات الطويلة حين يعيش الآباء والأمهات حالات القلق، أو المرض، أو الاكتئاب.

كان أبو أحمد يقوم كل يوم جمعة بتوزيع ما يتبقى لديه من طعام الغداء على الأصدقاء من رواد المقهى، يحملونه معهم إلى بيوتهم حيث وجدت، وكان عدنان من بين المحظوظين، يظفر كل يوم جمعة بوجبة عشاء لذيذة إلى جانب وجبة غذاء طازجة وساخنة. وفي المساء كان عدنان يعود إلى بيته وكتبه سعيدًا راضيًا، ومعه طعام العشاء، حيث يكون في استقباله عند الوصول صديقه الحسن، بوجهه البشوش وابتسامته العذبة.

ومن حيث لا يدري، بدأت العلاقة بينه وبين الحسن من ناحية، وبينه وبين صابر من ناحية ثانية تتطور بسرعة، حيث أصبح الحسن رفيقه في الصباح وفي المساء، وأصبح صابر رفيق دربه في الذهاب والإياب من وإلى واحة الغزلان ووادي الظبيان، وكاتم أسراره الأمين. كان صابر قد تعود على عدنان ومواعيده مما جعله يوقظ سيده كل يوم جمعة في الصباح الباكر لبدء رحلة الذهاب إلى وادي الظبيان قبل

اشـتداد الحـر، ويـذكره بموعـد العـودة فـي المسـاء، وذلـك مـن أجـل الوصول إلـى مضـارب بنـي هـاجر قبل سقوط الظلام. كـان صـابر كلمـا تأخر عدنان عن الموعد المحدد في الصباح، يضرب الأرض والخيمـة بقدمه، حتى يوقظ عدنان من نومـه. أمـا عدنان فقد كـان يعانق صـابر حين يوقظه، ويغسل لـه وجهه بالمـاء البـارد قبل الرحيل. وكلمـا تـأخر عدنان فـي مقهى أبـو أحمـد عن المعتـاد، ينـهق صـابر مـرتين مـذكرًا عدنان بحلول موعد الرحيل. لقد بدأ عدنان يهمل سـاعته، وكثيرًا مـا ينساها في البيت، وذلك بعد أن صادر صابر المثابر وظيفتها بجدارة.

أما الحسن فكان ينتظر عدنان كل مساء جمعة عند بـاب خيمتـه أو فـي داخلهـا حين يتـأخر كثيرًا، ليستمع إلـى أخبـار المقهى، وأخبـار مـا بعد المقهى مـن عـالم مجهـول بالنسـبة لـه، ويحمـل لعـدنان آخـر أخبـار العشـيرة، وآخـر الحكـم والمقـولات المـأثورة التـي تفـيض بهـا قريحـة الشيخ عرفـان. كـان الحسـن يجسـد فـي ملامحـه وحركاتـه صـورة أمـه وقوامهـا الممشـوق وعيونهـا التـي تتقـد إثـارة. وهـذا جعـل عـدنان يستحسن مصاحبة الحسن، ويحرص على تناول طعام العشاء معه كل يـوم جمعـة. وبعـد العشـاء كـان عـدنان والحسـن يتبـادلان الحـديث، ويناقشان بعض ما يسمعانه من أخبـار وآراء جديـدة وإشاعات مثيـرة، وذلك قبل أن يقود الحسن صابر إلـى بيتـه، يعتنـي بـه طوال الأسبوع، ويعيده إلى خيمة عدنان في حالـة تأهب للسفر مساء الخميس التـالي. كـان عدنان يضم الحسن إلـى صدره كلمـا هم بالرحيل، ويقبلـه قبلـة

شـهوانية كلمـا عـاد، وكأنـه يقبـل أمـه التـي وعـد نفسـه بتقبيلهـا ومضاجعتها يومًا من الأيام.

علم عدنان من رواد مقهى أبو أحمد أن ارتباط الرجال بالصبيان كان أمرا شائعًا بين بعض القبائل العربية في الأيام الغابرة، وأن عملية الارتباط كانت تتم أحيانًا ضمن مراسم اجتماعية علنية، وأن تلك العادة لا تزال تمارس بشكل شبه عادي في إمارة البحرين القريبة من المنطقة التي كان يقطنها بني هاجر. وهذا دفع عدنان إلى التساؤل عما إذا كان بإمكانه أن يفعل نفس الشيء مع الحسن الذي كان يعشقه، ويتمنى أن يضاجعه دون خوف من عواقب، أو تأنيب من ضمير. لكنه كان يدرك أيضًا أن ممارسة الجنس بين الرجال والصبيان هي من الأمور المكروهة بشكل عام، وأن المجتمع الذي تربى فيه وينتمي إليه يعتبر الممارسين لتلك العادة من الشواذ والمنبوذين.

عاش عدنان لقاءاته مع الحسن في صراع دائم بين النزعة لممارسة الجنس والتذرع بالثقافة البدوية التي كان يرفضها عامة، وبين التمسك بالثقافة الدينية والحضرية التي تدعو إلى حصر الممارسة الجنسية بين الرجال والنساء فقط. وهذا دفع عدنان إلى التساؤل عما إذا كان من الأخلاق والمروءة أن يأخذ المرء ما يناسب اللحظة من كل ثقافة، ويتناسى ما لا يشبع له الشهوات والنزوات العابرة منها، أو أن التمسك بالمبادئ لا يترك خيارًا للانتقائية. فكر عدنان أكثر من مرة في مصارحة الحسن بما كان يجول في صدره من مشاعر، لكنه كان يتراجع دومًا في اللحظة الأخيرة، وذلك خوفًا من التسبب في جرح

مشاعر الحسن الذي كان يحبه كثيرًا، ويخاف أن يفقده ويفقد صحبته ومعها متعة تقبيله وضمه إلى صدره كل يوم تقريبًا. عاش الصراع في رأس عدنان دون حسم لأشهر، حتى جاء حدث عابر أخرج عدنان من أزمته الصغيرة، وأدخله في أزمة كبيرة وخطيرة.

في رحلة عادية من وادي الظبيان عائدًا إلى مضارب بني هاجر، توقف صابر وعدنان كالعادة في واحة الغزلان.. كان هناك عدد آخر من المسافرين الذين توقفوا مثلهم، وتركوا حميرهم ترتوي من نبع البحيرة، تستريح بعض الوقت، تتهامس مع غيرها من الحمير، تشاركها عواطفها، وتبدي لها الرغبة في العناق أو المضاجعة أحيانًا. وبعد أن أخذ صابر حاجته من الماء والراحة في ذلك اليوم، اقترب من حمارة شابة كانت تقف بالقرب منه، وقد راق له قوامها كثيرًا، وأغرته بحركاتها الجسدية المثيرة. انزل صابر قضيبه استعدادا لنكاحها، بدأ قضيبه يتمدد وينتفخ تدريجيًا، ويبدو أكثر صلابة لحظة بعد لحظة.. تصلبت العشيقة في مكانها، فتحت رجليها الخلفيتين، أعلنت جاهزيتها لممارسة الجنس. وفي اللحظة الحاسمة، وقبل حدوث المضاجعة بثواني، تدخل صاحب الحمارة الشابة بحزم، صرخ في وجه حمارته مؤنبًا، ثم صاح على صابر ونهره، مجبرًا إياه على التراجع.

غضب عدنان حين رأى ما حدث، ذهب إلى صاحب الحمارة، وخاطبه قائلاً:

- ضع يا صديقي نفسك مكان حماري.. مخلوق وهبك الله غريزة الجنس والرغبة في النكاح، تعيش في مكان نائي، في عزلة عن

الجنس الآخر، ثم سنحت لك فرصة نادرة لممارسة الجنس مع شابة من جنسك، تريدك وتدعوك للتجاوب مع رغبتها، فماذا أنت فاعل؟ لا تكن يا صديقي ظالمًا، دعهما يفعلان ما يحلو لهما، ساعدهما على الاستمتاع بلحظة عشق بعد يوم عمل طويل وعمر مرير. إن الحمير في بلادنا تقضي عمرها في خدمتنا، في حمل الأثقال عبر صحاري قاحلة نيابة عنا، والسير في عين الشمس الحارقة ومقارعة عواصف الرمل التي تدمي العيون من أجلنا، وحين تلوح لها فرصة لتجديد حيويتها والاستمتاع بالجنس غير المحرم في عرفها نحاول حرمانها من ذلك، ألا تعتقد أن هذا ظلم كبير لا مبرر له؟

سكت صاحب الحمارة، أدار وجهه إلى الناحية الأخرى، ثم سار متباطئا في الاتجاه الآخر، تاركًا لحمارته الحرية لتفعل ما تشاء. قام عدنان في الحال بتهدئة روع الحمارة المسكينة، حيث ربت على ظهرها وطمأنها، ثم ذهب إلى حيث يقف صابر حزينًا.. أمسك برسنه، وقاده بهدوء إلى عشيقته. وبعد لحظات غزل بين العشيقين لم تدم طويلاً، وضع صابر قدميه الأماميين على ظهر عشيقته، وأدخل قضيبه في مؤخرتها، يشبع شهوته منها، ويروي لها ظمأ الشهوة، بينما كان عدنان يتابع مشهد الغرام لحظة بلحظة، يتحسر على ما فاته من فرص، يتذكر أخطاءه، تتململ الشهوة في عروقه، ويتعلم درسًا في ممارسة الجنس لا يُنسى.

وبعد أن انتهى صابر من مضاجعة عشيقته، أنزل قدميه من على ظهرها بتأني، رفع رأسه عاليًا، هز ذنبه قليلاً، وكأنه يقول لعدنان: هل

رأيت ماذا فعلت؟ هل تصدق كم تكون الصدفة جميلة ومثيرة أحيانًا، بل رائعة حقا؟ هل تدرك أهمية اغتنام الفرص؟ شكرًا يا صديقي على حنانك، وتفهمك لحاجتي النفسية والجنسية.. يا إلهي كم أنا سعيد اليوم.. فكل لحظة هناء، وكل دقيقة متعة تساوي عشرات السنين.. إننا يا صديقي نعيش سنوات الشقاء الطويلة من أجل لحظات المتعة القصيرة.

سار عدنان نحو صابر، عانقه مهنئًا، أحضر له بعض الماء ليشرب، غسل له وجهه، ثم قاده إلى مكان تظلله الأشجار، وتركه يرتاح بعض الوقت قبل مواصلة رحلة العودة إلى مضارب بني هاجر. وبعدها أدار عدنان وجهه يبحث عن صاحب الحمارة ليشكره نيابة عن صابر، فإذا به يختبأ خلف إحدى الشجيرات، منهمكا بممارسة العادية السرية. ثارت الشجون في رأس عدنان، ولمعت الشهوة في عينيه مجددًا، أراد أن يفعل نفس الشيء، إلا أنه ترفع عن تقليد ذلك الرجل.. قرر أن يقلد صابر بدلا منه، وأن يغتنم أول فرصة تلوح له لممارسة الجنس، وأن يرشف كأس المتعة حتى الثمالة، دون تردد.

الجريمة والعقاب

وصل عدنان البيت متأخرًا عن موعده المعتاد بحوالي الساعتين.. كان صابر مرهقًا، وإن بدت عليه علامات الارتياح والسعادة. وما أن دخل عدنان خيمته حتى رأى الحسن مستلقيًا على بطنه على البساط، غارقا في النوم، وقد تكشفت فخذيه وبعض مفاتن الجسد التي بدت مثيرة للغاية، تستثير شهوة المحروم من الجنس. كانت الأشياء التي رآها عدنان من ذلك الجسد الطري في تلك الليلة تشبه كثيرًا ما كان قد رآه في أمه حين راودته عن نفسها على شاطئ بحيرة الغزلان. وبسرعة أخذت صور الإثارة الجنسية تتراءى أمام ناظريه الواحدة تلو الأخرى.. صورة أسماء مستلقية على ظهرها على شاطئ البحيرة.. شفاه نجمة الممتلئة وقد غفت في حضن شفتيه باسترخاء.. قضيب صابر وقد تدلى منتفخًا استعدادًا لنكاح عشيقته.

بدأ بركان الشهوة يصحو من سباته، يتململ شيئًا فشيئًا، يتسارع ويتأهب للثورة وتحطيم الحواجز والموانع التي كانت تقف أمامه. مد عدنان يده يتحسس فخذ الحسن، مررها فوق مؤخرته، رفع ثوب الصبي قليلاً.. اكتشف أن الحسن لا يلبس ملابس داخلية. همس في سره: يا إلهي، أخيرًا تسنح لي فرصة ثمينة لا يعكر صفوها شيء..

سأغتنمها.. نعم سأغتنمها، ولن اتركها تفوتني هذه المرة.. سأفعل ما فعل صابر. مال عدنان على الحسن، احتضنه بهدوء.. تسارعت دقات قلبه.. ارتجفت يداه.. تمدد قضيبه، لكن الخوف تملكه.. الخوف من خيانة الصداقة وعيب الخيانة، والخوف من عواقب الاعتداء على الحسن، والخوف من العقاب في الدنيا والآخرة.

حاول عدنان المقاومة، مقاومة الشهوة الجنسية الطاغية التي استولت على كل حواسه، إلا أنه لم يفلح. حاول التغلب على التقاليد التي تربى عليها والانصياع لأوامر النفس الأمارة بالسوء، إلا أن ضميره كان له بالمرصاد.. لم يسمح له بذلك. نهض عدنان واقفًا وهو يرتعد.. سار نحو باب الخيمة بهدوء.. أطل برأسه خارجها.. قرر أن يترك المكان في نزهة قصيرة، يحاول خلالها طرد الأفكار الشريرة التي استولت عليه وتمركزت في رأسه، واستبدال التخيلات الشيطانية التي كانت تتراءى أمام عينيه بتخيلات روحانية، وتخليص نفسه من تبعات ما يمكن أن تقود إليه ممارسة الجنس مع الحسن من مشاعر مخجلة وعواقب وخيمة. إلا أن بشائر الربيع كانت قد حلت، والعاصفة الرملية التي تحدثت عنها وعن عنفوانها الأخبار لأيام مضت كانت قد وصلت وبدأت تغطي السماء بعباءتها الرمادية، تحجب كل النجوم، تُخفي معالم كل الطرق والشواهد، وتحول دون رؤية أي شيء كان.

عاد عدنان إلى داخل خيمته، أغلق بابها، وأغمض عينيه كي لا يرى الحسن مستلقيًا أمامه. استلقى إلى جانب الحسن في المكان الذي تعود

النوم فيه حين يكون الحسن في رفقته، إلا أن ملامسة جسد الحسن في هذه المرة لم تكن اعتيادية.. اقترب من الصبي ببطء وحذر، أحس بدفء ونشوة تتسرب في عروقه، رفع الثوب عن مؤخرة الصبي ثانية.. بدت المؤخرة مغرية وكل ما يحيط بها يوحي بالإثارة.. ترك عدنان يده تمر عليها ببطء.. ولما لم يصدر عن الحسن ما يشير إلى أنه يعترض على ما كان يقوم به من تحرشات، وجد عدنان نفسه يندفع بسرعة نحو ارتكاب ما كانت تراوده نفسه على ارتكابه لأسابيع طويلة.. ارتكاب الجريمة التي تمناها، وحاول تجنبها، وارتعد من مجرد التفكير فيها وفي عواقبها. فتح رجلي الحسن قليلاً، ثم قام بفتح سحاب بنطلونه بسرعة محاولاً إخراج قضيبه الذي كان قد تمدد وتصلب، إلا أنه وجد صعوبة كبيرة في إخراجه في الوقت المناسب، وذلك لأن قطار الشهوة كان قد قارب الوصول إلى محطته الأخيرة قبل أن يكون الركاب قد جهزوا أنفسهم للنزول.. حاول عدنان السيطرة على القطار وإبطاء مسيرته، إلا أنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً.. ألقى بجسده الثقيل فوق الحسن، ضمه إلى صدره بقوة، عصره دون رحمة لثواني لم تطل، ارتخى جسده بعد ذلك، وهرب في حلم قصير لم يدم طويلاً.

وما كادت قبضة عدنان ترتخي تمامًا حتى استل الصبي نفسه بهدوء من حضن عدنان، نهض بسرعة، فتح باب الخيمة على عجل، امتطى ظهر صابر، وركض في اتجاه خيمة أهله، بيت الشيخ عرفان ابن

البصير. حاول عدنان اللحاق بالحسن.. تعثرت قدماه عند باب الخيمة.. وقع على وجهه، إلا أنه نهض بسرعة. ولكن حين أطل برأسه من الخيمة التي ترك الحسن بابها مفتوحًا، لم يرى شيئًا، ولم يسمع صوتًا.. كانت العاصفة قد غمرت أرجاء المكان، ولم يعد بالإمكان رؤية أي شيء في الخارج. جلس عدنان في مكانه يفكر فيما فعل، لم تمضي لحظات حتى أدرك حجم الجريمة التي ارتكبها بحق صديقه، وأقرب الناس إليه، وخادمه المطيع، وابن شيخ العشيرة التي يعيش في كنفها. وقف عدنان على باب خيمته مشدوهًا.. طالت اللحظات كأنها سنين، تسلل الخوف إلى قلبه الضعيف، بدأ القلب يرتجف بلا توقف.. تصاعد الدم إلى رأسه.. أمسك بشعره وأخذ يبكي حتى سقط على الأرض مغشيًا عليه. وحين عاد إلى وعيه، كانت تبعات ما فعل قد تجسدت خيالات حية وتسللت إلى أعماق قلبه، وهنا أيقن أن عليه مواجهة الحقيقة بكل مرارتها. كان عليه أن يفعل ما من شأنه صيانة كرامة صديقه، وإنقاذ سمعته، والحفاظ على حياته التي لم تعد آمنة. إلا أن عدنان أدرك بسرعة أنه لم يكن باستطاعته أن يفعل شيئًا بعد أن حدث ما حدث، سوى أن يستنجد بربه، وأن يطلب الغفران.. صاح بصوت مسموع.. أنقذني يا إلهي.. ارحمني يا ربي.. ماذا فعلت من المعاصي لأستحق كل هذا العذاب؟ كيف الخلاص من هذه المصيبة التي أوقعت نفسي فيها؟.. هل هناك من خلاص؟ ألهمني يا ربي طريق الصواب.

اتجه عدنان بعد ذلك إلى مناجاة نفسه، وتأنيبها على الخطيئة التي ارتكبتها، قال هامسًا: إنني اعترف بجريمتي، وسابق إصراري على ممارسة الجنس غير المشروع مع صديقي.. لكنني لم أكن اعتقد أن الأمور ستصل إلى هذا الحد المخجل.. أن تصل إلى وضع يضطرني إلى حفر قبري بيدي. يبدو أنني قررت مصيري البائس والمخزي بنفسي حين تصرفت بشكل أهوج، حين امتطيت جواد الشهوة، واندفعت بإرادتي خلف متعة فانية، وحاولت اغتصاب صديق مخلص. نعم.. إن الشهوة وإغراءاتها تقود من يطاوعها إلى الجحيم.. لن اعترض يا ربي على زجي في الجحيم يوم الحساب، لكنني أرجوك أن لا تسمح لهم بقطع رأسي بسيوفهم العتيقة.. نعم.. كلها دقائق معدودة وأصبح في عداد الأموات. إن فعلتي النكراء جعلتني كالكلاب المسعورة، تخافها الناس، تلاحقها اللعنات بلا هوادة، وتطاردها السيوف بلا رحمة.

هل ستغفر لي يا ربي لأنني لم أرتكب الجريمة التي كنت أنوي ارتكابها؟ نعم إنني أدرك أنني كنت في طريقي إلى ارتكابها، لكن رحمتك أنقذتني في اللحظة الأخيرة.. هل يكفي هذا لتغفر لي، وهل من حقي أن أطلب من الحسن أن يسامحني؟ وهنا سمع صوتًا يقول في داخلة: إن النية لارتكاب الجريمة هي في عداد الجريمة.. إنك لم تتوقف عن ارتكاب جريمتك لأنك راجعت نفسك، واعترفت أمام نفسك بالخطأ، وسلكت طريق الصواب، وإنما لأن ملابسات ارتكاب الجريمة

لم تكن كما توقعت، ولأنك حين ترددت قليلاً في ارتكابها تسبب ذلك في تـأخرك عـن قطـار الشـهوة وحـال دون وقوعهـا.. كانـت تقـديراتك يـا عدنان خاطئـة، ولـم تكن نواياك سليمة.. لـذا عليك أن تتحمل النتـائج، تمامًا كمن ارتكب جريمة كتلك التي قمت بحياكـة خيوطها بدقة وعنايـة على مدى أشهر، وسمحت لها بالسيطرة على حواسك وقيادتك إلى هذا الموقف المخزي.

آه يـا ربـي.. أننـي أدرك أنهـم سيأتون بعد دقـائق لينفذوا حكم الإعدام دون محاكمــة.. ســيقطعون رأســي بســيوفهم التــي يعلوهــا الصــدأ.. سيقطعونـه بسرعة البرق.. سينفصل رأسي عن جسدي في جزء من الثانيـة، وسيتدحرج علـى الأرض قبل أن تغادر الـروح الجسد وتصعد إلى السماء.. يا إلهي كم هي فظيعة وشنيعة هذه الميتـة.. هل ستنظر عيناي إلى جسدي وتراه جثة هامدة بلا رأس وهي لا تزال حية وقـادرة على الرؤية والبكاء؟.. نعم يا ربـي.. لقد كدت أن ارتكب جريمـة كبـرى استحق عليها العقاب الشديد، لكنني لا أستحق الإعدام علـى مـا فعلـت.. لا استحق أن يُقطع رأسي.. إن الظروف التي ووضعوني فيها هـي التـي تسـتحق الإعـدام.. لـو كـان هنـاك عـدل يـا إلهـي لكـانوا اعـدموا هـذه الظروف منذ زمن طويل، وأطلقونـا نعيش أحرارًا من ذنـب الخطيئـة، وندم الأخطاء، وعذابات الخطايا.

لا.. لا.. لن يقتلوني بهذه الطريقة البشعة.. سيأخذونني إلـى مكـان بعيد مهجور، وهناك سيقومون بخلع ملابسي وتقييد يدي ورجلـي، وتعذيبي

حتى أغيب عن الوعي، ثم يتركونني بلا ماء، وبلا طعام، وبلا لباس، أتلوى من الجوع والعطش والخوف، أقاسي البرد في الليل، ولهيب الشمس في النهار.. وستأتي الغربان التي تتصيد الأموات لتنقر عينيّ حيًا حتى أصبح أعمى ويفقد وجهي وجهه الجميل ويغدو قبيحًا، وستأتي من بعدها الوحوش الجائعة لتنهش لحمي، وتلوك عظامي، وتتركني جيفة تهرب من رائحتها القطط والكلاب الضالة.

لا.. لن اسمح لهم بقتلي بهذه الطريقة الفظيعة.. لن اجعل مهمة الوصول إلى رقبتي سهلة.. لن أكون حملاً وديعًا يعيش حياته في انتظار عيد الأضاحي.. لن أجلس في مكاني هادئًا مستسلمًا لمصير يصنعه الغير، بينما يقوم الجزار بسن سكينه أمامي ويتحفز لنحر عنقي.. سأهرب من هذا المكان.. نعم.. سأهرب الآن. لكن إلى أين أهرب؟ هل هناك من مكان آمن أهرب إليه؟ نعم.. هناك الصحراء الشاسعة.. إنها مفتوحة، ومن السهل الهروب فيها، وإن كان ليس بالإمكان الهروب منها. لكن بدون وسيلة مواصلات لن استطيع الذهاب بعيدًا.. سيقتفون أثري بسرعة وسهولة، ويُلقوا القبض عليّ خلال ساعات قليلة، وينفذوا حكم الإعدام بالطريقة التي تعجبهم، وترضي غرورهم، وتتناسب مع جهلهم وجهالة عصرهم. لكن حتى وإن هربت، فكيف لي أن أجد طريقي والعاصفة تغمر كل شيء، وتقتلع الأشجار من جذورها، والرمال الكثيفة تخترق العيون وتسلب الأبصار. آه، يبدو

أن مصيري سيكون كمصير الشيخ معصوم.. العمى.. آه يا ربي.. لم كل هذا العذاب؟

بدأ عدنان في الانهيار، ولم يعد قادرًا على الوقوف على قدميه، لكنه أصر على الهروب.. قال مخاطبًا نفسه: سأذهب إلى حيث أقضي حاجتي كل مساء، اختبئ هناك خلف الشجيرات مع الحشرات والقاذورات.. مع الأفاعي والعقارب التي قد تتكفل في أداء المهمة نيابة عنهم وتخلصني من هذا العذاب. إن مكان قضاء الحاجة هو أكثر الأمكنة أمانًا في هذه الصحراء، لن يخطر ببال أحد أن من الممكن أن أنام فوق أكوام البراز.. سيهربون من رائحة البراز المتعفن إذا اقتربوا منه.. إنني اعرف المكان الذي اقضي حاجتي فيه جيدا، وأعرف الطريق إليه.. إنني استطيع الوصول إليه مغمض العينين، وستقودني الروائح الكريهة إليه إن ضللت الطريق، أو حِدْت عنها قليلاً. إن من المؤكد أن يبتعدوا عن ذلك المكان، ويذهبوا إلى حيث لا توجد غير الحيوانات المذعورة التي تختبئ في جحورها في انتظار مرور العاصفة.

لبس عدنان بيجامته الوحيدة فوق ما كان يلبسه من ثياب، ثم لف نفسه بالعباءة التي كان الشيخ عرفان قد أهداه إياها يوم وصوله إلى مضارب بني هاجر قبل حوالي سبعة أشهر، وخرج يتحسس طريقه وسط النفايات والأوساخ التي تكرمت العاصفة بحملها وتكديسها فوق الخيمة ومن حولها. استلقى عدنان على بطنه بين الشجيرات التي

تتغذي على سماد البشر.. أغمض عينيه تمامًا.. لف رأسه بالعباءة.. كمم أنفه بإحكام حتى كاد أن يختنق.. ورويدًا رويدًا بدأ القلق يخبو، والإحساس بالأمان يعود إليه، والأفكار السوداء تتحول إلى خيالات بعيدة، وأحيانًا مضحكة، وتدريجيًا أخذ النعاس يتسلل إلى رأسه وعينيه المغمضتين حتى غفا، بعد أن كان الليل الكسول قد شاخ تمامًا.

صحا عدنان في اليوم التالي، لم يكن بإمكانه رؤية الشمس من شدة العاصفة، إلا أنه استطاع تحديد موقعها من السماء.. أدرك أنه نام حتى العصر. قرر العودة إلى خيمته بالرغم من المخاطر، إذ كان الجوع والعطش قد أخذا حقهما منه، ولم يعد بإمكانه أن يصبر طويلاً. سار زحفًا على يديه وقدميه وبطنه ببطء على طول الطريق القصيرة التي يحفظها عن ظهر قلب.. وصل الخيمة بعد حوالي نصف ساعة ليجدها مغطاة بالرمال والأوساخ، لكن الهدوء كان يكتنفها من كل جانب، بعد أن خفت حدة العاصفة بعض الشيء.
مد عدنان يده يتلمس طرف الخيمة.. أخذ قلبه يدق بسرعة.. تجدد القلق واعتراه الخوف.. تراجع قليلاً.. صمت طويلاً.. عادت التساؤلات المريبة تطرح نفسها من جديد، والخيالات المخيفة تتوارد وتتزاحم في رأسه بسرعة.. هل يختبئون في داخل الخيمة في انتظار عودتي لأنهم يدركون أنه ليس باستطاعتي الذهاب بعيدًا في عين العاصفة؟ هل سيقتلونني فورًا؟ هل سيقطعون رأسي بالسيف؟ هل سأموت في

لحظات؟.. نعم.. إنني أفضل هذه الطريقة بالرغم من وحشيتها لأنها تريحني من العذاب.. سأكون خلال ثانية في عداد الأموات، وتنتهي مسرحية حياتي البائسة، وتنتهي معها أحلامي وأحلام أمي وأبي.. سأصبح قبرًا منسيًا في صحراء تقسو حتى على الأحياء من أبنائها ومحبيها. عاد ومد يده المرتجفة من الخوف، لامس طرف الخيمة ثانية.. ارتعد قلبه وجسده.. تجمدت يداه وقدماه ولم يعد قادرًا على الحركة. قال مخاطبًا نفسه: أين سأذهب الآن؟ ماذا افعل؟.. إن مصيري معروف ومحتوم.. لقد صنعته بيدي، ولا استطيع الهروب منه، وعليّ أن أواجهه بشجاعة.. لقد فات أوان الجبن، ولم يعد ينفع الندم.

رفع طرف الخيمة بحذر.. أطل برأسه يتفقد ما بداخلها.. أحس أن كل شيء لا يزال على حاله كما تركه في الأمس.. الهدوء سيد الموقف، والسكينة تهيمن على الفراغ.. لم يصدق عينيه.. ظن أنه يحلم من جديد.. تسلل إلى الداخل بتردد وترقب مريب.. وما كاد أن يتنفس الصعداء، حتى سمع حركة مفاجئة أرعبته.. انهار تمامًا وسقط على الأرض مقطوع النفس. سامح الله ذلك الأرنب البري الذي احتمى بالخيمة ليلاً من العاصفة، وانتفض هاربًا منها حين عاد صاحبها إليها. وقبل أن يبحث عن الماء والطعام، فتح باب الخيمة قليلاً ونظر في اتجاه مضارب بني هاجر.. كانت العاصفة لا تزال تحول دون رؤية الأشياء بوضوح.. اطمأن إلى أنهم لن يسيروا في عين العاصفة.. شعر أن بإمكانه اخذ قسط من الراحة والتفكير بهدوء في الخطوة التالية..

شرب الكثير من الماء، وتناول القليل من الطعام.. نظر إلى ساعته، وجدها تشير إلى السابعة مساء.. أشعل مصباحه الزيتي، ولجأ إلى اقرب أصدقائه واصدق رفقائه.. لجأ إلى الكتاب.

الكتاب هو أفضل وأقصر طريق للخروج من الأزمات النفسية الطارئة.. إنه الأداة السحرية التي تعيد الهدوء والسكينة للنفس المضطربة.. إلى النفس الخائفة والغاضبة والتائهة.. إنه الشمعة التي تنير الطريق أمام النفس الضالة في ظلام الذات وظلمة المكان والزمان.. تقرأ فيه.. لا تفهم في البداية شيئًا.. لا تسمح لك الأفكار السوداء ومشاعر الخوف والغضب باستيعاب شيء مما تقرأ، لكن سحر الكتاب يأخذك بعد قليل إلى حيث يريد، وليس إلى حيث تريد.. يأخذك بعيدًا عن هواجس الغضب واضطرابات الخوف والقلق متجاوزا هواجس الرغبة في الهروب أو الانتقام.. يأخذك إلى عالمه السحري، تسافر معه في عالم الخيال حتى تتعب من السفر، وتغفو مطمئنًا.. تستيقظ بعد النوم بنشاط لا عهد لك به.. تجد نفسك في عالم جديد.. عالم مشرق، لا علاقة له بما كان.

الكتاب هو الصديق الودود الذي لا يخذل صديقه أبدًا، والقائد الذي لا يُهزم مهما كانت الصعاب، والكلمة المكتوبة هي الحبيب الذي لا يخون وإن خان الزمن، والتركيز على جماليات النص وزهو الكلمات يقصر المسافة بين بداية القراءة المضطربة، ونهاية الرحلة في عالم الخيال والسحر والمتعة. الكتاب يقلب الخوف إلى طمأنينة في دقائق، يستبدل

الغصب بهدوء ينعش الروح في ساعات، ويحول طاقة الهدم إلى خيال بناء وفكر خلاق مبدع دون عناء يذكر.

قرأ عدنان حتى تعب وغلبه النعاس.. صحا في فجر اليوم التالي فجأة على صوت غريب، أعاد له هواجس الأمس المرعبة وخيالاته المفزعة. لكن، وقبل أن يتملكه الخوف من جديد، أدرك أن الصوت الذي سمعه كان صوت صابر المثابر، صديقه الوفي ورفيق دربه الأمين. كانت خيوط النور التي ترسلها شمس الصباح للتجسس على الناس قد بدأت تتسلل إلى خيمته ببطء، وكانت العاصفة قد هدأت كثيرًا، لكنها لم تغادر المكان كليًا. وهنا عادت التساؤلات تطرح نفسها من جديد.. من أعاد صابر إليَ هذا الصباح؟ لم أعادوه اليوم؟ إن يوم الجمعة لا زال بعيدًا، هناك عدة أيام تفصلنا عنه.. نعم.. الآن فهمت.. لن يقتلوني، لكنهم يريدون التخلص مني، وبسرعة.. يريدونني أن أغادر هذا المكان، أن أسافر بعيدًا عنهم.. لا ألومهم على ذلك.. سأسافر في أسرع وقت ممكن إلى مكان لا يعرفون عنه شيئًا.. سأعود إلى سجن الوطن.

نعم.. سأغادر مضارب بني هاجر، لكن يجب عليهم أن يفهموا أنه ليس باستطاعتي الرحيل اليوم.. لا تزال العاصفة تجر ذيولها ببطء شديد، والرؤية لا تزال ضعيفة، والوحوش ربما كانت أكثر جسارة في غياب الإنس وهروب كل شيء حي من طريق العاصفة. أما الجن فلم أصادفهم في حياتي أبدًا، ولم أصادقهم حتى استعين بهم.. سأنتظر

حتى طلوع النهار وشروق الشمس لمعرفة مدى قوة العاصفة، وذلك قبل اتخاذ قرار نهائي بتحديد موعد الرحيل. لكنني أرى أن من واجبي الآن دعوة صابر لدخول الخيمة.. ليس من العدل أن اتركه وحيدًا في الخارج بعد قضاء ليلة قاسية في عين العاصفة. وحين خرج ليطمئن على صابر ويدعوه إلى الدخول، وجده واقفًا على أهبة الاستعداد للسفر.. على ظهره الخرج كالمعتاد، وعيناه تدمعان كأنهما تودعان عزيزًا طوته السنين قبل الأوان. وبعد أن ادخله إلى بهو الخيمة، وحال إنزال الخرج عن ظهره، لاحظ عدنان أن في الخرج شيئًا غير غريب.. كمية كبيرة من الماء والطعام تكفي له ولصابر ليومين على الأقل. نعم.. إنهم يريدونني أن أذهب بعيدًا.. إلى حيث لا يسمعون اسمي ولا يرون صورتي، ولا تحملهم الصدفة يوما لدياري.. سأحقق لهم رغبتهم.. إنها رغبتي أيضًا.

قام عدنان بعد ذلك بعناق صابر، أحضر له بعض الماء وغسل له وجهه الذي كانت تغطيه الرمال، وخاطبه بحنان قائلاً:

- انتظر يا صديقي بعض الوقت، أريدك أن تكون صبورًا كعادتك.. حاول أن تأخذ قسطًا من الراحة.. سنسافر بعيدًا وطويلاً.. إنني لا أدري إلى أين.. لكن موعد السفر قريب، أقرب مما تتصور.. سنسافر قبل أن يغيروا رأيهم ويذبحونني ذبح الخراف. وهنا عاد يناجي نفسه من جديد: كنت اعلم أن ما اقترفته من ذنوب لا يرقى إلى مستوى الجريمة التي تحلل القتل.. كنت أدرك أن الحبيب قد يخون، لكن الحب

لا يخـون أبـدا.. الحـب الـذي يسـكن قلـب الحسـن حـال دون قيامـه بخيـانتي.. نعـم.. إن مـن حقـه أن يغضـب، وأن يتسـبب فـي طـردي وترحيلي من هذا المكـان.. يتسبب فـي تغريبـي مـرة ثانيـة إلـى حيث لا أدري.. لكنني أحبه، وسأحافظ علـى حبـه مهمـا فعل، وإن طالـت الأيـام، وتغير الزمان، وابتعد المكان عن المكان. يا إلـهي، تبـدو الغربـة قدري، والتشـرد سـبيلي، والظـلام دليلـي.. حيـاتي ضـياع فـي ضـياع، لا اعتقـد أنـها ستوصلني إلـى شـيء.. فيـا إلـهي هل هنـاك معنـى لحيـاة تائهـة فـي اللاشيء؟

وقبـل أن يسـتقر عـدنان داخـل الخيمـة، عـاد ليتفقـد أحـوال الجـو فـي الخـارج.. نظر من حوله يستكشف أركـان المكـان.. لاحظ أن هنـاك شيئًا غريبًـا.. شيئًا تغيـر وتغيـرت معـه تضـاريس المكـان. لـم يسـتطع للوهلـة الأولى أن يحدد ما حدث بالضبط، لكنـه سرعان مـا أدرك أن خيـام بنـي هـاجر لـم يعـد لهـا وجـود.. رحـل بنـو هـاجر، اختفـت آثـارهم بـين ليلـة وضـحاياها. أصـيب عـدنان عنـدها بالدهشـة والـذهول.. بصـدمة قويـة أفقدتـه صـوابه.. شـعر بأنـه يعيش حلمًـا سـرياليًا يسـرق الحقيقـة فـي لحظات ويغرس مكانـها وهمًا، يعيد مكانًا آهـلاً بالسكان فـي ثـوانٍ إلـى ما كان عليه قبل أن يوجد الإنسان. لكن عدنان أدرك أن الحقيقـة المـرة هي التي محت الوهم الذي عاش في رأسه ومن حوله شهورًا.. حررتـه العاصفة بعنفوانها من زمن غيـر زمنـه، ومـن مكـان غيـر مكانـه، ومـن تقاليد غير تقاليد ثقافتـه.. لقد مزقت العاصفة القنـاع الـذي كـان يغطـي

وجه الوهم، فبدت الحقيقة على حقيقتها، صحراء شاسعة بلا حدود، وحياة قاحلة تتحدى الوجود.

ما أن تكشفت حقيقة الحقيقة أمام عدنان حتى وجد نفسه يضحك بأعلى صوته.. يضحك بشكل هستيري أقلق صابر، وكاد أن يدفعه إلى الهروب من الخيمة، والتخلي عن صديقه ورفيق دربه، والالتحاق بربعه، والعيش ما تبقى من شبابه في كنف بني هاجر. ضحك عدنان بسخرية حين أيقن أن بني هاجر كانوا على ما يبدو يستعدون للرحيل.. للهجرة المعتادة في مثل ذلك الوقت من السنة، بينما كان هو يختبئ مع الحشرات، مستلقيًا فوق القاذورات، مذعورًا كالفئران من عواقب عملية جنسية قد لا تستحق الاهتمام في مجتمع يمارسها بشكل معتاد. وحين عاد إلى الذاكرة والتاريخ اتضحت له الأمور.. كان بنو هاجر قد قرروا الرحيل بحثًا عن الكلأ والماء في مكان آخر، وذلك بعد أن حلت بشائر الربيع، وبدأ موسم العواصف الترابية يهب على مضاربهم، وأخذ الحر يشتد في بلادهم.

ربت عدنان على عنق صابر، قدم له بعض الماء والطعام، ثم أقنعه بأن يستريح وينام قليلاً، ويحلم على هواه، ريثما يحين موعد السفر. لم يستطع عدنان أن ينام بعد ذلك، شغلته قضية الرحيل والبحث عن مكان آخر يذهب إليه، وقضية الاتصال بالجهات الرسمية لإعلامهم برحيل بني هاجر. وفي حوالي السابعة صباحًا، تململ صابر المثابر كالمعتاد، ثم نهض واقفًا استعدادًا للرحيل.. وضع عدنان ما كان لديه

من ثياب رثة في خرج صابر، لم ينسى طبعًا الكتب، سلواه الوحيدة في صحراء لا تعرف سلوى غير الضياع في خيالات الوهم.. خرج عدنان وصابر المثابر، تركا باب الخيمة مفتوحًا لتكون مأوى للضالين من الإنس، والمذعورين من الحيوانات والطيور.. ثم وقف يلقي نظرة أخيرة على المكان قبل الرحيل.

نظر إلى الأفق البعيد.. رأى المكان خال من البشر والحيوانات.. كان صابر هو الصديق والرفيق والشاهد الوحيد على ما رآه، وما كان يشعر به من أحاسيس غريبة ومتناقضة. أدار وجهه في كل مكان.. في كل الاتجاهات، وترك العين تصل إلى أبعد مدى ممكن، إلا أن العين لم ترَ شيئًا سوى بعض التلال النائية والشجيرات الحزينة. كانت تلك التلال والشجيرات هي العلامة الوحيدة على وجود حياة في صحراء لا حياة فيها لغير الأموات. كما رأى أيضًا بعض الطيور البرية تطير عاليًا وسريعًا دون همس، وكأنها تستعجل السفر خوفًا من حرارة الشمس، وتجنبًا للمزيد من الزوابع الرملية. سار عدنان نحو الموقع الذي كان في الأمس مسكنًا لبني هاجر.. لم يجد هناك سوى بعض الرماد، وشعيرات غنم مبعثرة هنا وهناك، وبقية قطعة خبز جافة، وصندل مهترئ.. أشياء يظن من لا يعرف ما كان عليه المكان في الأمس أنها نفايات حملتها العاصفة من وراء جبال نائية. لقد هجر بنو هاجر المكان قبل أن يقوموا بتهجير عدنان منه، تاركين خلفهم آثارًا لا تدل على تاريخ لمكان كان في يوم من الأيام وطنًا لإنسان.

هكذا، وجد عدنان نفسه بين ليلة وضحاها وحيدًا في مكان مفتوح لا يحده جبل أو بحر، وفي فضاء واسع لا يعكر صفوه شيء. نعم، قال عدنان لنفسه: أنا الآن حر.. حر لأقول ما أشاء، وأفعل ما أريد.. لكن ماذا تعني هذه الحرية الجوفاء؟ هذه حرية بلا معنى.. إنني حر من الناحية النظرية، لكنني أسير من الناحية الواقعية.. إنها حرية لا تضر ولا تنفع، لا تُكبل ولا تُحرر، لا تمت لواقع الحياة ولا للحلم بصلة. إن الحرية الحقيقية لا تتحقق إلا حين يكون بإمكان الإنسان أن يقول ما يريد أن يقول، وأن يفعل ما يتمنى أن يفعل على مسمع من الناس، وعلى مرآي من الجمهور الذي يعنيه ما يسمع، ويهمه ما يرى.. حرية القول والفعل لا تتوفر إلا عندما يكون لما تقول معنى بالنسبة للغير من الناس، ويكون لما تفعل صدى يؤثر في حياتهم ومواقفهم. الحرية هي فضاء له حدود، لا حدود الرؤية بالعين، بل حدود حقوق الفرد ومصلحة المجتمع.. الحرية في فضاء بلا حدود هي حرية بلا صدى، وبلا وجود.. إنها حرية عبثية.. مجرد نزعة داخل فضاء يحده اللاشيء، ويسكنه اللاوجود.. الحرية البناءة هي الوجه المشرق للوجود، لكنها لا تعيش إلا ضمن حدود، ولا تنشط إلا ضمن قيود، تفرضها إنسانية الإنسان وديناميكية الوجود.

نعم. إنني حر هنا، في هذا المكان الذي يخلو من الحياة.. حر لأقول ما أريد، وأفعل ما شئت، لكنني لا استطيع مغادرة هذا البلد إلا بإذن من السلطات الحكومية، حتى جواز سفري لا املكه الآن، إنه محجوز لدى

الدولة.. تمامًا، كما هي عليه الحال في الأردن، لا يمكن لأحد مغادرة البلاد إلا بشهادة حسن سلوك، تمنحها الدولة لمن تشاء، وتحجبها عمن تشاء، وتجبي مقابل منحها الثمن الذي تشاء من كرامة الضعفاء، ودم الفقراء، وكبرياء التعساء، وتتيح من خلالها للمرتشين أن يستغلوا المكبوتين والبؤساء.

الحرية في وطننا العربي هي هاجس قلق ومقلق، يعيش داخل الإنسان محبوسًا، لا يعرف كيف يعبر عن نفسه، لأنه لا يجد الفضاء المجتمعي الذي يمنحه وجودًا فاعلاً.. إنها عبارة عن سمكة كبيرة تعيش في حوض ماء صغير يعاني نقص الأكسجين، وحين تخرج السمكة من الماء بحثًا عن الأكسجين تموت، وتتلاشى روحها وكل ما يجعلها جميلة وشهية. الحرية في دساتيرنا وهم لا وجود له إلا على ورق مهمل، ولا يمارس إلا في الحلم.. هناك فقط تسقط المحظورات، تُحلل المحرمات، تغيب عيون الناس والدولة والمخابرات، ويتحرر الحلم والحالمين والحالمات.. هناك تتوارى التقاليد المجتمعية خلف ظلام الليل، وتتحرر كل المكبوتات لتمارس حقها في الحياة قبل إشراقه الفجر. وحين يطل النهار برأسه ينتهي الحلم، ويتلاشى معه كل شيء اسمه حرية. إن غياب فضاء الحرية من أوطاننا هو من صنع الدولة.. السلطة التي تتحمل مسؤوليته إدارة شؤون المجتمع، وهذا يطرح تساؤلاً هاماً: مَنْ منا بحاجة إلى شهادة حسن سلوك؟ الشعب أم السلطة؟ ومَنْ هي الجهة التي يجب أن تمتلك حق منح تلك الشهادة للآخر؟

وعلى الطريق إلى قرية وادي الظبيان، توقف عدنان طويلاً عند البحيرة في واحة الغزلان، استحم وحمم صابر.. ارتاح وترك صابرًا يرتاح، أخذ كل منهما استراحة طويلة وغفوة أطول. ترك عدنان خياله يجوب عالم الأمنيات والبلاد التي طالما تمناها، وهذا ساعده على استعادة الكثير من تفاؤله، وإعادة رسم طريقه. وحين انتفض صابر واقفًا على رجليه ويديه، استيقظ عدنان من حلمه.. أمسك برسن صديقه، وسارا معًا على طريق المجهول بثقة، لكنها لم تكن ثقة تعكس رباطة جأش، وإنما كانت عبارة عن موقف عبثي يعكس حالة من عدم الاكتراث واللامبالاة. كان عدنان في الواقع، ومن حيث لا يدري، يؤدي مراسم الوداع الأخير لمضارب بني هاجر وما تركته في حياته وخياله من حقائق وأوهام وتجارب، ولشطآن البحيرة وكل ما كانت تعنيه له من ذكريات جميلة ومشاعر قاسية.. صفحة من التاريخ انطوت، وها هو يسير على طريق جديد، ليفتح صفحة جديدة يكتنفها الغموض والترقب، تحيطها المخاوف من كل جانب، ويطغى عليها إحساس عارم بالارتباك والضياع اللامحدود.

عودة الحلم

حين وصل عدنان وصابر إلى مشارف قرية وادي الظبيان، كانت الشمس على وشك الهروب خلف الجبل.. اتجه صابر تلقائيًا إلى الطريق المؤدية إلى بيت نجمة، إلا أنه حين وصل هناك لم يجد جرة الماء كالمعتاد. لذا وقف أمام البيت ونهق بصوت مرتفع، كمن يستغيث، مما جعل نجمة تخرج مذعورة، إلا أنها اطمأنت حين رأت عدنان الذي بقي صامتًا لا يدري ماذا يقول أو يفعل. ترددت برهة، ثم أمسكت برسن صابر، ترجل عدنان حينئذ، قادت صابر إلى بهو البيت، يتبعهما عدنان، أنزلت الخرج عن ظهر الحمار وأحضرت له الماء والطعام. استدارت نحو باب البيت الخارجي، قفلته بإحكام، ثم أومأت لعدنان أن يتبعها داخل غرفة من غرف البيت، وأغلقت الباب من خلفيهما. وبعد أن أجلست عدنان على بساط من الصوف، خاطبته قائلة:

- يبدو عليك القلق والتعب.. لا بد وأن شيئًا غير عادي حدث لك كي تعود بهذه السرعة إلى قريتنا، قبل الميعاد بأيام، لا تتكلم كثيرًا، الليل أمامنا طويل، زوجي غادر القرية اليوم، ولن يعود قبل الثلاثاء. أريدك أن تستحم الآن كي تسترخي وتهدأ أعصابك، سأسخن لك بعض الماء فورًا، وما أن تستحم حتى يكون طعام العشاء جاهزًا.. إن أمامنا يوم

ونيف، وليلتين كاملتين لنستمتع بحياتنا معًا.. نعوض بعض ما فاتنا.. لن يدق بابنا أحد، وحين يأتي من يدق الباب لأي سبب كان، لن يجد في داخل البيت من يستجيب لندائه.

كانت نجمة، وقبل وصول عدنان بأيام، قد قررت أن تهجر البيت وتهرب من القرية، وتختفي عن الأنظار تمامًا، وتقتحم عالم المجهول الذي يبتلع من يدخل مملكته.. وها هو عدنان جاء ليجعل الأمر أكثر سهولة واستعجالاً، وربما أكثر أمنًا أيضًا.

لم يفهم عدنان ما كانت تعنيه نجمة حين قالت إذا دق بابنا عابر سبيل فلن يجد من يفتح له الباب. إذ كان عدنان في حينه مشغولاً بالتفكير فيما حدث له في الأمس، وفيما سيؤول إليه مصيره في الغد.. كان في طريقه إلى الهروب من واقع مؤلم إلى عالم مجهول.. كان يعد العدة لعبور ذلك المجهول إلى العالم الذي تخيله على شاطئ البحيرة، ورسمه ملامحه مرات ومرات على وجه السماء والماء والقمر، بالرغم من أنه كان يدرك أن الهروب إلى المجهول هو محاولة للسفر بعيدًا عن الحاضر والمستقبل معًا.. بعيدًا عن الحاضر حيث يحتضر الحلم، وبعيدًا عن المستقبل حيث لا يسمح للحلم أن يتحول إلى جنين. ولهذا بدأ يخطط للعيش متعة الساعة بكل ما كانت تعد به اللحظة العابرة والفرصة المؤقتة من نشوة وسعادة. وبينما انشغلت نجمة في تسخين الماء وإعداد طعام العشاء، انشغل عدنان بالهلوسة، إذ أخذ يتمتم كمن يكلم نفسه ويقول بصوت شبه مسموع: لم يعد هناك ما يخيفني، لقد تغير كل شيء في عيني.. لم أعد أتوقع أجوبة لأسئلة

تتعلق بواقع غريب يعيش عصرًا لا صلة له بالعصر، وفي عالم لا يحكمه عقل ولا يديره منطق.

لم تفهم نجمة ما قاله عدنان، ولا ما كان يدور في خلده، لأنها لم تكن تفتش عن معاني لكلمات تبحث عن مغزى في مساء غير عادي، تلقي الشهوة بظلالها الثقيلة عليه. كانت نجمة تحلم بمتعة تعلن بداية النهاية لحياة ظالمة كانت نجمة قد اتخذت قرارها بالتمرد عليها وعلى قيمها وعلى زمنها.. كانت في الواقع قد تجاوزت مرحلة التمرد إلى مرحلة الهروب والتخطيط لعمر جديد تكون متعة العيش فيه هي البداية وهي النهاية.. كان كل من العاشقين الهاربين يرى نصف ما يراه الآخر، يلتقيان في بداية طريق شائك تحدد الشهوة والتمرد والنسيان معالمه بوضوح، دون أن يعرف أحدهما نهايتها، أو طبيعتها، أو حتى كيفية العبور إليها.

حين دخلت عليه بعد الحمام، وجدته مستلقيًا على ظهره عاري الصدر تمامًا، وقد سرح ذهنه بعيدًا، ينتظر قدرًا لا يعرف ما يُخبِئه له من مفاجآت. أما نجمة فكانت ترتدي بنطلونًا ضيقًا، وبلوزة مفتوحة من الأمام، تظهر من النهدين أكثر مما تخفي.. كانت شفتاها ملونة بلون الكرز، والشعر الأسود يغطي الجبين، والعينان تلمعان كنجمتين تتلألآن في سماء ليل صافي بلا غيوم، وقد بدا الصدر كمعبد وثني يأوي تمثالين لآلهة الحب القدامى، يفوح من رحابه عطر آسر، يسكر الروح ويستثير الجسد. فتح عدنان عينيه واسعًا، لم يصدق ما كانت تراه عينيه.. ظن أنه يعيش حلمًا عبثيًا، يتلاعب في أعصابه.

لقد بدت نجمة صورة حية لامرأة فاتنة مغرية لم يعرف عدنان لها وجودًا إلا على صفحات المجلات المحظورة. قال عدنان وكأنه كان يناجي نفسه:

- أَمَلاك أنت نزل من السماء في ليلة القدر؟ إنني لا أصدق عيني.. من أين لك هذا الجمال وهذه الملابس التي لم أرى لها مثيلاً في الحقيقة؟ لا يمكن أن تكون من السعودية.. هل لك أكثر من روح؟ وهل ما أراه أمامي الآن هي روح عارضة أزياء باريسية أم إيطالية؟

- نعم.. أنا بالفعل ملاك.. ملاك صنعه الحب والشقاء، ورسم ملامحه العشق، وقاده القدر والصدفة إلى هذا المكان كما قادك.. قادنا القدر هنا من حيث لا ندري لنلتقي، ونؤسس لحب جديد، نعيد من خلاله صياغة حياتنا ومستقبلنا معًا.. دعنا ننسى كل الأسئلة والتساؤلات الآن.. هذه لحظة حب قد تكون عابرة، قارب عشق يترنح في عباب بحر هائج، غنوه شوق طال حنينها لشاطئ الأمنيات والأمان.. دعنا نستمتع بها، ونرشف رحيقها حتى الثمالة، ونفكر فيما بعدها فيما يمكن أن يأتي فيما بعد، وفيما يمكن لنا أن نفعله حياله.

- نعم.. هذه لحظة لم نكن نتوقعها، جاءت لتعوض بعض ما فاتنا من فرص، لذا لا يجوز لنا أن نثقل عليها.. لا يجوز أن نطرح عليها أسئلة، أو نطلب منها أجوبة، أو نسألها عن أسباب المجيء، لأن كل الأسئلة والأجوبة والتساؤلات والمسائلة لا تدخل في حسابات الصدفة ولا تفهمها متعة اللحظة.

وبعد أن تنـاولا العشـاء وشربا الشـاي، جلسـت نجمـة إلـى جانبـه وقـد استلقى ثانيـة علـى الوسـادة، التصـقت بـه، تركـت نـهديها يتـدليان فـوق وجهـه كعنقـودي عنـب ناضـج ينتظـر مـن يحـن عليـه بالقطـاف، تُلامـس حلمتيهما شفتاه المبللة بريق اكتشف رطوبته فجأة بعد سنوات جفـاف. مالت عليه، قبلته قبلة غرام طويلـة.. همست فـي أذنـه كلامًـا أحس بـه لكنه لم يفهمه. كانت في الواقع تناجي نفسها، تشكر القدر علـى عدالـة جـاءت متـأخرة، ولكـن قبـل فـوات الأوان. ألقـت بنفسـها بـين أحضـانـه، مستسلمة لخفقـات قلـب ولـهان لا تعرف التوقـف، وأنـين آهـات متبادلـة عـذبها الحرمـان. إلا أنــه حـين مـد يـده محـاولاً مسـاعدتها علـى خلـع ملابسـها، اسـتوقفته بحنـان، وحالـت دونـه ودون غرضـه.. لـم يحـاول عدنان أن يأخذ من عشيقته أكثر ممـا كانـت علـى استعداد لتجود بـه.. الـتحم جسـداهما، توحـدت روحيهمـا، تعـانق القلبـين، وغرقـا فـي بحـر متعة عميقة بلا حدود.

كانـت تجربـة عـدنان، فـي ضـوء مـا حـدث معـه خـلال لقائـه الأول مـع نجمة، وما فعله مع الحسن قبل يومين، قد جعلته يقتنـع بالقليل، ويـرى فيـه الكثيـر.. تمامًـا كمـن ينظـر إلـى كـأس خمـر ممتلئـة حتـى منتصـفها فيرى النصف الملآن فقط، ولا يرى النصف الفارغ. حين يصـب الحـاني الخمر لزبائنـه لا يملأ الكؤوس عادة إلى فوهاتـها، بل يملأهـا دومًـا حتـى النصف تقريبًا، وهذا يترك للمتفائل فرصـة كـي يـرى الكـأس مـن زاويـة النصف الملآن، فيبتسم ويشعر بالرضا والسعادة، ويسمح للمتشـائم أن

يراها من زاوية النصف الفارغ، فيشعر بالحزن وتعتريه الأشجان، ويغرق في متاهات الخمر بلا حسبان.

صحا عدنان من النوم في صباح اليوم التالي متأخرًا، دون أن يدري في أي مكان كان، ولا في أي زمن يعيش.. فتح عينيه مستغربًا كمن صحا من حلم عميق لم يتذكر منه شيئًا.. أدار عينيه في أركان الغرفة فإذا به يرى نجمة تجلس عند قدميه، على وجهها ابتسامة ساحرة، وفي عينيها بريق أمل متقد.. ابتسم عدنان، وعاد فأغمض عينيه. مررت نجمة يدها فوق جبهته وشعره قائلة:

- صباح الخير يا حبيبي.. أرجو أن تكون قد قضيت ليلة هادئة، وحلمت أحلاما سعيدة.. أعتقد أنك بحاجة إلى حمام.. الماء ساخن، والفطور جاهز.

جلسا حول مائدة الإفطار التي كانت نجمة قد جهزتها في الغرفة المجاورة، أكلا ما طاب لهما من الطعام، ثم عادا واستلقيا على الأرض نصف عاريين، وأخذا يتسامران، يقص كل منها على الآخر قصته، يستعيد ما شاء من ذكريات الماضي البعيد، يستعرض ما أراد من آلام الماضي وإحباطات الحاضر، ويحلم فيما يتمنى أن يحمله له المستقبل. بدأت نجمة الحديث قائلة:

- لماذا لا تتزوجني؟ أعدك إن تزوجتني أن أخلص لك ما حييت، وأن أخدمك ما عشت بعيني، وأن أسعدك سعادة ما بعدها سعادة، وإذا وافتك المنية قبلي، لن أتزوج من بعدك، سوف أعيش لذكراك وعلى ذكراك، حتى آخر يوم في حياتي.

- لكن كيف أتزوجك يا نجمة.. إنني أعرف أنك متزوجة؟ هل تعدد الأزواج بالنسبة للمرأة لا يزال أمرًا مسموحًا به بين العربان؟ إنني أدرك أن تعدد الأزواج كان شائعًا بين بعض القبائل العربية في عصور الجاهلية، لكنه أصبح محرمًا بعد الإسلام، أليس كذلك؟ هل لا زال الناس هنا يعيشون في عصر الجاهلية؟

- نعم، يا عدنان، إن الناس لا يزالوا يعيشون في عصر الجاهلية، لكنها جاهلية من نوع آخر.. إن لي زوج عشت معه ثلاثة سنوات متتالية.. لا أنكر ذلك، وليس باستطاعتي أن أنكره.. لكنني لست متزوجة.. قد تستغرب هذا، لكن هذه هي الحقيقة.

- ماذا تقولين يا نجمة؟ وقد اعتدل عدنان في جلسته كأنه يصحو من حلم لأول وهلة.. هذه أول مرة اسمع فيها عن امرأة لها زوج، وتعترف بذلك، بينما تدعي بأنها غير متزوجة.. هل هذا معقول؟ وبناء على أي شرع تتم ترتيبات كهذه؟ طبعًا إذا كان ما تقولين صحيحًا.

- الحكاية بسيطة جدًا يا عدنان، أبسط مما تتصور بكثير، إنها حكاية تتكرر لمئات، وربما لآلاف الفتيات مثلي كل يوم.. فتيات يحصلن على أزواج دون زواج، حيث تتم العملية بشكل روتيني، ولا تستغرق في العادة سوى دقائق معدودات، وذلك بهدف إتمام صفقات تجارية، أو إجراء ترتيبات اجتماعية، أو مساومات سياسية تعود على أصحابها بالمتعة، وتعود على الضحايا بالعبودية والتعاسة. إن كل فتاة في بلادنا لا تزيد كثيرًا عن كونها سلعة رخيصة، تباع وتشترى بلا ضجيج، يحصل الرجل عليها مقابل ثمن بخس، ويستخدمها لإشباع شهواته،

دون أن يكـون للضـحية رأي فيمـا يحـدث لهـا. وفـي غالبيـة الأحيـان والحالات تتم عمليات البيع والشراء دون معرفـة الضحية، وطبعا علـى حسابها.

انحت نجمة على عدنان.. قبلته بحنان، وقد شعرت أنه لـم يستوعب مـا قالت..

- دعنـي أقص عليك قصتي من أولهـا إلـى آخرهـا.. إنهـا قصـة طويلـة وقاسـية، لكنهـا بـالرغم مـن قسـوتها ومرارتهـا مثيـرة للغايـة، ولابـد لإنسـان متعـاطف أن يسـمعها حتـى يسـاعدني علـى تحريـر نفسـي مـن عبء اختزانهـا فـي قلبـي الضـعيف ورأسـي المضـطرب، وحـين تسـمع حكـايتي سـتفهم كـل شـيء. لكـن عليـك أولاً أن تنهـي أعمالـك فـي وادي الظبيـان قبـل المسـاء.. لـم يبقـى أمامنـا سـوى اليـوم، نعـد فيـه العـدة، ونستعد للسفر، وفي الصباح الباكر، نغادر هذا المكان إلى غيـر رجعـة.. نخرج من عالم اليقين، ونعبر منـه إلى عالم المجهول.

تناولا طعام الفطور معًا.. لف ذراعيه حول حبيبته وقبلها، ثم قال:

- نعم.. سـنغادر هـذا المكـان قبـل أن يفتضـح أمرنـا، وتقـع الكارثـة.. لا أريد أن يكون مصيري كمصير سمير.. سـأذهب الآن إلـى البنـك، أقابـل أبو هبـة، اسـحب مـا لـي عنـده من مـدخرات، أمـر بعدها علـى بيـت أبـو أحمد كـي أودعـه وأودع أم أحمـد، وأعود إليك لنتأهب للسفر، سنترك وادي الظبيان غدًا قبل طلوع الشمس.

حـين وصـل إلـى البنـك، كـان أبـو هبـة علـى التليفـون يـتكلم بحـدة مـع شخص يبدو أنـه غبي، اكتشف فيمـا بعد إنـه زوج نجمـة. انتظـر عدنـان

حتى أنهى أبو هبة مكالمته.. حياه بحرارة، وأخبره بأنه في طريقه إلى قرية بعيدة بعد أن تم نقله من مضارب بني هاجر إلى منطقة أخرى، وأنه جاء ليسحب ما كان في حسابه من رصيد. كان المبلغ متواضع، وذلك لأن عدنان كان يُحول معظم راتبه لأهله في مخيم بلاطة أولاً بأول. مر بعد ذلك على بيت صديقه أبو أحمد، أخبره بقصة رحيل بني هاجر، وكيف أنه صحا من نومه في صباح الأمس ليكتشف أن الرجال والنساء والأولاد هجروا المكان، وتركوا له صابر ومئونة سفر كافية له ولحماره لمدة يومين على الأقل، كما أخبره أيضًا بأنه في طريقه إلى المدينة ليتصل من هناك بالوزارة ويخبرهم بما حدث، ويتلقى ما لديهم من تعليمات جديدة.

حاول أبو أحمد إقناع عدنان بالبقاء في وادي الظبيان، والتكفل بعملية الاتصال بالوزارة، إلا أن عدنان أصر على خطته. قال لأبو أحمد أنه على موعد مع أحد المهندسين المسافرين إلى المدينة، وأن السفر مع المهندس في سيارته الخاصة فرصة لا تعوض لتجنب وسائل النقل العمومية، وأنه كان يتطلع بشغف لقضاء بضعة أيام في المدينة قبل الانتقال إلى خيمة أخرى، وإلى صحراء قاحلة لا يعرف غير الله مكانها وأحوالها. وبعد أن ودع أبو أحمد وأم أحمد واطمئن على صحة أحمد، عاد في حوالي الرابعة بعد الظهر إلى بيت حبيبته ليجدها منهمكة في إعداد العدة للسفر.

سألته نجمة عما فعل، وسألها عما فعلت. قالت وابتسامة خجولة خبيثة تعلو وجهها الساحر:

- هل تذكر كيف أنك استغربت قولي البارحة بأن من الممكن أن يكون للمرأة في بلادنا زوج دون أن تكون متزوجة؟

- نعم، أجابها عدنان، وقد علت وجهه الدهشة مجددًا.. هل وَجَدتْ المرأة عقد الزواج أخيرًا، وبالتالي لم يعد الموضوع لغزًا محيرًا، قال متهكما؟

- لا يا عدنان.. إن رد فعلك مساء البارحة ذكرني بصديقة لي في القرية، فتاة جميلة وطيبة، لكنها ضائعة. قمت بزيارتها وتوديعها اليوم.. إنها متزوجة لكن ليس لها زوج، عكس ما هو عليه الحال بالنسبة لي تمامًا.

زادت دهشة عدنان وحيرته.. طلب منها أن تشرح له ما تعني بسرعة.. لم يعد لديه صبر. قالت نجمة:

- سأقص عليك تفاصيل حكايتي مع الزمن كما اتفقنا، ومن خلالها سنأتي على تفسير هذه القضية وغيرها من قضايا قد تكون أغرب منها.. هل أنت مستعد؟

الملاك والعفريتة

ما إن جلس عدنان على الوسادة حتى أحضرت نجمة الشاي.. سكبت له فنجانًا وجلست بجانبه، تعلو وجهها ابتسامة سرقتها من نجمة حالمة في سماء ذلك المساء الجميل.. عادت بعدها إلى الموضوع الذي تركته في الصباح.. إلى حكايتها. قالت نجمة: ولدت، كما أخبروني على بعد حولي الساعة مشيًا على الأقدام من قريتنا هذه. كانت عشيرتنا كغيرها من العشائر الأخرى، تتنقل من مكان لآخر بحثًا عن الكلأ والماء، وكان والدي يملك بعض الأغنام التي كان يرعاها بنفسه ويتاجر بها. وحين كنت في حوالي الثالثة من العمر، اختفت أمي فجأة، لا ندري إذا كانت قد هربت، أم اُختطفت، أم تاهت في العتمة بعد أن خرجت لتقضي حاجتها في ليلة عاصفة انعدمت فيها الرؤية.. لم يحاول والدي البحث عنها أو اقتفاء أثرها، نسيها بعد أيام قلائل، ولم يعد يردد اسمها في البيت، وكأنها حمل صغير افترسته الوحوش في ليلة معتمة، وانتهى أمره.

حزنت على فراق أمي كثيرًا، لكنني لم افتقدها.. كان والدي لا يترك لها مجالاً لتكون أمًا لأولاده أو زوجة له.. كانت مجرد جارية لديه، تعتني بالغنم، تغزل الصوف وتكنس البيت، تحلب النعاج وتبيع حليبها للمارة، وتغسل ملابس زوجها وتعد له الطعام.. لم تسأل أجرًا مقابل ما كانت

تقوم بـه، ولـم تتوقـع كلمـة شكر أو عرفـان مـن أحـد. وقبـل انقضـاء أسبوعين على اختفائها، كـان والـدي قد تـزوج مـن امـرأة أخـرى، عـاد بها من سوق الثلاثـاء، بعد أن بـاع بعض الغنم هنـاك، واشتـرى بعض الطعـام والملابـس.. لا أدري مـن أيـن أتـى بهـا، ولا كيـف تزوجهـا. لـم يزرها أحد من أهلها أو أقاربها أو أصدقائها طوال فترة تواجدي معهم في البيت.

كانـت عائشـة، كـأمي تمامًـا، مجرد جاريـة فـي البيت، امـرأة مسـالمة، تعرف واجباتها وما هو متوقـع منهـا، لا تنـاقش زوجهـا فـي شـيء، ولا تسأله عما يفعل. لم تكن عائشة قاسية، لكنها لـم تكن حنونـة أيضًـا، لـم تحاول، ولو لمرة واحدة، أن تسألني عن حـالي، أو تأخذني معهـا إلـى واحة الغزلان لنستحم، أو تغسل لـي ملابسـي، أو تصفف لـي شـعري.. حاولـتُ التقرب منهـا أكثر مـن مرة، إلا أنهـا كانـت مشـغولة بهمومهـا، ولم تعير مشاعري أي اهتمام يُذكر.

وبعد حوالي السنتين من حضورها إلـى البيـت، وكنـت حينهـا قد قاربـت الخامسة من العمر، أنجبت عائشة الابن الأول لوالدي، وهذا جعل سـالم يغدو الطفل المدلل، وتغدو نجمة طفلة منسية تمامًا، وذلك بعد أن كانـت طفلة مهملة. كنت أعيش يومي في البراري، لا أعود إلـى خيمـة العائلـة إلا عند الغروب.. أقضي نهاري في البحث عن الخضراوات والأعشـاب البريـة، أقتـات عليهـا، وأبحـث عـن أعشـاش الحيوانـات والطيـور التـي تسكن الصحاري، أراقب مواعيد خروج الكتاكيت مـن البيض، وأتـابع نمو الصغار حتـى يكبروا ويطيروا، وأتخيل نفسـي كتكوتًـا ينتظر دوره

ليطير ويهاجر إلى حيث الخضرة والماء والهواء الطري.. كان ذلك مصدر متعة لي لا توصف، ومسيرة أمل تحفزني على مواصلة الحياة في انتظار أن أكبر وانضج، كي أطير بعيدًا عن البيت والأهل، كي أعلن تمردي على ظروف حياتي القاسية، واستنكاري لفقدان الأمومة وغياب الأبوة.. أعلن استقلالي عن التقاليد البالية، واستعدادي لاستقبال مستقبل جديد، والعيش في عالم غير عالمي البائس.

كنت أعرف كل حجر تختبئ تحته عقربة في الصحاري المجاورة، وكل شجيرة بداخلها جحر حية، وعلى أغصانها عش عصفور.. لكنني لم اقتل عقربة أو حية أو نملة في حياتي، بالرغم من أنني كنت أدرك تمامًا أن من الممكن أن أموت بعضة حية، أو بقرصة عقربة أو حتى نملة. كانت الطبيعة هي حبي الأول والأخير، والمحراب الذي أحس بالقدسية في رحابه الواسعة، وبالطمأنينة والأمان في ظلاله، وبالأمل في عيونه. كنت أحب الطبيعة حتى العبادة، أراها مصدر كل شيء جميل ومخيف ومثير، مثل العواصف الرملية التي كانت تفرض علينا أن نأوي إلى خيامنا صاغرين.. كنت أرى الطبيعة كأم حنون تظلل الليل والقمر والنجوم، ننعم في حضنها بهدوء البال، ويسرح خيالنا معها بحثًا عن كبرياء الكون وعظمة الخالق.. كنت أحس في المطر لمسة الأمل والشفاء التي يحملها الشتاء.. يغسل الهواء فيغدو نقيًا، يرطب الإزهار فتغدو أكثر رونقًا ونضارة، ويروي أشجار البراري فتغدو أكثر زهوًا واخضرارًا.

وبعد مجيء سالم بأشهر قليلة حاول والدي أن يتخلص مني.. أخذني معه إلى سوق الثلاثاء الواقع في أطراف قرية عرجان، على بعد ساعتين من مضاربنا تقريبًا. كان السوق في ذلك اليوم مزدحمًا.. مئات التجار والزوار يبيعون ويشترون ويساومون. وبينما كنت أتفحص إحدى الألعاب في السوق، خرج والدي منهمكًا، ركب حماره على عجل، وسار مسرعًا في اتجاه مضاربنا بعيدًا عن السوق.. كان على ما يبدو يريدني أن أتوه في الزحمة، وأن اختفي كما اختفت أمي. كان يدرك تمامًا أنه لن يكون باستطاعتي العودة إلى البيت دون دليل، ودون رفيق. لكنني لمحته قبل أن يختفي عن الأنظار، ركضت خلفه وأنا أصرخ بأعلى صوتي، أبي.. أبي.. لم يلتفت خلفه.. تظاهر بأنه لم يسمعني، لكنه لم يدرك أنني كنت أسرع من الحمار. وحين اقتربت منه، سمع حمارنا جبار ندائي، مما جعله يتوقف عن السير، تجمد في مكانه.. حاول والدي أن يجبره على مواصلة السير، إلا إنه رفض بعناد شديد. كان جبار يحبني لأنني كنت أحبه وأعتني به وأحرص على راحته.

وحين لحقت بهم، ترجل والدي عن حماره، حملني بين يديه دون أن يقول لي كلمة واحدة، وضعني أمامه على الحمار، ثم واصلنا السير عائدين إلى البيت.. بكيت في ذلك اليوم لسنوات قادمة. لقد كانت التجربة قاسية وآلامها حارقة، جعلتني أدرك مدى قسوة الحياة وظلم القدر.. لكن التجربة أعطتني شيئًا آخر.. أعطتني حرية كبيرة لأن أكون كما أردت أن أكون، وأن افهم الاشياء كما كانت تتراءى لي، لا

كما يراها الآخرون ويلقنونني إياها، وأن أعيش الحلم كما يصنعه خيالي، لا كما تمليه علي تقاليد مجتمعي الجاهل.

بعد تلك الحادثة، تركني والدي أعيش حياتي بكاملها في البراري، مع الحيوانات التائهة، والطيور المهاجرة، والفراشات الربيعية الزاهية، والأزهار الموسمية، والأعشاب البرية التي عرفتها الحيوانات قبل أن يعرفها الإنسان، ومن ثم قادتنا بحكمتها وذكائها إلى التعرف عليها والاستمتاع بها. الطبيعة يا عدنان هي الشيء العبقري الوحيد في هذا الوجود.. الشيء الصامد الذي يختزن حكمة كل العصور، كلما أصغينا إلى همسها وأحسسنا بأحاسيسها، كلما أعادتنا إلى منابع إنسانيتنا، وأعطتنا المزيد من قوة الخيال وعمق التأمل، لنعيش أجمل أيامنا وأكثرها متعة وصفاء وعطاء.

- مما لا شك فيه أن الطبيعة جميلة ومعطاءة، قال عدنان، إذ لولا عطائها لما كان لإنسان أو حيوان أن يعيش يوما واحدا.. لكن ماذا عن السماء والنجوم والقمر والشمس؟

- إنها جزء لا يتجزأ من الطبيعة أيضًا، فلولا الشمس لما كانت هناك حياة على الأرض، ولما كان هناك أشجار مثمرة، ولا أزهار ملونة، ولا فراشات زاهية، ولا طيور تغرد في البراري وتتراقص على الأغصان. ولولا وجود النجوم والقمر لما كان هناك ليالي جميلة، ولما كان هناك سهر وسمر وخيال وذكريات تسرقنا من همومنا اليومية وتأخذنا بعيدًا إلى عالمها الساحر، حيث يعيش الأمل، وينمو التفاؤل وينضج الخيال، وتتفجر ملكات الإنسان الإبداعية، وتتوالد الأحلام.

في يوم من الأيام، وصل إلى المنطقة التي كنا نسكنها فريق من العمال والمهندسين العاملين في مجال التنقيب عن النفط. حط أفراد البعثة رحالهم بالقرب من ديارنا، ونصبوا خيامهم حول الشجيرات التي كنت أتردد علها باستمرار. كانت إحدى تلك الخيام بيضاء اللون، كبيرة الحجم، وبجانبها عدة سيارات ومعدات حفر ضخمة، وغير ذلك من أشياء.. أشياء لم أكن أعرف عنها شيئًا، ولم تكن تعنيني في شيء. لكنني كنت أول إنسان من قاطني تلك البراري يتحرش بأفراد البعثة ويلتقي بهم.. ذهبت إليهم في صباح اليوم التالي، وكنت آنذاك قد قاربت التاسعة من العمر.. رأيت هناك أجمل رجل في الدنيا، كان أشبه بالملاك الذي تصفه عواجيز القبيلة، وتتحدث عنه الأساطير والخرافات القديمة.. طويلاً، وسيمًا، وذا شعر بلون الذهب.

تململ عدنان في جلسته، وكأنه يريد أن يقول، هل كان أكثر وسامة مني؟ إلا أن نجمة أدركت بسرعة ما كان يجول في خاطره، ولذا واصلت حديثها قائلة:

ربما لم يكن أجمل رجال العالم، لكنه بالتأكيد كان فارس الأحلام الذي رأيت في عينيه نور الهداية، وعلى وجهه سعادة بلا نهاية، وأحسست أن قلبه نبع حنان بلا غاية.. قلت له مندهشة:

- هل أنت ملاك؟ من أين جئت؟ هل جئت من السماء؟ أم من بطن الصحراء؟ ضحك بصوت مرتفع، ثم قال:

- لا يا عصفورة.. أنا لست ملاكًا.. كنت أتمنى ذلك، لكن التمنيات أحلام لا تُطال.. أنا مالك.. اسمي في الحقيقة مالك.. لكن إذا رغبت أن

تُسمينني ملاكًا فليس لدي مانع على الإطلاق، إنني أحب أن يراني الناس ملاكًا.. وأنت، ما اسمك يا عروسة؟

- لم أعرف لي اسما، يا مالك.. كانوا دوما ينادونني "العفريتة".. هذا كل ما اعرفه عن اسمي وأصلي وحسبي.

ضحك مالك ضحكة مدوية من القلب وقال:

- نعم.. أنت حقًا عفريتة، لكنك عفريتة حلوة وخفيفة الدم، بل ساحرة، وأنا طول عمري أحب العفاريت من أمثالك.. ما رأيك إذن؟ ملاك وعفريتة يقعون في الحب.. شيء لم يحدث من قبل.. إنه شيء مدهش حقًا.. من تعتقدين سينتصر في النهاية، الملاك أم العفريتة؟

- هذا سؤال بسيط جدًا.. الحب طبعًا.. إن الحب الصادق ينتصر في كل معاركه وجولاته، وكل من يخلص في الحب وللحب يكون حتمًا ودومًا من الرابحين، بغض النظر عما إذا كان ملاكًا جميلاً أم عفريتة شقية.

مد يده الطرية، جذبني إليه، أجلسني في حضنه، ثم أخذ يملس على شعري وقد تجعد من كثرة الرمال والأوساخ.. حضنته بلا وعي، وضعت رأسي على صدره، نسيت كل شيء.. استغرقت في الحلم حتى كدت أن أغفو.. شعرت معها أن مالك كان ينكمش بين يدي رويدًا رويدًا حتى أصبح طفلاً يرتجف خوفًا، يحتمي بحضن أمه، يبحث فيه عن الحنان والأمان.. كانت تلك هي المرة الأولى التي أشعر فيها بالعطف والدفء في حضن إنسان.. لقد شعرت حينئذ أن بإمكاني أن املك رجلاً جميلاً وحنونًا وقويًا مثل مالك، وأن أحوله بالحب إلى طفل وديع يبادلني الحب، ويرتاح في حضني كما أرتاح في حضنه. ومنذ

تلك اللحظة لم يعد بالإمكان أن نفترق. كان مالك بحاجة لي، وكنت بحاجة له، وغدا الحب بيننا مدادًا كالبحر، يفيض دومًا.. يعصف أحيانًا، ولكن لا يجف أبدًا.

كنت ابدأ يومي في حوالي الثامنة صباحًا في خيمة مالك.. أجده بانتظاري كي نتناول الطعام معًا، أبقى حوله ومعه حتى المساء. لقد أحبني حبًا بلا حدود أو قيود، وأحببته من كل قلبي وبكل جوانحي.. كان لي الدنيا بكل ما فيها من فرح ومرح وسعادة. ومع تواتر الأيام، نقلني مالك من حيث لا أدري، ودون أن أغادر مكاني، من عالم البوادي وفضاء العشيرة وصحراء ثقافتها القاحلة إلى عالم المدنية وثقافتها الواسعة. كنت بالنسبة لمالك الطفلة المدللة، والتلميذة المقربة، والمرأة-الأم الحنونة، ومصدر سعادة وإلهام لا ينضب. شرح لي معنى الحياة، علمني كيف استحم بالماء وفي البحيرة، كيف انضج عاطفيًا وعقليًا، كيف تشتغل السيارة، كيف ينقبوا عن البترول، كيف تعمل آلة الحفر، وكيف أقرأ واكتب. اشترى لي عشرات الكتب والمجلات من بيروت والقاهرة ودمشق. كان يقضي معي ما لا يقل عن ثلاثة ساعات كل يوم بعد انتهاء الدوام، نقضيها في اللعب والضحك، في القراءة والرسم، في الغناء وسماع الموسيقى وترتيل الشعر، وفي الحديث عن تعقيدات الحياة وتحديات المستقبل.

كان الشيء الوحيد الذي أخافني في أول الأمر، ولم يكن من السهل عليّ إدراك سره واستيعاب كيفية عمله، هو الراديو. كان من الصعب عليّ فهم معنى الموجات، وكيف تسافر الكلمات والأصوات والموسيقى

عبر موجات لا وجود لها، فالسفر الذي كنت أعرفه وقد تعودت عليه، هو السفر في الطرقات مشيًا على الأقدام، أو على ظهور الجمال والحمير. إلا أن مالك أصر على تفسير وتبسيط كل شيء لي كي افهمه وأتعامل معه بطريقة عقلانية، حتى لا تبقى الأمور البديهية والعلوم الحديثة ألغازًا محيرة.. كان يقول دومًا "لا يوجد لغز محير في الحياة غير لغز الجهل والكسل". وحين فهمت لغز الراديو، أصبح بإمكاني أن اسمع الأخبار من لندن وموسكو وبيروت والقاهرة والرياض، وغيرها من مدن عربية وأجنبية، وأن أصغي لخطابات الرئيس جمال عبد الناصر الحماسية، وأن أتابع المسلسلات الدرامية والفكاهية من محطات الإذاعة في القاهرة ودمشق. وخلال فترة قصيرة، لم يعد الراديو لغزًا، بل أصبح رفيقي وأقرب الأشياء إليّ. ومع مالك والراديو تسارعت خطاي بعيدًا عن عالم أبي وعشيرته البائسة.. عن قيمهم البالية وتقاليدهم العتيقة المهترئة، وعن أفكارهم الظلامية الظالمة، والدخول في عالم العلم والنور وفضاء الحرية.

لقد فتح لي الراديو أبواب العالم الخارجي، وعلمني أشياء كثيرة عن قضية فلسطين، عن إسرائيل وأمريكا، عن قضية الوحدة العربية، وعن الانقلابات العسكرية في سورية والعراق والبرازيل وغيرها من دول.. تعلمت من الراديو ومن مالك الكثير عن الشعر العربي، والأدب العربي، والحب والغزل في التراث العربي.. تعلمت الغناء، وأشياء عن الموسيقى والفلسفة والصحة العامة، وكيف افهم، وأحيانًا أتكلم بعض اللهجات العربية، خاصة اللهجات المصرية واللبنانية والفلسطينية. لقد

ساعدني الراديو على الانتقال الواعي من الشعور بالعجز أمام الواقع، إلى الإيمان بالقدرة على تجاوز الواقع، والثقة بإمكانية الوصول إلى عالم الحلم، حيث يعيش فارس الأحلام حاملاً راية الحب والأمل.

كنت أعود إلى خيمتنا كل مساء ومعي بعض الحلوى، وأحيانًا بعض الفاكهة أيضًا، والتي كان مالك يحضرها لي من المدينة. كانت زوجة أبي تصادر كل شيء تقريبًا.. لم يكن ذلك يضايقني، كنت أدرك أن تلك الأشياء هي طوق النجاة بالنسبة لي.. هي المبرر الوحيد الذي يجعل عائشة تسكت عني، لا تلاحقني ولا تحاول تحريض والدي على التخلص مني.. كانت الحلوى والفاكهة بطاقة الذهاب والإياب التي تسمح لي بالمرور دون التوقف أمام الحواجز المقيتة والأسلاك الشائكة على باب بيت يقدس عقم التقاليد، ويعشش الجهل فيه ويتوالد بكثرة. وحين أخبرت مالك بالأمر، قال لي إن والده علمه "أن كل ما يمكن أن يُشترى بالمال رخيص". بدأ مالك بعد ذلك اليوم يحسب حساب عائشة فيما يشترى من الحلوى والفاكهة.. وبعد مرور بضعة أسابيع على أول لقاء بيننا، بدأ مالك يعطيني خمسة ريالات كل أسبوع قائلاً: هذا هو مصروفك الأسبوعي يا عفريتتي الحلوة.. كنت أضعها في علبة بيبسي كولا فارغة، وأخبئها تحت الأرض، بجانب صخرتي المفضلة.. تلك الصخرة التي كانت عنواني لسنوات، وكانت أحيانًا وسادتي لأيام طوال وليالي كثيرة.

عودني مالك على الصبر، ومذاق الشوق.. كان يغيب ليلتين أسبوعيًا في مدينة الظهران.. يترك مساء الخميس بعد انتهاء الدوام الرسمي،

ويعود صباح السبت التالي ليجدني جالسة على مكتبه في انتظاره، أُعلم نفسي القراءة والكتابة والحساب، مستخدمة الدفاتر والأقلام والكتب التي كان يشتريها لي بدون حساب.. وأحيانًا كان يجدني أرسم أو استمع لأخبار الصباح من الراديو.. كنت افتقده كلما غاب، واشتاق إليه كثيرًا، وأعد الساعات حتى يعود. كان مالك يحبني إلى درجة العبادة، ومعجب بجمالي وذكائي وقدراتي على التعلم، وكان يعرف أنني أحبه.. وكلما ضبطته ينظر إلي نظرة إعجاب، كان يقول لي بفرح، سأتزوجك يا عفريتة، سأتزوجك حين تكبرين، لن أتركك تعودين لحياة البؤس والحرمان ثانية، ولن اسمح لنفسي بالعودة للفراغ والضياع.. إنك كل حياتي.. لقد أعاد حبك الأمل الذي كدت أن أفقده وافقد معه ثقتي بكل شيء. وهذا جعلني أكبر معه يومًا بعد يوم، وانضج في أحضانه ساعة بعد ساعة.

وفي إحدى السفريات، غاب عدنان لمدة أسبوع كامل دون أن يخبرني عن مدة وسبب غيابه، اكتشفت فيما بعد أنه قضاها في بيروت.. كدت أن افقد صوابي، وانتابني شعور عارم بالخوف والقلق لأيام وليالي بعد عودته.. إلا أنني حين رأيته نسيت كل شيء، نسيت إحساسي بالفراغ والوحدة والغضب.. قال لي حين عانقته باكية، بينما كان قلبي لا يزال يرتعد من الخوف:

- ماذا حدث لك؟ يبدو عليك أنك أصبحت نعجة وديعة بعد أن كنت عفريتة شقية.. الحياة لها متطلبات يا حبيبتي.. لا نستطيع التحكم في الكثير منها حتى وإن حاولنا.

أجبته، وقد كنت حينئذ قد نسيت نفسي تمامًا، ولم اعد اهتم بملابسي، ولا بشعري كالمعتاد:

- إذا كنت أنا نعجة، فأنت لا بد وأن تكون تيس.

- تيس، قال ضاحكًا.. أنا تيس يا عفريتة؟

تداركت الأمر بسرعة وقلت مبتسمة وقد رميت ذراعي الصغيرتين حول عنقه:

- طبعا.. إذا كنت أنا نعجة وأنت بعلي، إذن أنت تيس.. هكذا يسموا ذكر الغنم.. هل تريد أن تكون نعجة مثلي؟

- لا طبعا.. لا يا ستي.. لا أنت نعجة، ولا عفريتة، ولا أنا تيس، من اليوم فصاعد، أنا مالك، وأنت.. وأنت.. أنت نجمة، فلولاك لكان فضاء كل هذه الدنيا في عيني ظلامًا.

وفي صباح يوم من الأيام، وكان قد مضى على علاقتنا ما يزيد على ثلاثة سنوات، وجدت تحتي بقعة دم، خفت كثيرًا، لم افهم مغزى ما حدث لي.. لم يكن أمامي سوى مالك، ذهبت إليه مسرعة قبل أن اغسل وجهي، كنت مضطربة وخائفة. تلاشت ابتسامته حين رآني على ذلك الحال.. سألني مرتجفًا عما حدث، وعن سبب اضطرابي، وقد بدا عليه القلق. لكن حين أخبرته بما حدث، احمر وجهه خجلاً، ثم عادت البسمة إلى عينيه، ضحك ضحكة هادئة تسربت إلى قلبي كالعسل، دون أن افهم السبب. شرح لي الأمر، ثم قال لي:

- أنت اليوم امرأة، يمكنك أن تتزوجي وتخلفي..

قفزت من شدة الفرح حين سمعت تلك الكلمات.. قلت له:

- إذن ستتزوجني اليوم.. الآن..

عاد إلى الضحك وقال:

- لا يا نجمة، لا زلت طفلة، نعم، أنت قطة شقية ناضجة، لكن أمامك سنوات.. لا تتعجلي الأمور.. سأتزوجك حين يحين الموعد، إن لم يكن في هذه الدنيا، سأتزوجك في الآخرة.. أعدك بذلك.

حين عاد مالك من المدينة في الأسبوع التالي، وكان قد مضى على هذه الحكاية حوالي عشرة أيام، حمل لي الكثير من الأشياء والملابس الجديدة والجميلة، من بينها البنطلون الأحمر الذي لبسته ليلة أمس، إضافة إلى بلوزة مزركشة، وحذاء اسود، وملابس داخلية كثيرة.. احضر لي ما تحتاجه النساء أثناء العادة الشهرية، وعلمني كيف استعملها. انتظر مالك يومها حتى غابت الشمس، أغلق باب الخيمة بإحكام، أضاء بعض الشموع، ثم بدأ يعلمني كيف ألبس الملابس الجديدة قطعة قطعة.. كانت يداه ترتجفان وهو يُلبسني كل قطعة على حدة، بدءًا بالملابس الداخلية وحتى البنطلون والحذاء.. مرتْ يداه على كافة أنحاء جسدي، لمست كل الأعضاء، وتوقفت عند كل النتوءات والمنحنيات.. انتابني شعور غريب لم يكن بإمكاني فهمه أو التعبير عنه في حينه، إلا أنني شعرت بنشوة تمنيت أن تعيش معي العمر كله. لم أكن أفهم الجنس كما يجب.. كان على مالك والراديو أن يعلماني ذلك قبل أن استجيب لنداء الجسد في داخلي.

أخذني مالك بعدها بأشهر إلى واحة الغزلان، وكانت الشمس توشك على الاختفاء خلف التلال تمامًا.. خلعنا ملابسنا ونزلنا إلى الماء معًا..

قضينا وقتًا رائعًا، نلعب ونرقص ونغني.. يُعلمني السباحة، يحملني بين يديه، يضمني إلى صدره العاري.. لمست قضيبه بالصدفة، كان منتصبًا، اكتشفت حينئذ أنوثتي.. وبدأت هواجس الجنس تثور في رأسي، وأنغامها تنساب في عروقي. شعر مالك عندئذ بالخجل، لكنني تمنيت أن يقبلني، أن يضاجعني.. كنت قد تعلمت من الراديو معنى الجنس والشعور بالرغبة في ممارسته. لكن مالك اكتفى بتقبيل شفتي.. كانت قبلة قصيرة أولاً، تبعتها قبلة طويلة، شعرت معها بنشوة لا حدود لها، أخرجتني من عالمي الجاف الذي عرفته لسنوات عجاف، إلى عالم فسيح ساحر، يرطبه رحيق فم ينبع من حنان القلب وروحانية الوجدان.

استلقينا على شاطئ البحيرة، وكان الظلام قد نزل والقمر يطل بحياء من خلف الغيوم، وضعت رأسي على كتفه وتركت ذهني يسرح في الخيال، وضع شفتيه في وضع ملاصق لشفتي، كانت الشفاه تتلامس أحيانًا، وأحيانًا تحضن شفتيه شفتي بحنان. كانت سعادتي لا توصف، وكان هدوئه كهدوء البحيرة في ليلة صافية بلا رياح تعكر أجواء المكان، وكانت عيناه كوجه البحيرة، مرآة لنجوم الليل الساطعة ولآلئ السماء المتناثرة.

استثارت تلك الكلمات عدنان الذي ظل منصتًا طوال الوقت، أيقظت الشهوة في عروقه، مد يده برفق، لفها حول خصر نجمة، ضمها إلى صدره بقوة، وقطع عليها الحديث بقبلة عبثية طويلة، أنستها ما كانت تقول، وما كانت تبغي أن تقول.. استسلمت لنداء الجسد الذي حركته

الذكريات، وسحرته التخيلات، وعصفت به القبلات.. غرقا ثانية في بحور الغرام التائهة الهائجة، وتلاحما على نغمات آهات لم تتوقف إلا بعد أن عصر كل منهما الآخر حتى أجهده، واخرج كل ما في جسده من عرق ورحيق. غفا العشيقان بعد ذلك بعض الوقت.. وحين استيقظا كان المساء قد فرش عباءته السوداء على البيت تمامًا، معلنًا بدء ليلة جديدة من متع السعادة وسعادة المتعة.. تناولا طعام العشاء، شربا الشاي، وعادت نجمة تقص على عدنان بقية قصتها مع مالك، وتحكي تجربتها مع حبها الأول، والزوج الأول الذي ملكها دون أن يتزوجها.

وداع قبل الأوان

سألني مالك بعد خروجنا من البحيرة عما إذا كان قد انتابني شعور بالحزن أو الندم في أي يوم من أيام حياتي، وكنا في حينه مستلقيان على شاطئ البحيرة. فاجأني بسؤاله، شعرت بأن هناك شيئًا يقلقه، سألته عما يزعجه، وعما يعكر عليه صفو ذلك اليوم الجميل. أجابني بأنه لا يدري تمامًا.. لكن ربما كان السبب هو الخوف من المجهول.. الخوف من الندم على ما يحدث بيننا.. الخوف من احتمالات ارتكاب الخطايا، والخوف من عذابات الفراق والبعد. قلت له لا تخف يا مالك.. إن الخوف على الآخر هو أجمل مظاهر الحب الصادق.. إنه واحدة من الفرص النادرة التي تفتح أبواب القلوب على مصراعيها، وتكشف عن مدى قدراتنا على العطاء.. الحب للآخر والخوف على الحبيب هي فرصة عمر تعيدنا لطفولتنا البريئة.. لأحضان أمهاتنا باحثين عن الدفء والطمأنينة.. إنها فرصة لا يجوز الخوف منها أو الندم على الاستمتاع بها.. إن عليك ألا تفكر بالندم يا مالك.. الندم هو السم الذي يفسد كل متع الحياة، ويُحول سعادة الروح إلى بؤس، ويجعل الذكريات والذاكرات قبور أفراح ومآتم.

لكنني يجب أن أعترف بأنني حزنت في حياتي مرتين، وندمت مرة واحدة، وقررت بعد ذلك ألا اندم على شيء، حتى لو حزنت طويلاً،

وتألمت كثيرًا.. حزنت يوم اختفاء أمي من البيت، ويوم سوق الثلاثاء حين حاول والدي التخلص مني، وندمت كثيرًا لأنني حزنت على تلك الحادثتين اللتين لا تستحقان الحزن، وذلك لأنني لم أشعر في أي يوم من الأيام بأن أمي كانت أمًا لي قبل اختفائها، ولأن والدي لم يتصرف معي كأب في أي يوم من الأيام، حتى يوم رحيلي الأخير عن البيت مع زوجي.

لقد بكيت بحرقة حين أدركت أن أمي قد غابت ولن تعود، واحترقت حزنًا وغضبًا حين اكتشفت أن أبي لا يحبني ولا يريدني أن أكون جزءًا من حياته وعائلته، وأنه كان يرغب في التخلص مني بأي ثمن كان، مستخدمًا أسلوبًا قاسيًا ومهينًا للغاية. لم يفكر والدي على ما يبدو بما ستؤول إليه حالي حين أتوه في السوق، وتُغرب الشمس، ويجدني أحد السكارى واقفة في زاوية مظلمة ارتعد من الخوف والبرد.. لقد خفت أن أصبح مشردة بلا بيت أو أهل، تفترسني الذئاب البشرية المتوحشة قبل أن تدركني ذئاب البراري الجائعة.. لكنني أدركت بسرعة أن من لا يريدني لا يعطيني سببًا كي أريده، وأن من لا يحبني يجفف كل أنهار الحب التي تنبع من قلبي وتصب في بحيرات عينيه. أما الندم، يا مالك، فليس له مكان في قلب يتصرف بهدوء، منصتًا لصوت العقل بعيدًا عن العواطف الجياشة والأشجان العابرة. إن الندم على اقتناص فرصة للتمتع بلحظة من الحياة، أو على فراق من لا يحبك ولا يهتم بك، هو تصرف غبي لا مبرر له.. نعم.. إن من حق كل إنسان أن يغضب

ويحزن، وأحيانًا يندم، لكن أغلبية الناس تغضب بلا سبب، وتحزن بلا معنى، وتندم حين لا يجوز الندم ولا ينفع.

- هذا صحيح يا نجمة، قال عدنان، أنني اشعر أن الحزن والفرح وجهان لشعور إنساني واحد، يشكلان معًا الموجات المغناطيسية التي تجري عميقًا في اللاشعور، وتصنع الأحاسيس الرقيقة والغاضبة على السواء.

- صدقت يا عدنان، قالت نجمة.. هذا ما قلته لمالك يومئذ. مالك الذي تنهد يومها طويلاً، وحين تكلم فشل في التعبير عما كان يجول في خاطره.. كانت مخاوفه في ذلك اليوم أكبر من الفرح والحزن معًا. وبعد مرور لحظات سكون صعبة، قلت لمالك، إن من لا يعرف الحزن، لا يعرف الفرح أيضًا، ومن لا يحزن ولا يفرح يتنازل عن إنسانيته.. الفرح والحزن هما المرآة التي تعكس خفقات القلب حين يُستثار.. إنهما الصدى الذي يُسمعنا آهات النفس حين تعاني عذابات الألم ونشوة السعادة.. وحين يغيب الحزن، يفقد الفرح معناه، وحين يغيب الفرح، تصبح الحياة مسرحية كئيبة. الإنسان الذي يتعالى على الفرح ويستهزئ بالحزن، هو إنسان مفرغ من العواطف والمشاعر الإنسانية.. مكابر يخفي جهله خلف مظاهر قوة عقيمة تحاول إثبات رجولة لا مكان ولا دور لها.. إنها رجولة ضالة ومضللة تنتقص إنسانية الإنسان وتؤذي مشاعر من حوله من الناس. الإنسان الذي يتعالى على الفرح ويستهزئ بالحزن هو شخص عاجز عن معايشة

الحب وتذوق طعم العناق والفراق، وغير قادر على إدراك معنى أن يكون حبيبًا ومحبوبًا، أن يُحِبَ وأن يُحَبْ.

ضمني مالك إلى صدره قائلاً:

- أنت لست نجمة فقط، أنت حكيمة النجوم وقمرها.

ثم عاد وعصرني بقوة حتى سمعت صوت عظامي تشتكي من آلام المتعة، وتتعطر شفتاي من أنفاس ملتهبة حملتها موجات الحب التي تسافر عبر الشرايين المرتعدة، ويبلل الدمع عيني من فرحة النهد وقد انتشى في انتظار القبلة الأولى. وبعد أن قبل نهدي وعانقي بحرارة، ورشف كل ما كان في فمي من رحيق، خفت قبضته، استرخى جسده، وغاب في عالم آخر. أدركت مغزى ما حدث، تمنيت أن يضاجعني، إلا أنني لم أملك في حينه ما يكفي من الشجاعة لأعبر له عن رغبتي في ذلك.. حرمني الخجل من حرية التعبير عما كان يدور في رأسي، وعن طلب ما كانت تشتهيه نفسي، ومن فرصة عمر لم تتكرر.

وحين هممنا بمغادرة البحيرة، قلت لمالك شكرًا يا حبيبي.. قلتها لأول مرة في حياتي.. قالها القلب دون استشارة العقل، فالحب يعيش حياته متشردًا، وحين يأتي يكون متمردًا، لا يستشير أحدًا، لا يطرق بابًا، لا يعلن زمن الوصول، ولا يستأذن أحدًا بالدخول.. الحب، يا عدنان، هو الشعور بالارتياح للآخر دون سبب، والشوق له بلا ميعاد، والسعادة بين أحضانه دون خوف، والاطمئنان إليه بلا رهبة.

كان قد مر على علاقتنا حوالي ستة سنوات حين أخذني مالك في سيارته في رحلة طويلة إلى مواقع التنقيب عن النفط، وإلى وادي

الظبيان، ومن ثم إلى شاطئ البحيرة.. كان يسوق سيارته صامتًا، يسير ببطء على غير هدى، كأنه ضل طريقه ولا يدري كيف يعود إلى بيته.. كان يبدو عليه القلق والحزن والاضطراب. سألته عما يُقلقه، وعما يُحزنه، وقد بدأ القلق يتسلل إلى قلبي، والحزن يسرق البسمة من عيني، والدمع يبلل خدي وشفتي.. لكن مالك لم يجب.. لمحت الدموع تتساقط من عينيه في صمت كئيب، طلبت منه أن يعود بنا إلى الخيمة.. جلسنا هناك طويلا قبل أن يتكلم.

قال لي مالك أنه يشعر بالحزن والقلق لأنه لن يراني لمدة ثلاثة شهور متتالية.. قال إنه سيسافر في اليوم التالي إلى أمريكا في دورة تدريبية، وأنه كان يتمنى أن أسافر معه، لكن الظروف لا تسمح له بذلك، وذلك لأنني لست زوجته كي أرافقه، وأن صغر سني لا يسمح له بالزواج مني.. ثم أضاف:

- سأفتقدك كثيرًا يا عفريتة.. أنت نجمتي التي أضاءت طريقي في هذه الصحراء المظلمة، والأمل الذي جعل لبقائي في هذه البلاد معنى، والمستقبل الذي جعل لحياتي هدف أسعى إليه.. أعدك أن ارجع بسرعة، لن أغيب طويلاً، ولن أنساك لحظة. كان مالك يتكلم والدموع تنهمر من عينيه بغزارة، كأنها نهر انتظر طويلاً موسم الفيضانات ليغمر كل ما حوله من حدائق وشطآن، ويروي أشجارها لسنوات قادمة.

قلت له:

- سأنتظرك يا مالك، لا تقلق عليّ، سأحضر إلى الخيمة كل يوم، أجلس على مكتبك الأنيق كالمعتاد، وأكتب لك رسالة حب. سأتعلم كيف تُكتب رسائل الحب.. كيف يُترجم القلب مشاعر الحب فيه إلى كلمات رقيقة يرسمها على الورق، وكيف تتفاعل العواطف الجياشة مع الصور المعلقة على أطياف الخيال.. سأتعلم كيف تتراءى الأزمنة في ساعات الوحدة.. وحدة النفس في بحار الغربة، واغتراب الروح في سراب الأمل.

استمرتْ المناجاة بيننا حتى غلبنا النعاس ولم نعد قادرين على الكلام.. وضعت رأسي على كتفه، ولم استيقظ إلا في حوالي العاشرة من صباح اليوم التالي. كان مالك في حينه قد انتهى من ترتيب ملابسه، وأعد حقيبة سفره، وكان الفطور شبه جاهز. غسلت وجهي بسرعة ودون اكتراث، جلسنا على طاولة الفطور في حالة اكتئاب وصمت، لم يقطعه سوى صوت قدوم السيارة التي كانت ستقل مالك إلى مدينة الظهران على الطريق إلى بيروت، المدينة التي عشقها مالك بقدر ما عشقني، ومنها إلى مدينة هيوستن في ولاية تكساس، عاصمة البترول.. تلك المدينة الحديثة المترامية الأطراف التي تعتبر العقل المفكر والمركز المدبر لصناعة النفط في العالم.. كان الوداع قاسيًا، لكنه كان سريعًا، لم يترك لنا فرصة البكاء طويلاً.. فالحزن حين يكون شديدًا، لا يترك مجالاً واسعًا للدموع كي تنهمر، ولا للآهات التائهة كي تجد نفسها وتعبر عن ذاتها.

وقبل أن يغادر مالك الخيمة لآخر مرة، أعطاني ثلاثة أشياء ثمينة: رزنامة لأعد الأيام وأحصيها يومًا يومًا حتى يعود، ومبلغًا كبيرًا من المال يغطي كل احتياجاتي لسنوات وليس لأشهر كما قال، وجهاز الراديو الذي غدا صديقًا حميمًا مُقربًا، كي يستمر تواصلي مع العالم في غيابه.

ذهبت يوم السبت التالي كعادتي إلى خيمة مالك، أريد أن أوفي له بوعدي، أن اكتب له رسالة حب تعبر عن مشاعري، إلا أنني فوجئت بوجود شخص آخر يجلس على مكتبه.. مهندس جديد عابس الوجه، تسلم مهام مالك في غيابه. كان استقبال المهندس عادل فاترًا للغاية، بل غير ودي، سألني عما أريد.. أعطيته فكرة عن علاقتي بمالك.. هز رأسه بلا اكتراث وقال، إن عليك أن تنتظري مالك حتى يعود ليكون باستطاعتك دخول الخيمة واستخدام المكتب ثانية، لا يمكنني أن اسمح لك بالمجيء هنا بعد اليوم. ثم طلب مني أن أغادر أرض المخيم، وألا اقترب منه أبدا، وألا أتكلم مع العاملين فيه. كان عادل هو الشيطان الذي لم يستطع أن يتعايش مع العفريتة.

ومع غياب مالك، توقفت الحلوى والشيكولاتة والفواكه، وبدأت عائشة تنظر إليّ وتعاملني كعبء لابد من التخلص منه، وبدأ أبي يراقبني عن كثب، ويتحرش بي، كأنه يخطط للاعتداء علي واغتصابي. قال لي ذات يوم أنه حين تزوج أمي لاحظ أن بطنها كان كبيرا، وأنها ربما كانت حامل، مضيفًا أنه لا يعتقد بأنني ابنته. لذا قال بأنه سيعتبرني منذ ذلك اليوم جارية عنده، كغيري من الجواري في بيوت الأثرياء والأقوياء،

وأن علـيّ أن أفهـم مغـزى ذلـك، وأن أتصـرف بنـاء عليـه. خفـق قلبـي مرتعدًا، شعرت بأنـه سقط فـي بئـر عميـق بـلا قعر، ولـم يعد يـدق فـي صدري كالمعتاد.. غمرني خوف عارم سرق النوم من عينـي.. لـم أغفو في تلك الليلة ولو لدقيقة واحدة.. قضيت الوقت فـي التفكير، والبكـاء، ومناجاة مالك. لكن قبل بزوغ الفجر كنت قد توصلت إلى حيلة استطعت من خلالها أن أخرج نفسي من المأزق الذي وضعني والدي فيه.

فـي صباح اليـوم التـالي، وبينمـا كانـت عائشـة مشـغولة خـارج البيـت، فاجأت والدي بشـيء لـم يكـن يتوقعـه.. قمـت بحضـنه وتقبيلـه والسماح لدموعي بأن تبلل خديـه، ثـم أشرت عليـه بضرورة سؤال العرافـة عمـا إذا كنت ابنته أم لا، وذلك قبل أن يعاملني كجارية في بيته، وكلمتـه عن الحـلال والحـرام ومـا قـد يصـيبنا مـن إثـم.. وافـق علـى اقتراحـي علـى مضض، وقال بأنـه سيأخذني معـه يـوم الجمعـة القـادم إلـى عرافـة كانـت تعـيش فـي قريـة السـعدية.. صـحوت فـي صـباح اليـوم التـالي مبكـرًا.. ذهبـت إلـى السـعدية مشـيًا علـى الأقـدام.. حكيـت للعرافـة حكـايتي مـع والدي، وأعطيتها مئة ريال لاحمي نفسي من شبح الجريمـة، ووعدتها بمائـة ريال أخـرى بعد انتهـاء زيارتنـا لهـا. وحـين وصـلت مـع والـدي وجلسنا أمام العرافة بعد يـومين، لاحظت أنـه كـان يغمزهـا، ويلـوح لهـا بورقـة الخمسـين ريال. لكنـه تنهـد طـويلاً وعميقًـا، وبـدت علـى وجهـه علامات الحزن والأسى حين قالت لـه العرافـة: هـذه ابنتـك يـا شـيخ، مـن لحمـك ودمـك، وأن مـن واجبـك حمايتهـا، والعنايـة بهـا، وتربيتهـا علـى خير وجه، وتزويجها لرجل صالح.

عدت، وقد خلصت نفسي من تحرشات أبي، إلى حياتي السابقة، حياة التشرد في البراري، أعاشر الحيوانات الضالة بشغف، أُقبل الأزهار البرية بحنان، أعانق الفراشات الملونة عن بعد، واذهب بين الحين والحين إلى واحة الغزلان، استحم في مياهها العذبة، اجلس الساعات هناك وحيدة، اقرأ واكتب واسترجع ذكريات الماضي، أراقب الطيور المهاجرة، وأحسدها على ما تتمتع به من حرية وحب للحياة.

كانت نجمة تتكلم بهدوء، ولكن بانفعال وشعور عميق بالحزن.. لم تنتبه لعدنان الذي لم يتماسك نفسه، ولم يستطع أن يحجب الدموع التي أغرقت عينيه، وتسللت إلى خديه وشفتيه لتفسد مذاق بقايا رحيق نجمة في فمه. وحين انتبهت نجمة لما كان يعيشه عدنان في تلك اللحظات، ألقت بجسدها على صدره، وأخذت تبكي بصوت مسموع. وبعد أن هدأت قليلاً، استطردت في الحديث.. أرادت نجمة أن يعرف عدنان تفاصيل الحكاية، عذابات الحب والحزن والغواية، عله يساهم في كتابة النهاية.. كانت الدموع التي ذرفاها في تلك الليلة دون وعي، تودع ذكرى حزينة، وتستقبل وعودًا تائهة جميلة.

عدت بعد انقضاء الشهور الثلاثة إلى خيمة مالك أسأل عنه. كان الحارس هو أول من التقيت به، حيث خاطبني قائلاً:
- إن المهندس عادل يبحث عنك منذ يومين، وأنه يريد أن يتحدث معك في أمر هام.

انتظرت عادل حتى عاد من الحقل.. صافحني بهدوء.. طلب مني أن أتبعه إلى داخل الخيمة.. جلس على الأرض، ودعاني للجلوس إلى جانبه.. طلب لي علبة بيبسي كولا باردة، لاحظت على وجهه علامات الحزن والألم والاضطراب، وفي عينيه آثار دموع، سكت قليلاً، التقط أنفاسه قبل أن يتكلم..

- يؤسفني أن أخبرك يا نجمة أن مالك مات في حادث سيارة في ظل ظروف غامضة، وذلك قبل انتهاء الدورة التدريبية بأسبوع واحد فقط. ليس هناك شخص يعرف سبب الحادث، ولا كيف مات مالك، ولا حتى مصير جثته.. يقال أنها احترقت.. إن مالك لن يعود إلينا أبدًا.. لقد كان مالك قدوة وأستاذًا لنا جميعًا، كان مهندسًا عبقريًا، رجلاً شهمًا، وصديقًا مخلصًا - قالها عادل والدموع تتساقط من عينيه بغزارة، وصوته يتحشرج ويختنق، وجسمه يرتعد.

لا أدري ماذا أقول لك يا نجمة أكثر من هذا.. لقد وصلت رسالة من مالك قبل يومين، كان قد كتبها لك منذ عشرة أيام، يعبر فيها عن مشاعره الجياشة نحوك.. لقد فتحتها وقرأت بعض ما جاء فيها.. كان مالك يحبك حتى العبادة.. لقد كنتِ كل شيء في حياته.. ربيع حياته الأبدي الذي لم يتوقف لحظة عن الإزهار، وشمس شتائه الدافئة التي لم تغيب عن أيامه ولياليه أبدًا.. كاد حبه لك يا نجمة أن يدفعه إلى قطع دورته الدراسية، والعودة إلى السعودية مبكرًا.. ليته فعل ذلك يا نجمة.. ليته فعل ذلك.. كان مالك على ما يبدو، ودون وعي، يحاول استباق القدر، إلا أن القدر كان أسرع منه.

قلت لعادل في لهجة تقارب الجنون:

- لا يمكن أن يكون مالك قد مات.. مالك سيعود.. لقد وعدني أن يعود وأن يتزوجني.. قال لي سأتزوجك يا عفريتة، إن لم يكن في هذه الدنيا، فسوف أتزوجك في الآخرة.. هل ذهب مالك إلى الآخرة؟ أخبرني يا مهندس.. إنني على استعداد لأن أموت اليوم، هذه الساعة، كي الحق به هناك.. في الآخرة وأتزوجه.

- لا أدري أين ذهب مالك.. لا أحد يدري أين يذهب الإنسان حين يموت، يا نجمة.. إننا نعرف قبر الإنسان حين ندفنه بأيدينا.. لكن حين يحترق الجسد، لا يكون للإنسان قبر يُزار، ويمكن لنا أن نضع إكليلا من الزهور عليه.. لا يوجد لمن يحترق في هذه الدنيا قبر يؤويه، ولا تراب يواريه، ولا قريب أو حبيب يحمله إلى مثواه الأخير ويبكيه. لقد عاش مالك مغتربًا في وطنه، ومات حزينًا ووحيدًا في غربته.. لقد أُضيف اسم مالك اليوم لأسماء العشرات من العلماء العرب الذين ماتوا خلال الفترة الأخيرة في مختلف دول العالم في ظل ظروف غامضة تكتنفها الريبة.. البعض انتحر، والبعض مات في حادث سيارة، والبعض اختفى ولم يعثر له على أثر.. لقد سقطوا كأنهم أوراق خريف عصفت بهم رياح عاتية لا ترحم.

وبعد أن هدَأ من روعي قليلاً، ضمني المهندس عادل إلى صدره، يواسيني وأواسيه، ثم قال لي:

- لقد ترك مالك خلفه بعض الأشياء الصغيرة حين غادر الخيمة لآخر مرة.. نعم.. إنها أشياء صغيرة، لكنها ذات مغزى كبير.. شواهد على

ذكريات جميلة وحزينة في آن واحد، لا تكتمل الحياة بدونها، ولا يكون للحياة طعم في غيابها. لقد قررت بعد الاطلاع على رسالته إليك أن أسلم تلك الأشياء لك.. أُسلِمُها للإنسان الذي وهب مالك السعادة والحنان وجعل لحياته معنى حين كان في أمس الحاجة لذلك.. لقد كنتِ يا نجمة أقرب الناس إليه وأحبهم إلى قلبه، ومصدر إلهامه وسعادته الوحيد.. وهذا يجعلك في نظري أحق الناس في كل شيء خلفه مالك من بعده، أحق الناس في تركته، وثروته، وأحلى ذكرياته.

وبعد أن سكت طويلاً، وضع يده على كتفي، ثم مسح دموعي بمنديل ورقي وقال:

- كثيرًا ما يموت الإنسان منا ويَرِثُه من لا يحبونه، ومن لا يكترثون لموته، ومن لا يحزنون على فراقه، ومن لا يتذكرونه بعد ذهابه. وأحيانًا يَرِثُه من يتمنون فراقه وينتظرون موته بفارغ الصبر..أما من يحبونه ويقدرونه ويتسابقون على خدمته ويعتنون به عند الحاجة، فنادرًا ما يحصلوا على شيء.. تفضلي يا أميرة، هذه هي أشياء مالك، هي اليوم ملك لك، إنها رسالة حب أخيرة من قلب مالك إلى قلب معبودة مالك.

أخذتُ أشياء مالك وعدت إلى صخرتي التي تذكرني دومًا بأنني لازلت في مكاني، لم أضل طريقي، ولم يتغير حالي.. الصخرة التي تهديني، وتحنو عليّ، وتطمئنني وتريح بالي كلما عصفت بي عاصفة جديدة. فتحت الكيس الذي تسلمته من المهندس عادل، وتفحصت ما كان به من أشياء.. وجدت العديد من الأوراق التي خطها مالك بعناية، عدة

رسائل حب، خواطر تتحدث عن المستقبل، مستقبلنا معًا، لوحات فنية رسمها لي كأجمل ما تكون عليه اللوحات والصور، ساعة يد، وبعض النقود. أعدتها إلى الكيس، وهناك ضممتها إلى أشيائي الأخرى، دفنتها إلى جانب الصخرة وطلبت منها أن تحرس ثروتي وذكرياتي. حملت الراديو الذي أصبح منذ ذلك اليوم ملكي ورفيقي الوحيد، وحلقة الوصل التي تربطني بالعالم. عدت إلى البيت محزونة، مضطربة، تائهة، أترنح بين رغبة في الموت ويأس من حياة قاسية، ونظرة تأملية عميقة تغوص في أعماق الطبيعة، تفلسف ما حدث، وتعيدني إلى رشدي في انتظار يوم جديد.

وهنا نهق صابر، وكأنه أراد أن يواسي نجمة ويعزيها بفقدان مالك، إلا أن عدنان سارع لإسكاته خوفًا من افتضاح أمرهما. كما سارعت نجمة بإحضار بعض الطعام والشراب له. وحين اطمأنا إلى هدوء صابر وعودته إلى النوم في الزاوية المخصصة له، قالت نجمة لعدنان:

- دعنا نشرب الشاي ونأكل بعض حبات التمر قبل مواصلة الحكاية.. حكايتي مع زوجي بعد أن انتهت حكايتي مع مالك.

المتاهة

بعد أسابيع قليلة من موت مالك، مرّ رجل عجوز بمضاربنا، كان في طريقه إلى قرية وادي الظبيان، هذه القرية التي تحتضننا اليوم، عائدًا من سوق الثلاثاء.. توقف أمام بيتنا، ترك أغنامه تتجول على هواها، وترجل عن حماره. يبدو أنه قد أُعجب بجمالي حين رآني جالسة أمام الخيمة، أراقب الطيور المهاجرة، واحلم مع بوادر الغروب وقد أخذت الشمس تستعد للهروب خلف رمال الصحراء. طرح السلام عليّ، وطلب مني بعض الماء. خرج والدي في الحال حين سمع صوت رجل غريب، سأله عما يريد، وعن وجهة سيره، وعن اسمه واسم عشيرته.

قال الرجل بهدوء إن اسمه الأمين بن سفيان، وأنه في طريقه عائدًا إلى بيته في قرية وادي الظبيان بعد رحلة موفقة للسوق. دعاه والدي إلى الجلوس، ثم سأله عما إذا كان يرغب في بيع ما كان لديه من أغنام.. أجابه قائلاً:

- بكل تأكيد.. أنا تاجر، ومهنتي هي الشراء والبيع وتحقيق الأرباح، إذا دفعت لي ثمنًا يزيد عن ثمن الشراء، ويعوضني عن مشقة السفر، فسأبيعك ما عندي من أغنام.

كان والدي يتحدث منذ مدة عن رغبتـه فـي شراء المزيـد مـن الأغنـام، وحـين سـأل أبـي الأمـين عن ثمـن الغنمـة الواحـدة، أجابـه بأنـه يبيعها بخمسـين ريـالاً.. اسـتكثر والـدي الـثمن، ولـذا عـرض علـى الأمـين أن يشتري منه خمسة غنمات بمائة ريال.. رفض الأمين العرض بشدة، إذ اعتبره إهانة له.. استدرك والدي الأمر، وقد أحس بسوء ما فعل. قال للأمين تعطيني خمسة غنمات، وأعطيك شيئًا أفضل من المال بكثير.. المال يذهب والرفيق يبقى.. أعطيك هذه البنت الجميلة، ابنتي الوحيدة، تجدد لك شبابك، وتقوم على خدمتك، وتسليك في ليالي البرد والوحدة. وبعد فصال وجدال، وأخذ ورد، اتفقا على أربع غنمات.

كانـت المفاوضـات تجـري، بينمـا كنـت أقـف مشـدوهة، لا حـول لـي ولا قـوة، ولا رأي لـي فـي صـفقة تجاريـة أمثـل فيهـا بضـاعة باخسـة لا تساوي سوى بضعة غنمات بائسـة.. كنـت بالنسبة لوالـدي اللعنـة التـي حـان وقـت الـتخلص منهـا، وجـاءت فرصـة اغتنامهـا والحصـول مـن ورائها على ثمن جيد. وبعد أن استلم أبي غنماته من الأمين، نظر إلـيّ نظرة طويلة فيها الكثير من الحسرة، ثم قال موجهًا كلامه للأمين: أنـي أهبك ابنتي، واطلب منك أن تعتني بها وتحسن معاملتها.

ولكـن قبـل أن نغـادر المكـان، وبينمـا كـان الأمـين يشـرب القهـوة مـع صهره الجديد، استأذنت منـهم.. طلبت بعض الوقت لأودع أصدقائي.. ذهبـت مسـرعة أودع الحشـرات والفراشـات والأزهـار البريـة التـي أحببتها من كل قلبي، وقضيت معها سنوات عديدة من عمري.. سنوات جميلة وبائسة على السواء، ثم عرجت علـى صخرة الأحزان والإيمـان

التي لم أكن أجد الاطمئنان والأمان إلا في أحضانها.. ودعتها وذرفت بعض الدموع، ثم أخرجت ما كنت قد دفنته بجانبها من أشياء وشواهد على ذكريات حب يعشش في القلب.. وضعت تلك الاشياء في عبي، وعدت إلى حيث كان ينتظرني الأمين. لم تخرج عائشة لوداعي، لم يعانقني أبي، لم يتمنى لي حظًا سعيدًا، لم يعد بزيارتي، ولم يطلب من الأمين أن يسمح لي بزيارة البيت والأهل قريبًا.

وحين حملت الراديو وهممت بالسير خلف الأمين، استوقفني أبي وأخذ الراديو من يدي. سألته عن السبب.. لم يجبني على سؤالي. لذا قلت له لن اترك هذا المكان حتى لو قتلني إلا ومعي الراديو.. صعق أبي.. كانت هذه أول مرة أتحداه.. رأيت الشرار يتطاير من عينيه.. تخيلت للحظة أنه سيقتلني.. لكن أبي كان قد استولى على الراديو ليساوم الأمين من جديد، حيث طلب منه غنمة أخرى أو ٤٠ ريالا.. وبعد جولة مساومات جديدة حصل أبي على ٣٠ ريالاً إضافية، وذلك بعد أن هدد بإلغاء الصفقة. كنت أتمنى أن تفشل الصفقة، لكنني كنت أدرك تمامًا أن أبي، بعد أن عجز عن إيجاد مبرر لاغتصابي، لم يعد يطيق وجودي في بيته، أو حتى بالقرب منه، ولذا كان على استعداد للتخلص مني دون مقابل. كان والدي يهاب الراديو كثيرًا ولا يرتاح إليه أبدا، لكنه اكتشف في ذلك اليوم أن الراديو شيئًا ثمينًا يمكن أن يساومني ويساوم غيري عليه. ركب الأمين حماره، علقت الراديو حول عنقي، وسرت خلفهما على الأقدام حوالي الساعتين قبل أن نصل إلى هذا البيت، بعد غروب الشمس بساعة تقريبًا.

بقيت الأشياء التي ورثتها عن مالك مدفونة في مكانها، تحرسها الصخرة، حتى جاء اليوم المشئوم الذي صادر فيه زوجي حريتي، وخطفني من حياتي في البراري في صحبة الأزهار والطيور والفراشات، وحملني مع أحزاني وذكرياتي وأشيائي العزيزة إلى وادي الظبيان. وحين وصلنا هنا غافلت الأمين أثناء الليل، وقمت بدفن أشيائي في تلك الزاوية من ساحة البيت، في انتظار اليوم الذي ارحل فيه من هذا المكان وأغادره إلى الأبد.. لقد أخرجتها البارحة من مكانها قبل وصولك وصابر بساعات، لأنني كنت قد قررت الرحيل، ولن تمضي ساعات حتى أودع قرية وادي الظبيان، وأراها لآخر مرة في حياتي.

سألت الأمين بعد أن وصلنا إلى بيتنا متى سنتزوج على سنة الله ورسوله. أجاب الأمين بأنه ليس هناك مبرر للزواج.. الشرع يعطي للرجل الحق في أربع زوجات وما تستطيع أيمانهم أن تمتلك من النساء.. ثم أضاف قائلاً:

- إن أباك وهبني ابنته مقابل ما أعطيته من أغنام ومال، وأنت لذلك تدخلين ضمن ما ملكت أيمانهم.. لقد اشتريتك من أبيك.. أنت الآن جارية لدي، ويحق لي أن أضاجعك متى أردت وكيفما رغبت دون زواج رسمي..

وهكذا كان.. إنه زوجي، ولكنني لست متزوجة. وبعد فترة سكون لالتقاط الأنفاس، وعناق حار، تابعت نجمة حديثها قائلة:

- هل تعلم يا عدنان أن بالإمكان أيضًا أن تكون هناك امرأة متزوجة، ولكن بدون زوج بالمعنى الحقيقي للكلمة؟

- نعم، لقد سمعت منك هذا الكلام في الأمس، لكنه يبدو من المستحيلات؛ أن تكون امرأة متزوجة دون زوج؛ متزوجة شبحًا مثلا؟ لقد فهمت بصعوبة كيف أن من الممكن أن تكون هناك فتاة لها زوج دون أن تكون متزوجة رسميًا وتبعًا للتقاليد، لكن أن يكون هناك امرأة متزوجة دون أن يكون لها زوج، فهذا أمر من الصعب استيعابه أو تصديقه.. فمن يكون الزوج.. شيطان أو جني كما يقولون أحيانًا؟

- نعم يا عدنان.. إنه شيطان، ولكنه شيطان في صورة رجل.. يبدو عليه أحيانًا مظاهر التحضر.. دعني أشرح لك كيف أن ذلك ممكننًا، بل اعتياديًا في ديارنا. لا اعتقد إنك سمعت من قبل بزواج المسيار. يتم زواج المسيار بين امرأة ورجل، تكون المرأة عادة ميسورة الحال، وفي الغالب مطلقة أو أرملة أو فتاة فاتها قطار الزواج حسب التقاليد. أما الرجل، فيكون عادة متزوجًا ولا يريد أن يضيف لأعبائه الاجتماعية والمالية والأسرية عبئًا جديدًا. لذا يتم الزواج بشكل شبه سري، لا يعلم به أحد من أفراد عائلة الزوج أو أفراد عائلة الزوجة سوى أسرة المرأة والمقربين من جيرانها. ومن شروط هذا الزواج، أن تتعهد المرأة بالإنفاق على بيتها بنفسها، أو أن يتعهد أهلها بالإنفاق عليها، وأن توافق على الاستمرار في العيش مع أهلها أو في بيتها، وأن يأتيها الزوج بين الحين والآخر في ساعات النهار أو الليل التي يختارها، والمواعيد التي لا تتعارض مع متطلبات حياته العائلية

والعمليـة المعتـادة، حيـث يقضـي معهـا مـن الوقـت مـا تحتاجـه عمليـة المضـاجعة، وربمـا الأكـل أيضًـا والمسـامرة أحيانًـا. وفـي الواقـع، تكـون المـرأة فـي هـذا الـزواج مجـرد عشـيقة يسـتوفي زواجهـا المتطلبـات الشرعية، لكنه يفتقد المتطلبات الاجتماعية والأسرية.

إن صديقتي التي زرتها في الأمس مودعة كانت قد تزوجت علـى هذه الطريقـة لأول مـرة قبـل عـامين تقريبًـا، لكـن بعـد زواجهـا بعـدة أشـهر، رحـل أهلهـا عـن قـريتهم واسـتوطنوا أطـراف وادي الظبيـان، خلـف المدرسة. وهذا اضطرها طبعًا للرحيل معهم دون علم زوجهـا الـذي لـم يكـن بالإمكـان الاتصـال بـه حـين حـان موعـد الرحيـل.. وهكـذا وجـدت نفسها بدون زوج، متزوجة مـن الناحيـة النظريـة والشـرعية، لكـن دون أن يكـون لهـا زوج مـن الناحيـة الفعليـة، ممـا فـتح لهـا المجـال لتتـزوج ثانية. وبالفعل، حين استقر بها وبأهلها الحال فـي وادي الظبيـان، وكـان قد مر على وصولهم إليهـا حـوالي السـنة، وجـد لهـا أهلهـا زوجًـا جديـدًا مـن عمـال التنقيـب عـن الـنفط الـذين يـزورون القريـة مـرة كـل أسـبوع لشراء حاجاتهم الحياتية، اسمه صـالح، حيـث زوجوهـا لـه دون التفكير بضـرورة الحصـول علـى طـلاق رسـمي مـن زوجهـا الأول الـذي لـم يعد بالإمكان الاتصال به. لكن الزوج الجديد انقطع عن المجـيء إلـى القريـة فجـأة ولـم يكـن قـد مضـى علـى زواجـه بسـلمى سـوى شـهرين. وحـين أرسل والد سلمى ابنه إلى الموقع الذي كان يعمل فيه صالح ليسـأل عن أخباره ويستفسر عن سبب هجرانـه لزوجتـه، أخبـره مـدير الموقـع بـأن صـالح ذهـب إلـى المدينـة منـذ أسـابيع ولـم يعـد. وهكـذا أصـبحت سـلمى

متزوجة مرتين، وليس لها زوج واحد. لقد أهمل أهلها أمر الزوج الأول وضرورة الحصول منه على قرار بطلاقها، ولم يكترث زوجها الثاني بأمر طلاقها حين قرر هجرانها والاختفاء عن الأنظار.

- هذا شيء من الصعب قبوله.. علاقة زوجية تقوم على الجنس فقط، ولا يترتب عليها التزامات مالية أو اجتماعية من قبل الزوج، لم اسمع بمثل هذا الزواج من قبل.. تنهد عدنان طويلا ثم قال:

- كفى عن زواج المسيار.. أريد أن اسمع بقية القصة.. قصة حياتك أنت، وليس قصة حياة صديقتك.. ماذا حدث بينك وبين الأمين؟ وكيف تعرفت على أبو أحمد؟ إنني متشوق لسماع بقية الحكاية.. أرجو أن تكملي الحديث.

- بعد أن استقر بي الحال في وادي الظبيان بأيام، قمت بالتعرف على معالم القرية، ذهبت إلى المدرسة، ودخلت على مديرها مكشوفة الوجه دون استئذان، وطلبت من أبو أحمد أن يسمح لي بحضور الدروس ومواصلة التعلم. قلت له إنني أعرف القراءة والكتابة، لكنني لا أجيد الكتابة تمامًا، وذلك لأنني لم أتعلم ما يكفي عن آداب اللغة العربية وقواعدها. فوجئ أبو احمد بطلبي، والذي كان أغرب طلب يسمعه في وادي الظبيان، وربما في حياته. قال أبو أحمد:

- لا استطيع أن أسمح لكِ بدخول أي من غرف الدراسة.. هذه مدرسة للأولاد فقط، وليس لدينا مدرسة للبنات في القرية.. وإذا سَمَحتُ لك بحضور الدروس فلن يقبل أهالي القرية بذلك، خاصة وأنك أكبر سنًا

من كل أولاد المدرسة، كما أن من المؤكد أن ترفض الحكومة تصرفًا كهذا بشدة، وقد تطردني من وظيفتي.

تمسكت بطلبي.. قلت له:

- لن أقبل أن يحول بيني وبين المزيد من العلم عائق.. إنني أريد من أبو أحمد، الأستاذ المخلص والمربي الفاضل، أن يجد لي طريقة تمكنني من مواصلة التعلم، وأنا متأكدة من أنه قادر على ذلك.

استمر الأخذ والرد فيما بيننا دقائق.. شعرت بعدها أن كلمات أبو أحمد بدأت تعكس إعجابًا بجرأتي ورغبتي في التعلم، وربما بجمالي أيضًا. لذلك قال لي دعيني أفكر في الموضوع بعض الوقت، وأرجو أن تكوني قد أخذت موافقة ولي أمرك على مواصلة التعلم. طبعًا لم أجبه على ذلك السؤال، إلا أنه لم يكرره فيما بعد، وكأنه أدرك طبيعة ظروفي غير العادية، ومدى إصراري على تجاوز تلك الظروف من خلال إعادة تشكيلها بمساعدته وتعاونه.

عدت إلى المدرسة بعد يومين.. استقبلني أبو أحمد بابتسامة كبيرة وفرح، وكأنه كان ينتظرني بفارغ الصبر.. قال لي على الفور:

- اتبعيني.. سآخذك إلى البيت، بيتي المتواضع بالطبع، لقد أخبرت زوجتي أم أحمد عنك، إنها معجبة بشجاعتك وإصرارك على مواصلة الدراسة والتعلم، وإنها تريد أن تتعرف عليك.

كانت اللحظة الأولي التي التقيت فيها مع أم أحمد بداية رائعة لصداقة حميمة، تعمقت مع الأيام، واستمرت وفية حتى يومنا هذا كأجمل ما تكون عليه الصداقات.

ومع بداية اليوم التالي أصبحتُ تلميذة أم أحمد الوحيدة، وصديقتها المخلصة، ورفيقتها التي تحرص على التواجد معها أطول وقت ممكن، علمتني أم أحمد دروس الحساب والإعراب والطبخ الفلسطيني بينما كنت أساعدها في تنظيف البيت، وفي إعداد الطعام، خاصة يوم الجمعة.. يوم المقهى ووجبة الغداء. لقد حكيت لها ولزوجها قصتي مع أبي، ومالك، والأمين، وعذابات قلب لم يفارقه الألم.. سأفتقد أم أحمد كثيرًا يا عدنان، ولن أنسى فضلها وكرم زوجها أبدًا.. كانت تعلمني دون كسل أو ملل، وكان أبو أحمد يجمع الكتب والمجلات والجرائد التي يتركها زوار المقهى خلفهم حين يغادروا وادي الظبيان ويحضرها لي. لا أدري كيف ستستطيع أم أحمد التوفيق بين العناية بأحمد وأبو أحمد، وتستمر في الوقت ذاته في إعداد وجبة طعام لحوالي ثلاثين شخصًا كل جمعة.. إنها مسؤولية كبيرة.. ليتني كنت استطيع مساعدتها، لكنني لن استطيع بعد اليوم.. لا استطيع حتى وداعها. إن غيابي سيحرمها مني وسيحرمني منها، لكن المستقبل لا يكترث لمن يغمض عينيه وينغمس في الحاضر ويستسلم له. حين يختار الإنسان المستقبل يغدو الحاضر بالنسبة له شيئًا مستهلكًا، ويصبح لزامًا عليه أن يتخلص من ذلك الحاضر كما نتخلص عادة من الغبار الذي يعلق بثيابنا، ونجد أنه ليس بإمكاننا إعادة لبسها قبل أن ننفضها جيدًا. إن المستقبل عبارة عن قطار يسير دون اعتبار لمن يتأخر عن ركبه، ويقود المتخلفين إلى تأنيب النفس، والشعور بالندم على ما يكون قد فاتهم من فرص.

- هناك يا عدنان شيء غريب يحيرني منذ مدة طويلة.. لقد سألت أحد الشيوخ عما ذكره الأمين عن موضوع ما ملكت أيمانهم، فقال لي الشيخ إن ذلك صحيح، وأن بإمكان الرجل أن يحوي في بيته عددًا من الجواري، لكن الشيء الذي يحيرني، ونسيت أن اسأل الشيخ عنه، هو أن الأمين كان في صباه يتعاطى السرقة في المدينة بشكل مستمر، وحين ضبطوه متلبسًا في جريمة سرقة في أحد الأيام، حكموا عليه بقطع يده اليمنى.. إنه الآن بيد واحدة، اليد اليسرى فقط.. فهل ينطبق عليه النص المتعلق بما ملكت أيمانهم يا عدنان؟

- هذه قضية فقهية عويصة لن أخوض فيها يا نجمة، إن معلوماتي في علوم الفقه محدودة للغاية. والآن دعينا ننسى كل هذا.. كفي ما سمعته الليلة.. دعينا نفكر فيما سنفعل غدًا، وفيما سنفعل الليلة من أجل تعميق إحساسنا بالسعادة.. إن ظروفي يا نجمة ليست أفضل من ظروفك بكثير. وما دمنا معًا، فإن علينا أن نستمتع بكل ما تجود به علينا ليلة جميلة كهذه طالما انتظرناها، وفي مكان آمن بعيدًا عن عيون الناس طالما تمنيناه.. إنها فرصة غالية لا تعوض، ولا أريد أن نهدر لحظة منها بإرادتنا.

- نعم، أجابت نجمة، دعنا ننسى الماضي بكل آلامه وأحلامه وإحباطاته.. إن العيش في الماضي لا يفيد.. حتى حين تكون ذكريات الماضي جميلة، التفكر في أحداث ماضوية مثيرة يكون له فعل الخمر أو السحر أحيانًا، يسكرك ساعات، ثم يوقظك على حقيقة أخرى لا تمت

للحلم بصلة.. نحن الآن معًا، وأنا أهبك نفسي.. هل تقبلني يا عدنان زوجة لك؟

- بكل تأكيد.. ليس لي غيرك يا نجمة.. أنت اليوم حياتي وأملي وسعادتي، فهل يتنازل عاقل عن حياته وأمله وسعادته برضاه؟

- إذن أنت تملكني، يا عدنان، وأنا أقبل بخياري أن أكون جارية لديك، وإن يدك اليمنى سليمة.. أنت من الآن فصاعدًا زوجي، وتملك الحق لتضاجعني متى شئت. وهذا يعني أنه يحق لنا أن نمارس الجنس بدءًا من هذه الدقيقة، وأن نرشف من خمره ما يعوض سنوات الحرمان الماضية. هناك شيء آخر، يا عدنان، أريدك أن تعرفه.. إنني لا زلت عذراء.. لقد حاول الأمين مرتين أن ينام معي، لكنه فشل، مما جعله يهجرني تمامًا ويعاملني كجارية تقوم على خدمته.. لا أكثر ولا أقل.

صعق عدنان حين سمع تلك الكلمات.. إلا أنه لم يعلق عليها، بل حاول التهرب من الخوض في ذلك الموضوع، والعودة مجددًا لمواصلة الحديث عن الأمين والعلاقة التي تربط نجمة به. قال عدنان:

- إن الأمين اشتراك، يا نجمة من أبيك ودفع له ثمنًا يساوي ١٥٠ ريالاً من أجل أن يظفر بك، فكيف يمكن لك أن تتحرري من ذلك القيد؟

- هذا صحيح.. الأمين اشتراني من والدي، لكن أبي لم يستشيرني في الأمر، ولم يأخذ موافقتي، وأنا لم أهب نفسي للأمين، ولن افعل ذلك أبدًا.. إن الاتفاق كان بين الأمين وأبي، ولم أكن طرفًا فيه، وهذا يجعل من حقي شراء حريتي. لقد ترك لي مالك ما يكفي من المال لاشتري حريتي عشر مرات، ولذا سأكتب للأمين رسالة قبل أن نغادر هذا

البيت، أقول له فيها إنني قررت أن استعيد حريتي، وأن اشتريها منه بمبلغ ٣٠٠ ريال، أي ضعف ما دفعه ثمنًا لمصادرة حريتي كي أكون جارية لديه، أخدم في بيت تسكنه الأشباح، ويعشش الحرمان في كل ركن من أركانه.

- لكن من قال بأن الأمين يرغب في بيعك، وأنه لا يمانع في التنازل عن ملكيته لك مقابل مبلغ زهيد من المال كهذا؟ أعتقد أن بإمكان الأمين لو أراد المساومة، كما فعل والدك، الحصول على مبلغ كبير من المال مقابل التنازل عن ملكيته لك، أليس هذا صحيح؟

- نعم.. هذا صحيح يا عدنان.. لكن هذا ليس خيار الأمين، أو لم يعد خياره بعد اليوم، بل خياري أنا، لقد قررت أن استعيد حريتي بنفسي، أن اشتريها منه، ولي كامل الحق في ذلك.. إنه حق حصل عليه كل العبيد في كافة العصور وفي كل الدول، ألم تقرأ التاريخ يا عدنان بعد؟.

- نعم.. قرأت بعض الكتب وأعرف بعض الشيء عن الاستعباد وتجارة العبيد، وقضية الحرية ونزعة الإنسان الدائمة إليها، لكنني لا زلت اعتقد أن من واجبك استشارة الأمين وأخذ موافقته.

- يبدو عليك أنك لا زلت مشوش الفكر.. لا زلت غير قادر على فهم مغزى ما أقول.. إنني لا اطلب من الأمين أن يبيعني أو يهديني لأحد، ولا أن يمنحني حريتي.. إن بإمكان الأمين إذا رغب في جارية مثلي أن يذهب إلى البادية، أو إلى سوق عرجان حيث تتم الصفقات التجارية الخاصة بالجواري على حساب الضحايا من النساء، وأن يشتري جارية أخرى مقابل مائة ريال فقط.

- حسنا، يا نجمة، لكن هل تعتقدين أن الأمين سيكون راضيًا عما ستدفعينه له من ثمن؟

- بكل تأكيد.. إن الأمين سوف يكون سعيدًا جدًا، لأنه سيكون بحاجة لكل هللة يمكنه الحصول عليها، وذلك من أجل العودة لممارسة تجارة الأغنام والمواشي التي تعود عليها، ولا يحسن التعامل في شيء سواها.

- كنت أظن أنه يحترف مهنة التجارة، أليس كذلك؟ هذا ما قاله لي أبو أحمد.. ماذا حدث إذن؟ هل ترك المهنة حديثًا ويرغب الآن في العودة إليها؟

- لقد استمر الأمين في ممارسة مهنة التجارة حتى الشهر الماضي، حين أقنعه أبو هبة، مدير البنك، ببيع ممتلكاته من المواشي وشراء بيت قديم بالقرب من المدرسة، إذ قال له بأن البيت استثمار جيد ومضمون ومريح، وأفضل بكثير من تربية المواشي التي تتعرض للموت وأحيانًا للسرقة. ومن ثم وعده بوظيفة ساعي في البنك، ومعاش شهري يتجاوز دخل الأمين في الأحوال العادية من تجارة الغنم.

- لكنني فهمت منك ومن أبو أحمد من قبل أن الأمين رجل كبير في السن.. عجوز.. فكيف له أن يعمل ساعيًا في بنك.. هذه وظيفة تحتاج لشاب كثير الحركة والنشاط؟

- نعم.. إنه كبير في السن، ولا يستطيع القيام بوظيفة تحتاج لحركة دائمة، لكن أبو هبة لم يعده بتلك الوظيفة لأنه بحاجة لخدماته، فأنت

تعرف أن البنك صغير ونشاطاته محدودة جدًا.. لقد وعده بالوظيفة لأنه كان يريد أن يصل إليّ من خلاله.. أن يحصل على جسدي من خلال إشباع جيب الأمين ومعدته. لقد رآني أبو هبة في بيت أبو أحمد قبل شهرين تقريبًا، ومنذ ذلك اليوم وهو يلاحقني، ويختلق الأعذار لزيارتنا في البيت والتودد للأمين.. إنني على يقين من أن أبو هبة سيطرد الأمين من وظيفته في اللحظة التي تصله أخبار اختفائي عن الأنظار، وهروبي من قرية وادي الظبيان، وهذا يجعل الأمين بحاجة لمال للعودة لممارسة مهنة التجارة.

سكت الاثنان لحظات، مد عدنان يده يضم نجمة إلى صدره، تنهدت طويلا، ثم تركوا للقلوب أن تتناجى في صمت على هواها، وللأجساد أن تتواصل في هدوء، وللأرواح أن تسمو إلى أعلى مراتب العشق. كانت نجمة مشرقة كبدر في ليلة صافية.. جميلة كوردة عاطرة تتفتح براعمها لأول مرة على قدوم الربيع.. نجمة فاتنة تزين السماء، ترافق المسافرين إلى أرض السلام، وتهدي بنورها التائهين والعاشقين إلى جنة الذكريات الخالدة. وحين انقضت الليلة، تركت نجمة في مخيلة عدنان صورة رائعة لامرأة عاشقة بلا حدود أو قيود، بسيطة بلا حسب أو نسب، تمحو من ذاكرة الحبيب صور كل النساء من ذوات الحسب والنسب والمال والجاه.. النساء اللواتي يحملن على وجوههن آثار حضارة مزيفة، ويخبئن في قلوبهن مخلفات تقاليد بالية تجاوزها الزمن، ويختزن في رؤوسهن ظلم تاريخ حافل بالكبت والحرمان والاستعباد.

وبعد قضاء أجمل ليالي العمر، صحا عدنان على صوت صابر يذكره بموعد السفر.. وجد عدنان نجمته جالسة بالقرب من قدميه، تبدو قلقة، لا تريد أن تزعجه وتوقظه من نومه وتسرقه من حلمه، لكنها تخاف طلوع الشمس قبل بدء رحلة النسيان والإبحار في عالم المجهول. عاد عدنان فأغمض عينيه، شرد ذهنه لحظات معدودة في سماء زرقاء تخيلها بلا نهاية.. تمني أن يموت في تلك اللحظة.. لحظة الوصول إلى قمة السعادة ومنتهى المتعة.. لكن نجمة لم تسمح له أن يهجرها إلى حلم لا تشاركه فيه همومها.. ولم تمضي نصف ساعة حتى كان عدنان قد تناول مع حبيبته طعام الفطور، ووضع الخرج على ظهر صابر المثابر، وامتطى ظهر حماره استعدادًا للرحيل.

كانت نجمة قد أعدت العدة للسفر.. كان الخرج جاهزًا، ومئونة الرحلة والراديو بداخله، وكل ما كان لديهما من ملابس وأشياء ثمينة قد تم وضعها في حقيبة صغيرة داخل الخرج. أما النقود فقد وضعتها نجمة في صرة بعد أن تركت للأمين مبلغ ٣٠٠ ريال ورسالة من كلمات معدودة تخبره فيها بقرارها المتعلق بشراء حريتها، ودفع ضعف الثمن الذي اشتراها به. أعطى عدنان لحبيبته ما كان قد احضره معه من نقود من البنك لتحتفظ بها في صرتها، مع أشيائها الغالية التي تحملها دومًا في عبها.

- عليك أن تترك الآن لوحدك، قالت نجمة لعدنان، سأتبعك بعد دقائق.. يجب أن نتحاشى عيون الناس حتى نخرج من القرية.. توجه نحو الشمال بعد الخروج من البيت مباشرة.. واصل السير في نفس الاتجاه

حتى تصل إلى آخر بيت في الشارع.. اتجه بعد ذلك إلى الغرب، ستقابلك هناك على بُعد نصف كيلومتر تقريبًا شجرة خروب عجوز، وبجانبها صخرة كبيرة على شكل رأس أسد.. انتظرني هناك.. لن أتأخر، سألتحق بك في غضون دقائق.

هروب في عين الشمس

سار عدنان حيث أشارت عليه نجمة، لكنـه مـا كـاد أن يخـرج مـن البيت حتـى بـدأت الظنـون والمخـاوف تغـزو رأسـه مجـددًا، ويتسـرب القلـق والخـوف إلـى قلبـه ثانيـة، وتعـود أطيـاف الصـحراء الرماديـة لتلـون الطريـق أمامـه والحلـم فـي رأسـه، وترسم للطريـق معـالم قاسية تـدمع العين وتـدمي القلب. أخذ عدنان يفكر فـي مستقبله مـع نجمـة، وفـي مستقبل نجمة معه، بدأ يتساءل كيف سيعيش مع نجمة، هل سيتزوجها أم سيعاملها كجارية ويضاجعها على ذلك الأساس كما قالت، وما هي التبعات القانونية لمثل تلك العلاقة؟ كيف لـه أن يتزوجها إذا قرر ذلك.. ماذا سيقول للمسئولين فـي وزارة التعليم، وكيف سينقل الخبر لأهلـه، ومـاذا سيكون رد فعلهم.. وهل ستغضب خالتـه وسلوى كثيرًا؟ أسئلة عديدة ومحيرة تتراكض في كل الاتجاهات في رأسـه، تربكـه دون أن تعطيـه فرصـة كافيـة للتفكير ومحاولـة الإجابـة عليهـا، فالوقت قصير والقرار حاسم.

وما كاد أن يصل إلى الشجرة التي تواعد مع نجمة على اللقاء تحتهـا، حتى كان قد اقنع نفسه بأن المغامرة لابد وأن تنتهي في تلك الساعة، وأن عليـه أن يـدرك أن طريقـه لا تلتقـي مـع طريـق نجمـة، وأن مـن الأفضـل لـه ولهـا أن يفترقـا قبـل فـوات الأوان وافتضـاح أمرهمـا. قـال

لنفسه، سأستمر في طريقي، لن أتوقف عند الشجرة، ستصل نجمة متأخرة مهما سارعت الخطى، لأنني لن انتظرها، ستجد الشجرة صامدة في انتظارها هناك، لكنها لن تجد عدنان. لكنه حين اقترب من الشجرة لاحظ أن صابر أخذ يتباطأ في سيره، لأن تلك الشجرة كانت إحدى المحطات التي تعود على التوقف عندها في الماضي.. ظن عدنان أن صابر ربما كان قد اتفق مع نجمة على حراسته والحيلولة دون قيامه بتغيير رأيه، والتضحية بحبيبته. ترجل عدنان عن الحمار حال وصوله إلى الشجرة، اختلى قليلاً كي يبول، وترك لصابر الفرصة ليفعل نفس الشيء قبل مواصلة الرحلة إلى المجهول. لكنه حين همّ بالركوب على ظهر صابر المثابر مجددًا، لمح راديو نجمة في الخرج، وهذا ذكره أيضًا بفلوسه المخبأة في عب نجمة.

آه من القدر، غمغم عدنان.. إنني لا استطيع أن اتركها بدون الراديو.. إنني لن ارتكب جريمة بشعة أخرى بحق من أحب.. بحق من يبادلني الحب ويضحي من أجلي.. لن احرمها من أعز أصدقائها وأقرب الاشياء إليها.. لن اسلبها حلقة الوصل الوحيدة التي تربطها مع العالم. إن حرمانها من الراديو يعني إصدار حكم الإعدام عليها، ولن يغفر لي ربي هذه الجريمة، ولن أسامح نفسي على ارتكابها أبدا. لا، لا، لن احرمها من حبل النجاة الذي خلص عقلها من قحل صحراء بلادها، وحررها من عقم عقول رجالها.

وفلوسي التي تركتها مع نجمة تحملها في عبها، كيف لي أن أستردها، أو أسافر بدونها؟ أين سأسكن؟ وهل هناك فندق يستضيفني دون

فلوس؟ إن بإمكاني أن اترك الراديو هنا، بجانب الشجرة، ستعرف نجمة قصدي حين تجده، وتدرك طبيعة قراري، وهذا سيقنعها بعدم تتبع أثري.. ستعود إلى بيتها وقريتها وحياتها وتقاليد مجتمعها، أما الفلوس فسأعتبرها هدية مني لنجمة.. هدية صغيرة تستحقها بكل تأكيد، وحين أصل مدينة الظهران سأذهب إلى جبران مباشرة.. اخبره بما حدث معي في بني هاجر، واقترض منه بعض المال حتى اتصل بالوزارة.. إنه يعيش الآن في المدينة بعد أن نقلوه من الصحراء إلى مكاتب الشركة.

لكن كيف سأصل إلى المدينة، وكيف سأتصل مع جبران؟ إنني لا اعرف بيته ولا مكتبه ولا حتى إذا كانت الطريق التي أسلكها اليوم هي طريق المدينة، ولا أظن أن صابر يعرف طريقه في المدن حتى وإن وصلنا هناك سالمين.. إن بني الحمير خلقت للصحراء والأرياف، ومن أجل قيادة القوافل الضالة في صحارى القحل والوهم، تشتم روائح الغير وتقتفي آثارهم، ولم تُخلق للمدن.. في المدن يغدو الوهم حقيقة، ويتحول القحل إلى مروج تملق، وتزهو الأكاذيب بأثواب الرياء المزركشة كأسراب الضباب، وتصبح الأخلاق والقيم دمى يتلهى بها الأقوياء والأثرياء في كل مناسبة كما تتلهى الرياح برمال الصحراء، وتفقد الحمير قدراتها الوراثية على التعرف على الطرقات، وتترك أتباعها من الناس يتوهون في غابات الاسمنت وأنفاق الدجل والنفاق.

لكن عدنان، وبالرغم من استخدامه منطق العقل وتجربة الحياة لتحليل وضعه وتقييم علاقته مع نجمة، فشل في التوصل إلى قرار حاسم، لذا

وقف مشدوهًا، مذهولاً، حائرًا بين حبه لنجمة وسعادته في أحضانها، وخوفه من مستقبل محفوف بالمخاطر في رفقتها، والتخوف من العيش في مجتمع لا يعرف تقاليده، ولا يفهم أعرافه. جلس تحت الشجرة، وضع رأسه بين كفيه، هرب في حلم قصير استعرض خلاله كل الأحداث الحزينة في حياته.. بدأ ينهار رويدًا رويدًا.. أخذت الدموع تتساقط من عينيه دافئة.. تنهمر بغزارة دون توقف. شعور عارم بالضعف والضياع اعتراه فجأة وسيطر على كل حواسه. وبينما كان غارقًا في بحر أفكار متلاطمة بلا نهاية، وأحزان تدمي القلب بلا رحمة، ودموع تحرم العينين من رؤية الأزهار البرية يداعبها نسيم الصباح في ذلك اليوم الجميل، وإحساس طاغي بالتشرد وفقدان بوصلة الأمل، سمع صوت نجمة الحنون، وقد أتي من خلف السحاب، تحمله أشعة نور دافئة تطل بحياء، يقول:

آتيةٌ إليكَ

أنام على زِنْدكِ

في حِضنك

وأغفو ليلي الطويل

فراشةَ في راحتيكَ

خُذني إليك

حقلاً

تشم فيه رائحة الورود

كرمًا

تقطفُ منه العنب والكرز

نبعًا

يروي لك ظمأ الشوق

ونجمة عاشقة

ترنو دوما إليك

أعياني السهر

والملل

وقد غابت شمسي

وتواري قمري

ولم أعد أري في عتمة الليل

سوى أشباح الوهم

ونور عينيك

في الأمس عشت حلمًا

أعادني طفلاً شقيًا

بريئا

يعبث بكل شيء

حتى

ما كان قريبًا مني

وعزيزًا عليك

وحين حطمت كل أشيائي

صرخت بأعلى صوتي

والخوف يغمرني

كيف الهروب

كيف الوصول إليك

أيقظني صوتكُ الحنون

صدى يتردد في أذني

يُطمئنني

يقول

لبيك.. لبيك

أدركت يا أملي

مدى لوعتي

عمق جنوني في البعد عنك

خوفي من الزمن الرديء

وحاجتي إليك

أرسلت أشواقي

تقول بصمت

ورعشة عشق طاغية

آتية

آتية إليك

ارتبك عدنان تمامًا.. لم يعد يدري ماذا يفعل.. أخذ يمسح دموعه بسرعة، ويرسم على وجهه البائس ابتسامة باهتة، ويحاول الوقوف على رجليه لاستقبال حبيبته. لكن نجمة لاحظت آثار الدموع على وجهه، احمرار عينيه، وغرقه في بحر من الأحزان.. أدركت ما كان يدور في رأسه.. لم تسأله عما حدث، بل عانقته بحرارة وقبلته بجنون، وقالت له:

- اتبعني.. سنذهب إلى صخرتي المفضلة.. إن لي صخرة في كل مكان أعيش فيه وبالقرب منه، ائتمنها على أسراري، تحميني من عيون الناس والمتطفلين، تطمئنني وتعيد السكينة إلى نفسي كلما حاول الشقاء أو اليأس اغتيالي، وتهديني حين أتوه وأضل طريقي في صحاري الوهم والبؤس.. تعال معي.. لقد اشتقت لحضنك الدافئ، اشتقت لليلة البارحة.. هل مارست الجنس في الهواء الطلق من قبل؟ ولا أنا طبعًا.. تعال.. دعنا نجرب.

ودون سماع رأيه، خلعت ثوبها وفرشته على الأرض، جذبت يد عدنان وأجلسته بجانبها.. ضمته إلى صدرها.. قبلته بعنف.. أيقظت كل مكامن النشوة والإثارة في جسده.. سارع عدنان إلى خلع ثيابه، ساعدته على خلعها وهي تلهث، مارسا الجنس كما لم يمارسانه من قبل، تظللهما عن بعد شجرة الخروب العجوز، وتحميهما بركات الصخرة. وحين همد البركان، صحا عدنان من حلمه، ونفض غبار الحزن عن نفسه، وقال:

- أنت تعرفين يا نجمة كم احبك، لكنني خائف عليك، إنني قلق ومضطرب إلى أقصى حدود القلق.. لا أدري ماذا افعل.. أريد أن أتزوجك الآن، لا أريد أن أعيش معك بدون زواج، لكنني لا أعرف شيخا يُزوجنا، ولا أين لنا أن نتزوج، ولا كيف نجعل زواجنا شرعيًا ومعترفًا به من قبل الدولة والمجتمع.

- لا تحمل هما يا حبيبي.. إن أي شيخ أو واعظ في أية قرية أو سوق يكون سعيدًا جدًا إذا طلبنا منه أن يُزوجنا ويكسب أجره عند الله..

سأقول له أنني أهبك نفسي، وسيسألك إذا كنت تقبل الزواج مني، وبناء على ذلك، وفي حضور شاهدين يقوم بإتمام مراسم عقد القران، ونتزوج على سنة الله ورسوله.. وإذا احتاج الأمر لدفع بعض النقود لقاء تلك الخدمات، فإن لدينا ما يكفي من المال لنتزوج مئة مرة.

- لكنني لا أزال خائفا يا نجمة.. لدي شعور غريب بأنهم سيقتفون أثرنا حال عودة الأمين إلى البيت، والتيقن من أنك هجرتينه ولا تنوين العودة إليه.. أخاف أن يلحقوا بنا قبل أن نهرب من هذا المكان ونتوارى عن الأنظار...أنني لا أدري حتى كيف نهرب، ولا إلى أين نهرب.. لا أدري في الواقع معنى الهروب في صحراء بلا حدود تكاد أن تختفي منها آثار الوجود.. هل تدركين يا نجمة أننا نعيش اليوم خارج الوجود، نعيش بلا أهل، بلا عمل، بلا بيت، بلا صديق، بلا تصور لمستقبل، بلا طريق نسلكه، وبلا مكان نذهب إليه.

- لا تخاف يا حبيبي ولا تقلق كثيرًا.. أعدك بأن كل شيء سيكون على ما يرام.. إنهم لن يقتفوا أثرنا.. إن الأمين ليس أفضل من أبي.. إنه لن يحاول اقتفاء أثري.. سينساني في اللحظة التي يرى فيها الريالات في يده.. إنه يحب المال أكثر من أي شيء آخر، أكثر من ولده، وأمه، ودينه، وربه.. المال هو الشيء الوحيد الذي يحرك مشاعره، ويفتح عينيه، ويُفرح قلبه، ويُسعد أيامه ولياليه، ويَسلبه كرامته، وحتى رجولته.. إنه لا يختلف كثيرًا عن أغنياء العالم من الأثرياء الأغبياء، الذين لا يعرفون مهنة سوى جمع المال، ولا طريقًا يسلكونه سوى طريق الكذب والدجل والاحتيال، ولا يعبدون إلهًا غير الدولار، ولا

محرابًا يتعبدون في رحابه سوى محراب المذلة والهوان.. لا تقلق يا عدنان، كلها أيام معدودة، ونجد هدوء البال والطمأنينة، وتغمرنا السعادة التي افتقدناها طوال العمر.

- لكن ماذا يمكن أن يحدث لنا لو أن الأمين أو أحد أقربائه أو معارفه الذين يعرفوك رآنا معًا في المدينة بعد حين.. إن ذلك سيخلق لنا مشكلة كبيرة حتى ولو كنا متزوجين.. إن حادثًا كهذا من الممكن أن يعرض حياتنا للخطر.. أليس كذلك يا نجمة؟

- قلت لك لا تقلق، يا عدنان، إنك لا تعرف ظروف هذا البلد، ولا تقاليده، ولا أعرافه.. إن زوجي لو قابلني في السوق وجهًا لوجه، واحتك كتفه بكتفي، لن يعرفني.. إنه لن يرى وجهي أصلاً، ولا يستطيع أن يطلب مني أن اكشف عن وجهي حتى ولو اشتبه بي. لقد كان مالك يقول لي دومًا إن الإنسان في بلادنا ليس له قيمة، إنه العبء الذي تُسخِرُ الدولة إمكانياتها للتخلص منه، والمرأة في بلادنا هي العبء الأكثر ثقلاً على النفوس.. إنها المخلوق الذي يلاقي الإهمال من قبل الدولة والمجتمع.. إنها المتعة التي يشتهيها كل رجل ويبحث عنها في كل مكان، والسؤال المحير الذي لا يريد أن يسأله رجل لنفسه، أو يجيب عليه مسئول.. إن المسئولين في بلادنا يحصون عدد الجمال والصقور يا عدنان، لكنهم لا يحصون عدد الناس، ولا يكترثون لمن يعيش أو يموت منهم.. هيا بنا، دعنا نودع الصخرة، ونستلهم منها طريق السلامة.. يجب علينا أن نترك الآن، قبل طلوع الشمس واشتداد الحرارة.

- هل تعرفين الطريق يا نجمة؟

- لا يا عدنان، لا يعرف أحد من الناس أو الحيوانات طريقه في الصحراء سوى الحمير.. اترك أمر الطريق والمكان لصابر المثابر.. إنه يعرف كل الطرق، وكل الأسواق الشعبية.. وإنه لن يتركنا نضيع في الصحراء، ولن يترك نفسه عرضة للاتهام بالغباء.

- لكن أين نحن ذاهبون.. إلى أي القرى.. إلى أي الأسواق.. إلى أي المدن؟

- لا أدري يا عدنان، قالتها كغريق فقد الأمل في النجاة، وترك للدموع أن تنهمر وتغرق عينيه.. دعنا نسير في المجهول، ونَعْبُره إلى عالم لا يعيش فيه غير التائهين.. البائسين الباحثين عن شيء لا يعرفون شكله، ولا لونه، ولا أين يجدونه، ولا كيف الوصول إليه.. دعنا نتجه نحو الشمال، بعيدًا عن عين الشمس، ونسلم أمرنا لصابر، ونأتمن مستقبلنا لقيادته الحكيمة، فنحن لسنا أفضل من شعوبنا المغلوبة على أمرها. إن الحمار كما تعلم، هو أقدر من يقتفي الآثار، وأفضل قائد للتائهين في صحارى العرب من الأبرار والأشرار.

تعانقا طويلاً.. تعاهدا على الحب والإخلاص مهما كانت الصعاب.. امتطى عدنان ظهر صابر، ركبت نجمة خلفه، لفت يديها حول خصره، وتركت صوتها الجميل يسبقها، يعانق السماء، يواعد نسيم الصباح العليل، يغني للحب الذي دق باب قلبها وفتحه عُنوة، وللعشق الذي غرس جذوره في خلاياها وأبى أن يفارقها، ولفارس الأحلام الذي

يحملها على جناحي خرج حمار إلى جنة الخالدين، حيث يتسكع الهائمون على وجوههم، ويجد الضائعون في المجهول أنفسهم.

وبينما كانت نجمة تعيش الحلم على هواها، وصابر المثابر يشق طريقه بصعوبة في رمال صحراء قاسية لا ترحم، كان عدنان يردد في داخله قول شاعر عربي مجهول أبى أن يبوح باسمه أو عنوانه:

عشاق الوطن أقزام صِغار
وصُناع الهزائم عمالقة كبار

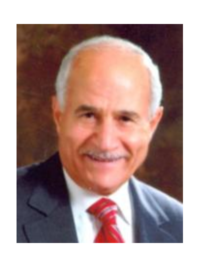
بواسل يتذكرون كل ثأر قديم
وجبناء حين يطل برأسه استعمار

الأعمى في عرف أمتنا بصير
وجاهلية الأمس مرجع لنا وشعار

قوافل في صحارى الوهم هائمة
وقائد كل قافلة في صحارينا حمار

د. محمد عبد العزيز ربيع

مارس ٢٠٠٨



د. محمد عبد العزيز ربيع

ولد الدكتور محمد ربيع في يازور/ يافا، وعاش بضع سنوات من طفولته في مخيم عقبة جبر وذلك قبل الانتقال إلى مدينة أريحا. تخرج من مدرسة هشام بن عبد الملك الثانوية في أريحا، وتابع دراسته الجامعية والعليا في جامعات مصر وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية.

حصل على عدة منح دراسية من جامعات ومؤسسات علمية وثقافية من كل الدول التي درس فيها، كما حصل على درجة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة هيوستن في تكساس عام ١٩٧٠.

قضى معظم حياته في التدريس الجامعي، حيث عمل أستاذًا في عدة جامعات عربية وأجنبية، من بينها جامعة الكويت وجامعة الأخوين في المغرب، وجامعتي جورج تاون وجونز هوبكنز في واشنطن، وجامعة ايرفورت في ألمانيا، وحاضر في أكثر من سبعين جامعة عربية وأمريكية وأوروبية ومعاهد دراسات إستراتيجية، كما شارك في عشرات الندوات والحوارات العلمية والثقافية في أكثر من خمسين دولة.

نشر الدكتور ربيع ٢٢ كتابًا، ١٤ منها بالعربية والباقي بالإنجليزية. كما نشر عشرات الدراسات العلمية في مجلات عربية وأمريكية وألمانية، إضافة إلى مئات المقالات الصحفية.

من بين كتبه بالعربية: هجرة الكفايات العلمية، الاقتصاد والمجتمع، الوجه الآخر للهزيمة العربية، صنع السياسة الأمريكية والعرب، المعونات الأمريكية لإسرائيل، الحوار الفلسطيني الأمريكي، وصنع المستقبل العربي. للدكتور ربيع أيضا قصة بعنوان "رحلة مع القلق" ورواية شعرية بعنوان "قطار الزمن" ومجموعة شعرية بعنوان "خريف الذكريات"، وروايتان: "هروب في عين الشمس" و "مملكة جهلواد"، وثلاثة كتب: "الثقافة وأزمة الهوية العربية"، "القائد وصنع التاريخ"، وكتاب آخر بالإنجليزية.

من بين كتبه بالانجليزية:

The Politics of Foreign Aid; A Vision for the Transformation of the Middle East; The New World Order; Conflict Resolution and Ethnicity; The US-PLO Dialogue; and The Making of History.

الدكتور ربيع عضو في العديد من المنتديات العلمية والمؤسسات الأكاديمية، من بينها مؤسسة Alexander von Humboldt الألمانية، ومنتدى الفكر العربي، والهيئة الاستشارية لكتاب في جريدة، والمجلس العالمي للأفكار الجديدة World Council for New Ideas. كما أنه مؤسس مجلة العلوم الاجتماعية التي تصدر عن جامعة الكويت، وصاحب فكرة الحوار الفلسطيني الأمريكي التي تمخض عنها اعتراف الحكومة الأمريكية بمنظمة التحرير الفلسطينية وبدء عملية السلام في عام ١٩٨٩ ، حيث قام بكتابة الوثيقة التي تم التفاوض على أساسها، وتنسيق الاتصالات السرية بين الطرفين وصولا إلى الاعتراف الأمريكي بالمنظمة وبدء عملية الحوار معها.

- البريد الإلكتروني : **professorrabie@yahoo.com**

rabiem@hotmail.com

شمس للنشر والإعلام

رؤية جديدة في عالم النشر

شمس
للنشر والإعلام

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر،تأسست "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، وبين تحقيق رسالتها الثقافية.

وتهدف "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" إلى تحقيق عدد من الغايات، تتمثل في:

- إتاحة الثقافة الرفيعة للقارئ، وتلبية حاجاته من المعرفة.
- تفعيل حركة النشر، خاصة لشباب المؤلفين، ورعاية وتشجيع المبدعين، ودعم قدراتهم الفكرية والأدبية، والعمل على إبرازها.
- الإسهام الفعال في نشر الإبداع العربي، من خلال سياسات ترويج وتوزيع تتلاءم ومقتضيات العصر.
- حماية الحقوق الفكرية والمادية للكتّاب، وإعادة صياغة أسس التعامل المادي مع المؤلفين وفق قواعد أكثر إنصافاً.

- التعريف بالكاتب والكتاب إعلامياً وجماهيرياً، ومد جسور التواصل بين المبدع والمتلقي.
- الوصول بالإبداع العربي إلى القارئ غير العربي، من خلال ترجمة الإصدارات العربية المتميزة إلى لغات مختلفة، والعمل على خلق آفاق عالمية لنشرها بالتعاون مع دور نشر احترافية.
- إثراء الحياة الثقافية بالأنشطة والندوات والفعاليات، من خلال رؤى تنظيمية وترويجية تضمن نجاحها والمشاركة الفاعلة فيها.
- توثيق الصلات بين دور النشر المحلية والعربية والدولية، وكذلك بين الكتاب والمثقفين العرب، والتواصل الفاعل مع المهتمين على اختلاف توجهاتهم، وفق صيغ تعاون إيجابية.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

شمس للنشر والإعلام

www.shams-group.net

(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065



(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net